من أعلام الإحياء الإسلامي

الإمام الشيخ: محمد رشيد رضا

الإمام الشهيد: حسن البنا

الإمام الشيخ: محمد البشير الإبراهيمي

الإمام الأكبر الشيخ: محمود شلتوت

إمام الفقه والقانون الدكتور: عبد الرزاق السنهوري

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

من أعلام الإحياء الإسلامي

الطبعـــة الأولى
١٤٢٧هـ ـــ ديسمبر ٢٠٠٦م

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٠١٣٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٢٩
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

من أعلام الإحياء الإسلامي

- الإمام الشيخ : محمد رشيد رضا
- الإمام الشهيد : حسن البنا
- الإمام الشيخ : محمد البشير الإبراهيمي
- الإمام الأكبر الشيخ : محمود شلتوت
- إمام الفقه والقانون الدكتور : عبد الرزاق السنهوري

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عمارة، محمد
من أعلام الإحياء الإسلامي/ محمد عمارة.
ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م .
٢٩٦ ص ، ١٧ × ٢٤سم.
تدمك : 8 -1831-09 -977
١- رجال الدين الإسلامي.
٢ ـ الإسلام ـ حركات الإحياء والإصلاح والتجديد.
أ ـ العنوان ٩٢٢,١

رقم الإيداع ١٩٢١٠ /٢٠٠٦م
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-09-1831- 8

الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة
تمهيد	٩
١٠	
الإمام الشيخ: محمد رشيد رضا	
١ ـ بطاقة حياة	٢١
٢ ـ منار الإحياء والتجديد	٣٢
٣ ـ أولى المعارك ضد العلمانية	٤٢
٤ ـ أولى المعارك ضد الصهيونية	٥٠
المصادر والمراجع	٦٢
٢٠	
الإمام الشهيد: حسن البنا	
١ ـ بطاقة حياة	٦٥
٢ ـ التأسيس لليقظة الإسلامية الحديثة	٧٧
٣ ـ تصاعد التحدي . . وعموم البلوى	٨٤
٤ ـ الجامعة الإسلامية في طور جديد	٨٨
٥ ـ من معالم التجديد في مشروعه الحضاري	٩١
أ ـ التميّز عن المؤسسات الدينية التقليدية	٩١

ب ـ الجمع بين «النظر العقلي» و«النظر الشرعي» ٩٢
ج ـ مرونة الشريعة . . والانفتاح على الحكمة الإنسانية ٩٤
د ـ إسلامية النظام النيابي الدستوري ٩٦
هـ ـ رفض التغريب . . ونقد الحضارة المادية الغربية ٩٧
و ـ التمييز بين المقدس المعصوم . . وبين التراث الفكري ٩٩
ز ـ النقد لتاريخ الدولة . . ولمناهج الفكر في التاريخ الإسلامي ١٠١
ح ـ الاستقلال الحضاري الشامل . . وسيادة الأمة ١٠٢
ط ـ تكامل دوائر الانتماء : الوطني . . والقومي . . والإسلامي . . والإنساني ١٠٣
ى ـ رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله . . محمد رسول الله ١٠٦
ك ـ في العدل الاجتماعي : فقه الواقع . . وبرنامج الإصلاح ١٠٧
ل ـ سنة التدرج في الإصلاح ١١١
م ـ القوة . . والثورة ١١٤
المصادر والمراجع ١١٨

-٣-

الإمام الشيخ: محمد البشير الإبراهيمي

١ ـ بطاقة حياة ١٢١
٢ ـ المنهاج الإسلامي في الإصلاح ١٢٨
٣ ـ إمام في مدرسة الأئمة ١٣٥
٤ ـ في الإصلاح الديني . . والعلمي . . والتعليمي ١٣٧
٥ ـ المنهاج المعجزة في تفسير القرآن الكريم ١٤٧
٦ ـ في الإصلاح السياسي ١٥٠
المصادر والمراجع ١٥٨

٤٠
الإمام الأكبر الشيخ: محمود شلتوت

تقديم ١٦١
١ ـ بطاقة حياة: السيرة الحياتية . . والمسيرة العلمية ١٦٣
٢ ـ المدرسة الفكرية: مدرسة الإحياء والتجديد ١٧٤
٣ ـ المشروع الفكرى: تجديد الدين الإسلامى . . لتتجدد به دنيا المسلمين ١٩٣
أ ـ الاجتهاد والتجديد ١٩٣
ب ـ العقائد الإسلامية ١٩٧
• فى العقائد الإسلامية ١٩٧
• فى عالم الغيب ١٩٨
• فى السنة النبوية ١٩٩
• فى البدعة . . والإبداع ٢٠١
• فى تكفير: من لم يحكم بما أنزل الله ٢٠٢
ج ـ الدين والدولة . . والنظام السياسى ٢٠٤
• فى علاقة الدين بالدولة ٢٠٤
• الاستبداد، والشورى ٢٠٥
د ـ الاقتصاد والمعاملات المالية ٢٠٧
• فى الأموال والثروات ٢٠٧
• فى المعاملات المالية المستحدثة ٢٠٨
١ ـ الشركات المساهمة ٢٠٨
٢ ـ الأسهم ٢٠٩
٣ ـ السندات ٢٠٩
٤ ـ صندوق التوفير ٢٠٩
٥ ـ الاقتراض بفائدة ٢١١
٦ ـ الاستغلال الاقتصادى ٢١١

هـ ـ الغزو الفكرى : الشيوعية ـ والداروينية ٢١٢
• الموقف من الشيوعية والفلسفة المادية ٢١٢
• فى نظرية التطور، والنشوء، والارتقاء ٢١٢
و ـ المرأة . . والأسرة : ٢١٤
• عن المرأة وعلاقتها بالرجل ٢١٤
• فى الزواج السرى ٢١٨
• فى زواج المتعة ٢١٩
• فى النسل بين التحديد والتنظيم ٢٢٠
ز ـ الفنون الجميلة ٢٢٣
• الموقف الإسلامى من الفنون الجميلة ٢٢٣
ح ـ التقريب بين المذاهب ٢٢٦
• فى التقريب بين السنة والشيعة ٢٢٦
المصادر ٢٣٠

٥

إمام الفقه والقانون الدكتور: عبد الرزاق السنهورى

تقديم ٢٣٣
١ ـ بطاقة حياة ٢٤٠
٢ ـ من كتابات السنهورى باشا عن :
أ ـ الدين والدولة فى الإسلام ٢٥٣
ب ـ المدنية الإسلامية . . والنهضة الشرقية ٢٦٢
من أوراقه الشخصية ٢٦٢
الإسلام والشرق ٢٨٧
المراجع ٢٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

[الإحياء]: مصطلح قرآنى، يعبر بدقة متناهية عن آثار العطاء الشامل الذى جاء به الإسلام، ليهب المؤمنين به «الحياة الحقيقية» فى كل ميادين الحياة؛ سواء أكان ذلك فى المعاش الدنيوى، أم فى المعاد الأخروى ـ بعد هذه الحياة..

وإذا كانت النفخة الإلهية التى نفخها الله ـ سبحانه وتعالى ـ من روحه فى الهيكل الطينى لآدم عليه السلام هى التى جعلت هذا المخلوق ـ من طين، حمأ مسنون ـ أكرم خلق الله على الإطلاق، والمفضل حتى على الملائكة المقربين ـ الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.. حتى لقد سجدوا له بأمر الله.. فإن الإسلام، بمنهاجه الشامل، هو الذى ضمن ـ ويضمن ـ الإحياء الكامل والتحرير الدائم لجميع ملكات هذا الإنسان وطاقاته ـ المادية منها والروحية ـ فى سائر ميادين حياة هذا الإنسان.. حتى ليرتفع الإنسان بهذا الإحياء الإسلامى إلى حيث يكون «الإنسان الربانى»، الذى إذا أقسم على الله أبرّه الله!..

إنه الماء: الذى إذا نزل على الأرض الهامدة اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج!.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فرسالة الإسلام، وثمرات الإيمان به، والإقامة لفرائضه: هى الإحياء لهذا الإنسان.

* وفى تفسير هذا المعنى لمصطلح [الإحياء] ـ الوارد بهذه الآية الكريمة ـ يقول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [١٢٩٦ ـ ١٣٩٣هـ/ ١٨٧٩ ـ ١٩٧٣م] ـ فى تفسيره [التحرير والتنوير]:

«إن الإحياء - هو إعطاء الإنسان ما به كمال الإنسان - فيعم كل ما به ذلك الكمال، من

- إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح.

- والخلق الكريم.

- والدلالة على الأعمال الصالحة.

- وإصلاح الفرد والمجتمع.

- وما يتقوم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة.

فالشجاعة حياة النفس.

والحرية حياة

واستقامة أحوال العيش حياة..»[1].

* وإذا كان الإسلام علماً ومعرفة قبل أن يكون عبادات ومعاملات [illegible] وعبارة إمام دار الهجرة مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ / ٧١٢ - ٧٩٥م] رضي الله عنه: «إن ديننا هذا علم، وإن علمنا هذا دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم» [illegible] في [الموطأ] «أنه [illegible] أن [illegible] الحكيم أوصى [illegible] فقال: «يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل السماء»..

* وإذا كان «التوحيد» الذي يبلغ في الاعتقاد الإسلامي أعلى مستويات التنزيه والتحرير [illegible] والذي يعلنه شهادة «أن لا إله إلا الله» هو جوهر الإسلام [illegible] فإن هذا التوحيد - الذي يفرد الذات الإلهية بالعبودية - هو الذي يحيي جميع ملكات الإنسان المؤمن، وكل طاقاته، وذلك عندما تحرر هذه الملكات والطاقات من كل [illegible] والعبودية لكل الطواغيت [illegible] فقمة العبودية لله الواحد بالتوحيد هي قمة الحرية والتحرير، والإحياء لكل الملكات والطاقات في الإنسان..

[illegible] [التحرير والتنوير] مجلد ٥ جـ ٩ ص ٢٠٣، طبعة تونس

وصدق الله العظيم عندما وصف هذا الإسلام [illegible] والإحياء الإسلامي، وتحريره للمؤمنين بأنه ﴿يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]

فهو [الإحياء] الذي يحطم الأغلال عن الملكات والطاقات.

* وهذا التحرير والإحياء الذي يمثله الإسلام في جميع مناحي الحياة، كما يكون في [illegible] يكون في الاجتماع، وكما يكون في الفكر، يكون في [illegible]

ولقد أدرك المفسرون القدماء للقرآن الكريم هذا المعنى الدقيق [illegible] معنى أن [illegible] تحرير ملكات الإنسان وطاقاته، وتحييها، هي "حقيقة الحياة" [illegible] الرق [illegible] يستعبد الإنسان بعد الله هو "الموت والموات" [illegible] الإمام [illegible] [٧١٠هـ/١٣١٠م] في تفسيره قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة﴾ [النساء: ٩٢] وفي تعليل هذا الحكم "التحرير" مقابل "الإماتة" [illegible]

"إنه [أي القاتل] لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحياء؛ لزمه أن يُدْخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكما ﴿ومن كان ميتا فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢]".[1]

فالكفر: رق وموت.. والإسلام: تحرير وحياة وإحياء..

* وكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات، في ميادين الاستقلال للأوطان، والتحرير للهويات، والثقافات والحضارات.

فالذين يخنعون ويخضعون لرق الاحتلال لأوطانهم، ويتأولون في عدوهم، قد عدوا أمواتًا، حتى ولو كانوا يأكلون ويشربون!

حتى إذا تحرروا من هذا الخنوع والرق، فاستردوا استقلال أوطانهم، وحرية ضمائرهم من الاحتلال والقهر والاستعمار، عادت إليهم الروح والحياة التي تبعث الإحياء فيما لديهم من طاقات وملكات.

---

[1] [illegible] [مدارك التأويل، وحقائق التأويل] جـ١ ص ١٨٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ

ولقد لمح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] هذا المعنى مصطلح [لإحياء] وبيّنه عليه، وهو يفسر قول الله ـ سبحانه وتعالى ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣) وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ [البقرة ٢٤٣، ٢٤٤]

فقال ـ في تفسير هذه الآيات:

«تلك سنّة الله تعالى في الأمم التي تجبن؛ فلا تدفع العادين عليها. وحياة الأمم وموتها، في عرف الناس جميعهم، معروف.

فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكّل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة ـ بأن تفرق شملها ـ وذهبت جامعتها، فكل ما بقي من أفرادها خاضعين للغالبين.. ضائعين فيهم.. مدغمين في غمارهم.. لا وجود لهم في أنفسهم؛ وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم.

ومعنى حياتهم هو: عودة الاستقلال إليهم!..

إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة، هي الحياة الملّية ـ [الوطنية] ـ المحفوظة من عدوان المعتدين..

والقتال في سبيل الله.. أعمّ من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل ـ أيضا ـ الدفاع عن الحورة، إذا همّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا عن ديننا فالقتال لحماية الحقيقة، كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتّفق الفقهاء: على أن العدو، إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..»[1].

* * *

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧، دراسة وتحقيق د. محمد عماره، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢

* ولأمر ما ـ بل لعله لهذا الأمر وهذا المعنى على وجه التحديد ـ أطلقت أمتنا ـ في عصرها الحديث ـ على التيارات الفكرية، والمدارس الدعوية، والحركات والجماعات، التي جاهدت وناضلت لإخراج الأمة من «المواد الحضاري» لعصور التخلف والتراجع والانحطاط ـ وعملت على إعادة الأمة إلى مكانتها الطبيعية، التي بوأها لها الإسلام ـ مكانة الريادة والقيادة والإمامة ـ أطلقت الأمة على هذه التيارات والدعوات والحركات مصطلح [الإحياء]. فسلكتها جميعًا تحت عنوان «**تيار الإحياء.. والتجديد.. والصحوة.. واليقظة**»، عندما انتظمت جميعها تحت رايات الإسلام، وانطلقت من مرجعية الإحياء الإسلامي.. والإحياء بالإسلام.

* * *

* ولقد كان لصاحب هذا القلم شرف الاهتمام الملحوظ بأعلام هذا التيار الإحيائي في تراثنا الإسلامي ـ القديم منه ـ والوسيط ـ والحديث ـ والمعاصر ـ بدأ هذا الاهتمام منذ أربعين عامًا ـ عندما جمعتُ وحققتُ ودرستُ ونشرتُ سلسلة الأعمال الكاملة لعدد من أبرز علماء مدرسة الإحياء والتجديد ـ من مثل:

ـ **رفاعة رافع الطهطاوي** [١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م]

ـ **جمال الدين الأفغاني** [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م]

ـ **الإمام محمد عبده** [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]

ـ **عبد الرحمن الكواكبي** [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م]

ـ **علي مبارك** [١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ / ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣م]

وحتى **قاسم أمين** [١٢٨٠ ـ ١٣٢٦هـ / ١٨٦٣ ـ ١٩٠٨م].

* وعبر هذه السلسلة من الدراسات المطولة، والتحقيقات لمشاريع الإحياء هذه، كانت الكتابة ـ للكتب أو الفصول ـ عن العديد من أعلام هذه المدرسة الإحيائية التجديدية ـ سواء في تراثنا القديم.. من مثل:

ـ **عمر بن الخطاب** [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ / ٥٨٤ ـ ٦٤٤م]

ـ **علي بن أبي طالب** [٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ / ٦٠٠ ـ ٦٦١م].

ـ عمر بن عبد العزيز [٦٢ ـ ١٠١هـ/ ٦٨١ ـ ٧٢٠م]

ـ الحسن البصري [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م]

ـ عمرو بن عبيد [٨٠ ـ ١٤٤ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٠م]

وغيرهم

أو في تراث الوسيط .. من مثل:

ـ الماوردي [٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨ م]

ـ ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م]

ـ العز بن عبد السلام [٥٧٧ ـ ٦٦٠هـ/ ١١٨١ ـ ١٢٦٢م].

وغيرهم

أو في تراث الحديث .. من مثل:

ـ الإمام محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م]

ـ الإمام محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م]

ـ مهدي السودان محمد أحمد [١٢٦٠ ـ ١٣٠٢هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م]

ـ عمر مكرم [١١٦٨ ـ ١٢٣٧ هـ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢ م]

ـ خير الدين التونسي [١٢٢٥ ـ ١٣٠٨هـ/ ١٨١٠ ـ ١٨٩٠م]

وغيرهم

أو في تراث المعاصرين .. من مثل:

الإمام: عبد الحميد بن باديس [١٣٠٧ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م]

ـ الإمام الأكبر: الشيخ محمد الخضر حسين [١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م]

ـ الأستاذ: أبو الأعلى المودودي [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م]

- الشيخ محمد الغزالي [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ / ١٩١٧ - ١٩٩٦م].

.. وغيرهم، وغيرهم من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد[1].

***

* وفي هذه الكتب [illegible] خمسة من الأعلام المتميزين عن خمسة من الأعلام المتأخرين في مدرسة الإحياء والتجديد.

دراسات عن السيرة الذاتية، والمشاريع الفكرية الإحيائية، وجهود كل هؤلاء الأئمة في التمهيد لمشروع الإحياء والتجديد من «مرحلة الريادة» التي مثلها الأفغاني ومحمد عبده - إلى مرحلة «التفصيل لمعالم المشروع الإحيائي الإسلامي.. والممارسة والتطبيق» ومن مرحلة «الصفوة والنخبة» إلى مرحلة «الأمة والجماهير»..

ولقد حرصت على أن تمثل - فصول هذه الكتب - [illegible] التي تؤلف جميع مجددي الإحياء والتجديد [illegible] وفق شمولية الإسلام وكليته، ووفق وحدة المرجعية الإسلامية، ووحدة دار الإسلام وأمة الإسلام، حتى يكون هذا «ديوان الإحياء» من خلال هؤلاء الأعلام.

١ - فالإمام الشيخ: محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] وهو الذي حمل رسالة رواد الإحياء الأفغاني ومحمد عبده - وقدمها عبر مجلة [المنار] إلى شعوب أمة الإسلام، وتصدى على امتداد محور العقد الأول من القرن العشرين لمواجهة التحديات الغربية الاستعمارية المعاصرة، وقدم «المدرسة» التي تخرجت منها جيوش الصحوة الإسلامية المعاصرة وحركاتها.

وهو الذي اقترب بهذا المشروع الإحيائي من الأمة والجماهير.

٢ - والإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] وهو الذي تسلم الأمانة من جيل رواد عصر النهضة، ليضع شمولية الإسلام في الممارسة والتطبيق، ويستدعي الأمة بجماهيرها لتحمل هذه الأمانة مع الصفوة والنخبة

---

[1] [illegible] هؤلاء الأعلام [illegible] دراسة عن خمسة، ويعتزم [illegible] دراسة عن خمسة أخرى.

والعلماء ـ بعد عموم بلوى الاستعمار والتغريب. وبتقييم «الحركة» التي حملت المشروع الإحيائي إلى مختلف أنحاء العالم الذي نعيش فيه!

٣ ـ والإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ ـ ١٣٥٩هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م] وهو الذي انتقل بهذا المشروع الإحيائي ـ مع رفيقه الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس ـ من المركز ـ مصر ـ إلى المغرب العربي ـ وخاصة الجزائر ـ لإحيائها من موات الاستعمار ـ والبدع والخرافات. فبرهن على عالمية المشروع الإحيائي، النابعة من عالمية الإسلام..

٤ ـ والإمام الأكبر الشيخ: محمود شلتوت [١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م] وهو الذي مثل بعقله الفقهي المتميز قمة التجديد الفقهي في القرن الرابع عشر الهجري ـ العشرين الميلادي ـ وذلك عندما واكب فقهه للأحكام فقهه للواقع الجديد، فكانت اجتهاداته الفقهية «أصولية دائمًا ومتجددة أبدًا»!

٥ ـ أما إمام الفقه والقانون الدكتور. عبد الرزاق السنهوري باشا [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] فإنه الفقيه الذي أعاد اللقاء بين فقه الشريعة ـ كما تبلور في تراثنا ـ وبين القانون الحديث ـ بما تميز به من فن الصياغة والتقنين ـ فأزال الفصام النكد الذي صنعه الاستعمار والعلمانية، بين فقه الشريعة وبين القانون الحديث حتى لقد أطلق عليه أساتذته الفرنسيون في باريس سنة ١٩٢٦م ـ وهو يدرس القوانين الأوروبية ـ لقب «الإمام الخامس» في فقه الإسلام!..

فكان تفرُّده ـ عالميًا ـ «بوضع» القانون المدني «وشرحه» مقاربًا لعمله على بعث الشريعة الإسلامية لتتخطى أعناق القرون ـ وعلى التجديد لفقهها، حتى يكون المصدر الوحيد للقانون الموحد في وطن العروبة وعالم الإسلام[1]

***

نعم ـ تلك هي رسالة هذا الكتاب، الذي تُقدم فصولُه الخمسة مرحلة متميزة من مراحل [الإحياء الإسلامي]..

والتي تؤكد هذه الفصول كذلك على تكامل السمات والقسمات في هذه الظاهرة الواحدة المتحدة ـ ظاهرة الإحياء بالإسلام ـ «لأنه هو السبب المفرد لسعادة

(١) انظر كتابنا [إسلاميات السنهوري باشا] في مجلدين ـ طبعة دار الوفاء سنة ٢٠٠٦م

الإنسان» كما قال رائد الإحياء الإسلامي جمال الدين الأفغاني قبل قرن ونصف من الزمان!..

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب وأن يُعين على نصرة دينه وأمّة نبيه محمد ﷺ ودار الإسلام..

إنه ـ سبحانه ـ أفضل مسئول.. وأكرم مجيب.

د. محمد عمارة

القاهرة في ٣ جمادى الأولى سنة ١٤٢٧ هـ

٣٠ مايو سنة ٢٠٠٦م

(١)

الإمام الشيخ

محمد رشيد رضا

[١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م]

ـ ١ ـ

بطاقة حياة

* هو «السيد» محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين ملا علي خليفة القلموني [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] نسبة إلى بلدته «القلمون» .. إحدى قرى نواحي «طرابلس» الشام ..

* ولقد ترجمت أسرته إلى «القلمون» من بغداد ـ فهو بغدادي الأصل ـ أما لقب «السيد» الذي اشتهر به، واعتز به فلأن أسرته «شريفة»، يرتفع نسبها إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

* ولد رشيد رضا بقرية «القلمون»، في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥م والمشرق العربي خاضع للدولة العثمانية و«طرابلس» الشام ولاية من ولاياتها ..

* وفي المحيط المتدين للأسرة بدأ رشيد رضا يتلقى دروس تعليمه الأولى بقريته، على عادة عصره، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ بأسباب التعليم التي تؤهله كي يكون عالمًا من علماء الإسلام ..

* وفي «طرابلس» عاصمة الولاية ـ التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية كما درس في «بيروت» وانتهى به المطاف ـ بعد أن درس علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، واللغة العربية، والفقه ـ إلى نيل شهادة «العالمية» من طرابلس، بعد أن حصّل ما يشابه علوم الأزهر الشريف في مصر ..

[illegible] الشيخ حسن الحسر[١٢٦١ ١٣٢٧هـ/ ١٨٤٥ـ١٩٠٩م] و الشيخ عبد الغني الرافعي [٢٣٦ ١٣٠٨هـ ٨٢ ـ ١٨٩١م]

* [illegible] «المقوى»، مع قصيدة [illegible] في «أسد»، [illegible] «المقوى» [illegible]

* ومن الكتب التي طبعت فكره ووجهت سلوكه ـ في مرحلته الأولى من حياته ـ كتاب [illegible] للإمام أبي حامد الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١٢م] فقد [illegible] وسلكه في سلك [illegible] فأصبح واحداً من «المريدين» في «طريقة النقشبندية» الصوفية الشهيرة.

* [illegible] الشيخ محمد عبده الإرشاد في قرية [illegible] حتى ما كتب يرد به على من يرجع بها عن بعض ما ذهب إليه في [illegible] فلا يعجب بعض من [illegible] بكتب [illegible] عن [illegible] [illegible] عن فلان كذا.]

* [illegible] في هذه الفترة، [illegible] على خصائص [illegible] كما [illegible] في كلمة، فألف كتاب [خلاصة شرحيه] وشرح في [illegible] مختصر [illegible] عن الأخلاق، وكتب [illegible] وأحد [illegible] أن [illegible] صاغ بعض أفكاره شعراً منظوماً.

* [illegible] ولكن [illegible] على طريق «المتصوف» كان من [illegible] هو الحسن [illegible] وفي أحد [illegible] في حضرة [illegible] الشيخ [illegible] تحدث [illegible] عن [illegible] أمه، [illegible] وتحكمه [illegible] وأنه [illegible] يكون [illegible] هو [illegible] المتصوف [illegible] وهو فكر [illegible] وحشي [illegible] ـ عفا الله عنه ـ [illegible] «المتصوف» [illegible] أعجب به، فعمل [illegible] ـ عفا الله عنه ـ عضواً في «شعبة المعارف» بطرابلس!

* وفي سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ ـ ٨٩٣ م) وكان الشيخ رشيد في الثامنة والعشرين من عمره ـ حدث أفكاره وسلوكه [illegible] هو [illegible] في مخطوط [illegible] عثر على بعض أعداد مجلة [المعرفة البيروتية] التي [illegible]

[illegible] الإسلام، وموقف الشيخ حسين الجسر الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ٩٠٥ م] من تدريس سنة ٨٨٤ م [illegible] [العروة الوثقى] ؛ التي توقفت بعد ثمانية عشر عددًا [illegible] الشيخ رشيد رضا لأعداد التي أحدثت مقالاتها في عقله ووجدانه انقلابًا شاملًا. فأخذ يبحث عن تلك الأعداد، فوجدها كاملة في مكتبة شيخه حسين الجسر، فاستعارها، وشرع في مطالعتها وتفهمها مرات ومرات، فتغيرت صورة الإسلام في فكره، ومن ثم تغيرت صورة المسلمين المعاصرين، وبرنامجه في الحياة. [illegible] [الإسلام هو الحل، ص ٤٠] وبهذا المنهج هو الذي تحكمت في إصلاح العقيدة وتحديد [illegible] الإسلام ـ مع ذلك [illegible] ـ وتجديده وتحضره وتشريعه [illegible] الإسلام بتحقيق سبيل إصلاح ذات البين، التي هي السبيل لإصلاح أحوالهم وسعادتهم فيها.

* ولقد تحدث الشيخ رشيد عن هذا الانقلاب الذي أحدثته هذه المقالات [العروة الوثقى] في حياته. وهو ما يزال طالبًا يتعلم في طرابلس ـ لبنان

«... ثم إني رأيت في محفوظاتي والدي بعض نسخ [العروة الوثقى] فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء، اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال، والحرارة والاشتعال؛ ما قذف بي من طور إلى طور، ومن حال إلى حال. كان لأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية، ويليه تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية والذي علمته من نفسي ومن غيري ومن التاريخ: أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر، ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والإقناع من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا..»!!..

لقد تعلم من [العروة الوثقى] أن الإسلام ليس روحانية أخروية فقط؛ بل هو دين روحي جسدي، دنيوي وأخروي، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل

وهو يمضي مصورًا معالم ذلك الانقلاب الذي حدث له، فيقول

«ولقد أحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين؛ فقد كان همى قبل ذلك محصوراً فى تصحيح عقائد المسلمين، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وترهيدهم فى الدنيا.. فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات، وجميع مقومات الحياة، فطفقت أستعد لذلك استعداداً..».

* ومنذ ذلك التاريخ، وهذه التحولات فى الفكر والتوجهات، تاقت نفسه لإقامة الصلة بينه وبين جمال الدين الأفغانى - الذى كان يعيش يومئذ بالآستانة - والإمام محمد عبده الذى كان قد عاد من منفاه إلى مصر. فكتب الشيخ رشيد إلى الأفغانى كتابا بليغا، امتلأت عباراته بشحنات الإكبار والإعجاب والتمجيد.

ثم سنحت له الفرصة، فلقى الشيخ محمد عبده مرتين، لقاء عابرا:

المرة الأولى: عندما ذهب الأستاذ الإمام لزيارة «المدرسة الخانونية» بطرابلس.

والمرة الثانية: عند زيارته لطرابلس، مصطافا، وبصحبته القانونى المصرى البارز أحمد فتحى باشا زغلول [١٢٨٠ - ١٣٣٢هـ ١٨٦٣ - ١٩١٤م].

وفى هذين اللقاءين عبّر الشيخ رشيد للأستاذ الإمام عن إعجابه به وبالأفغانى، وعن تأثير [العروة الوثقى] فى التحول الذى حدث له، وكيف انتقلت به من طور إلى طور، **فأخرجته من قوقعة «التنسك الصوفى» إلى رحاب «الإسلام المصلح»** - على نحو ما صنع الأفغانى بالشيخ محمد عبده عندما تقابلا - بمصر - فى مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر!..

* ولم يفكر الشيخ رشيد فى السفر إلى الآستانة ليتتلمذ على الأفغانى.. فلقد كان يعلم أن المناخ هناك - من الناحية الفكرية - قابل للإبداع والطموح.. وأن الأفغانى - فى الآستانة - يحيط به من جواسيس السلطان أكثر مما يحيط به من التلاميذ!

* فلما توفى الأفغانى سنة ١٣١٤هـ - سنة ١٨٩٧م، توجهت وجهة الشيخ رشيد، فنشأت لديه فكرة الهجرة إلى مصر، كى يتخذ من الشيخ محمد عبده أستاذاً، وليكون موقعه منه كموقع محمد عبده من جمال الدين!.. فأخذ يعد عدته للسفر،

فادخر من أجره عن تحرير «الحُجج» و«العقود» نفقات رحلته ـ كما يقول ـ ثم تسلل إلى إحدى السفن الذاهبة إلى الإسكندرية، فوصلها مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥هـ، أول ديسمبر سنة ١٨٩٧م. ومن الإسكندرية قام برحلة إلى «طنطا»، «فالمنصورة»، «فدمياط»، «فطنطا» ثانية. ثم وصل القاهرة يوم السبت ٢٣ رجب سنة ١٣١٥هـ/ ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٧م. وفي اليوم التالي ـ مباشرة ـ ذهب لزيارة الأستاذ الإمام..

* وفي القاهرة وضع الشيخ رشيد قدمه على طريق تحقيق ما بنفسه من طموحات وآمال.. ووفق عبارته:

«فلقد كنت أعتقد أن استعدادي كله يبقى ضائعًا إذا بقيت في سورية، وأنه لا يمكن أن يظهر هذا الاستعداد بالعمل إلا في مصر، لما فيها من الحرية المفقودة في البلاد العثمانية..»!

* ولقد كانت عينه ـ وهو يفكر في تحقيق طموحاته المستقبلية، والدور الذي تطلع إليه ـ على ذلك الحدث الذي هزّ كيانه، وحوّل اتجاهه، وهيأ له الاكتشاف الصادق لحقيقة الإسلام ـ حدث [العروة الوثقى]. فهو يريد إصدار مجلة تحل محل [العروة] وتواصل رسالتها. وتحمل هذا الإسلام الشامل ورسالته الإصلاحية إلى عالم الإسلام والمسلمين.

وإذا كانت [العروة الوثقى] قد جاءت ثمرة لصحبة محمد عبده للأفغاني، وتتلمذه عليه، ورمانته له.. فلتكن [المنار]. وهي المجلة التي تطمح في إصدارها. هي [العروة الوثقى] الجديدة، وليكن هو «ترجمان أفكار» الأستاذ الإمام. فلا بد للإصلاح من زعيم تثق به الأمة. وهو الآن محمد عبده، ولا بد لهذا الإصلاح من «ترجمان»، فليكن هو هذا الترجمان. ولتكن [المنار] هي الامتداد الجديد، والمتطور [للعروة الوثقى].

* وفي لقائه بالأستاذ الإمام في ٦ شعبان سنة ١٣١٥هـ/ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٧م ـ عرض عليه مشروعه ـ مشروع إصدار مجلة [المنار] ـ فباركه الأستاذ الإمام، بعد أن استوثق أن المجلة «ستبحث في موضوع مرض الأمة وضعفها، وفي معالجتها

بالتربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التي فشت، كالخبر والخرافات. » وأن لدى صاحب المشروع ـ الشيخ رشيد ـ [illegible] على الإنفاق عليه عاماً أو عامين، حتى يستقر ويجلب الأرباح التي تضمن له الاستمرار. وفي هذا اللقاء قال الأستاذ الإمام للشيخ رشيد:

إن كان هذا، فهو حسن، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها. وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة؛ فإني أساعدها بكل جهدي.

فأجابه الشيخ رشيد:

ـ إني أعاهدكم على أن أكون معكم: كالمريد مع أستاذه ـ على نحو مما يقول الصوفية ـ ولكني أحفظ لنفسي شيئاً واحداً أخالفهم فيه، وهو: أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله، ولا أقبل إلا ما أفهمه، ولا أفعل إلا ما أعتقد فائدته.

فقال له الإمام:

ـ هذا ضروري لا بد منه!

* وفي لقاء تال ـ في ٦ شعبان سنة ١٣١٥هـ ـ ٦ يناير سنة ١٨٩٨م ـ طلب الأستاذ الإمام من الشيخ رشيد:

١ ـ أن لا تتحيز الجريدة لحزب من الأحزاب.

٢ ـ ولا تهتم بالرد على ذامٍّ أو منتقد.

٣ ـ ولا تخدم أحداً ممن يسميهم الناس «كبراء» ـ تستخدمهم نعم.. لكنها لا تكون في خدمتهم!

فوافق الشيخ رشيد على ما طلب الأستاذ الإمام..

* وفي ٢٢ شوال سنة ١٣١٥هـ ـ ١٧ مارس سنة ١٨٩٨م صدر العدد الأول من جريدة [المنار] لتواصل رسالة [العروة الوثقى] مع مراعاة الزمان والمكان والظروف والملابسات. ومع مراعاة تميز منهاج الأستاذ الإمام في أولويات الإصلاح عن منهاج أستاذه الأفغاني في هذه الأولويات. صدرت [المنار] لتركز على الإصلاح الديني وربط الشريعة بالواقع المتطور، وتطهير العقيدة من الخرافات، وتحرير العقل من

حمود و نشيه ... وعقد مقارنة بين الإسلام والنصرانية في التسامح والتعصب والعلم والعقل والحرية والإسلام والتمدن .. إلخ .. إلخ

وقد تبعت في ذلك ـ على امتداد عمرها ـ المنار التي ظلت حتى وفاة الشيخ رشيد سنة ١٣٥٤ هـ/سنة ١٩٣٥م، هي المجلة الإسلامية الأولى في ذلك العصر بلا منازع، بحق، لترجمان "فكر" الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في سائر أبعاد التجديد الإسلامي في العصر الحديث. وكانت "المنار" التي صاحب فكرة خلالها أنوار عبقرية التجديد الشيخ محمد عبده ـ ولا تزال حتى في عقر دارها ـ ترحل نيرانه وأنواره على حد سواء!

فمضى الشيخ رشيد يتعدى حدود التعبير عن حركة التجديد التي مثلها الإمام محمد عبده، إلى الإسهام في فتح آفاق جديدة للفكر المجدد للإمام، وتطوير مذاهبه، وبيئة تلك المذاهب وحمل لواء الدعوة إليها. وتلك هي الإسهامات الجادة والخلاقة في هذا التجديد.. ثم ـ وهذا هام جداً ـ حمل هذا الفكر التجديدي والإصلاحي إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي على امتداد ما يقرب من أربعين عاماً!

وعن مكانة الشيخ رشيد من فكر الأستاذ الإمام ـ يقول الأستاذ

"إن الله بعث إليَّ بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي، ومزيداً في عمري. إن في نفسي أموراً كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة، وقد ابتليت بما يشغلني عنها، وهو [رشيد رضا] يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد، وإذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه؛ فإنه يكتبه كما أحب، ويقول ما كنت أريد أن أقول، وإذا قلت له شيئاً مجملاً، بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل، فهو يتم ما بدأت، ويفصِّل ما أجملت"!

* وقد كان طبيعياً أن يحرص [سر] معارف الأستاذ الإمام محمد عبده وأن تصبح صحبته بسهم مقصوداً في الأستاذ الإمام. حتى لقد كان هؤلاء حضوره يتسابقون إلى الرحيل، فيما يشبه الهجوم، لخروج الشيخ رشيد من مصر، وإيداعه في الدولة العثمانية، تستدعيه بحجة أنه منحرف عن تأدية خدمة عسكرية! وكان يحجبون لولا أن أنت ترحل بالوثائق التي قد تنفع بالاعتذار عن خدمة عسكرية عليهم، ولا، ثم يسوقونه مرة أخرى مشتعلين بتدريس العلم من جديد!

* وعندما حانت منة الأستاذ الإمام سنة ١٣٢٣هـ/سنة ١٩٠٥م، كانت قد رسخت في الأذهان حقيقة سلم بها الجميع، وهي أن مكانة الشيخ رشيد من الأستاذ الإمام هي مكانة الإمام من أستاذه الأفغاني. وأنه هو رأس حربة لإصلاح الإسلامي بعده، وأبرز تلاميذه العاملين في هذا الميدان. بل لقد عبَّر الأستاذ الإمام تلميحا عن هذه الحقيقة في الأبيات التي نظمها وهو على فراش الموت، عندما صوَّر رسالته الإصلاحية ومكان الشيخ رشيد، باعتباره «مرشد رشيد»، يأمل الأستاذ الإمام أن يواصل السير بعده على طريق الإصلاح الديني والإحياء الإسلامي، الذي مثَّله هذه المدرسة الإحيائية في عصرنا الحديث.. عبر الأستاذ الإمام عن ذلك، فقال:

«ولستُ أبالي أن يقال محمدٌ ... أبَرَّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه ... أحاذر أن يقضى عليه المحارم
ولي نفس أمَّال يُرَجِّون بقاءها ... إذا متُّ ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رُجعى فربه ... إلى عالم الأرواح والقبض حاسم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا ... رشيدا يضيء النهج والليل قاتم
يعاشي بطفا وعلما وحكمة ... ويُنشبه مني السنف، والسنف صارم»[1]

* وبعد وفاة الأستاذ الإمام، تصدى الشيخ رشيد ليقوم بالريادة في ميدان الإصلاح الديني. وكانت علاقاته قد توطدت وتوثقت بتلاميذ الإمام محمد عبده من أقطاب الفكر والصحافة والسياسة بمصر. وأيضا بكوكبة من أبرز العلماء والمفكرين والمصلحين العرب والمسلمين، الذين اتخذوا من مصر موطنا لمنفاهم، بعد أن اضطروا إلى الهجرة فرارا من اضطهاد آل عثمان - بالمشرق - أو الاستعمار الفرنسي - بالمغرب.

* ولكن انفراد الشيخ رشيد بالعمل في الحقل الإسلامي - بعد وفاة الأستاذ الإمام - قد طبع فكره ومدرسته بخصائص لم تكن ملحوظة حينما كان يعمل في ظل شخصية الشيخ محمد عبده وفكره:

١ - فالتكوين السلفي الصوفي المبكر للشيخ رشيد، والذي يهتم «بالمنقول» أكثر من «المعقول»، والذي كان قد توارى فترة صحبته للأستاذ الإمام، قد عاد إلى الظهور مرة

أخرى[1]. ولقد ظهر ذلك في الأجزاء التي فسرها من القرآن الكريم، مواصلا تفسير أستاذه الإمام. لقد غلبت «الرواية» على «الدراية» وغلب «المنقول» على «المعقول»، في تفسير هذه الأجزاء. وإن ظل للعقل مكان ملحوظ في عطائه.

٢ ـ كذلك زاد انغماس الشيخ رشيد ـ بعد رحيل أستاذه ـ في السياسة والعمل السياسي. فأفاض في معالجة علاقات العرب والأتراك. والمسألة الشرقية والتدخل الاستعماري الغربي في الشرق العربي والإسلامي. كما كان في طليعة الذين أبصروا خطر المشروع الصهيوني على فلسطين والعرب والمسلمين.

وفي الممارسة السياسية، وجدناه قطبا من أقطاب [حزب اللامركزية] الذي تألَّف من مجاهدي المشرق العربي لإبراز الكيان العربي في الإطار العثماني، وهو الحزب الذي تألَّف بالقاهرة [سنة ١٣٣٠هـ سنة ١٩١٢م]. ووجدنا العلاقات الوثيقة بينه وبين حركة الشريف حسين بن علي [١٢٧٢ ـ ١٣٥٠هـ / ١٨٥٦ ـ ١٩٣١م] لتأسيس دولة عربية مستقلة عن العثمانيين. حتى لقد ذهب إلى سورية عندما أعلن أهلها استقلالها تحت حكم الملك فيصل بن الحسين [١٣٠٠ ـ ١٣٥٢هـ / ١٨٨٣ ـ ١٩٣٣م]..

وانتخب رئيسًا للمؤتمر السوري فيها، ولم يغادرها إلا عندما أجهض الاحتلال الفرنسي هذا الكيان العربي [١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م].

* كذلك وجدنا الشيخ رشيد، داعية من دعاة الإصلاح الدستوري للدولة العثمانية، يزور الشام، ويخطب للإصلاح من فوق منبر الجامع الأموي بدمشق، عقب إعلان الدستور العثماني [سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م]، حتى لقد فجرت خطبته «الصراع بين أعداء الإصلاح وأنصاره» الأمر الذي اضطره إلى العودة إلى مصر[1].

* كما رأينا رحلاته إلى الحجاز، والعراق، والهند، وثيقة الصلة بالإصلاح السياسي ممزوجا بالإصلاح الديني..

* وذلك غير رحلته إلى حج بيت الله الحرام سنة ١٤٣٤هـ سنة ١٩١٦م.

* ناهيك بعلاقاته الوثيقة بالحركة الوهابية، وزعيمها الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٧ ـ ١٣٧٢هـ / ١٨٨٠ ـ ١٩٥٣م]. وكتابه عن [الوهابيون والحجاز] شهير وشاهد على هذه العلاقات..

* [illegible] في دعوته لإصلاحه، وأخذت [illegible] سياسة [illegible]، [illegible] عليه وتوجيهاته، [illegible] فوقها، ثم [illegible] مكتوبًا على صفحات [المنار] من ثورة [illegible] بشقيه إلى المسألة الليبية [illegible]، مرورًا بالهند ومراكش والحجاز، [illegible] وهو [illegible] يكن [illegible] يوضح على عهد صحبته للأستاذ الإمام [illegible] الشيخ رشيد يكتب عن هذا التحول في افتتاحية محمد ثاني عشر من [المنار] سنة ١٣٢٧هـ = سنة ١٩٠٩م، أي بعد أربع سنوات من وفاة الأستاذ الإمام، فيقول:

«سألها السياسة، فساورت ووثبت! وأسلس لها: فجمحت وتقحمت! وكانهم بها في بعض الأحيان، فيصدف بها عن الأستاذ الإمام! ولم تبل منها ما بهواه، إلا بعد أن اصطفاه الله»!!.

* [illegible] يسترجع خبرني من الشيخ رشيد عن «معتوق» إلى «مسعود» و«من [illegible]» إلى «الرواية» - بعد وفاة الأستاذ الإمام - مما نحسب عليه. فإن توجيه الأستاذ الإمام عبده بالسياسة هو مما نحسب له [illegible] لأنه [illegible] في ذلك مستجيبًا لتوجيه [illegible] سياسة التي [illegible] وتعلمين بعد وفاة الأستاذ الإمام [illegible] توجيه محافظ العاصمة و[illegible] والإجهاز على حركة الإصلاح الإسلامي، بعد توجيه التغريب والغزو الفكري مصاحب لعموم سنوي الاستعمار لعالم الإسلام.

* وذاكرة [illegible] قد صح لها أن تؤدي لمؤسسة رشيد رضا فكرته [illegible] في مؤلفاته وتحقيقاته قد كانت مدينة أخرى، هدمه ودفعه لهذه المؤسسة الفكرية. ومن هذه الآثار الفكرية النفيسة لهذا الإمام الجليل:

[تفسير المنار] - في اثني عشر مجلدًا، فسّر فيها اثني عشر جزءًا من القرآن الكريم وصمّمه تفسير الإمام محمد عبده لما فسر من القرآن.

و[تاريخ الأستاذ الإمام] - في ثلاث مجلدات. و[الوحي المحمدي]. و[شبهات النصارى وحجج الإسلام]. و[عقيدة الصلب والفداء]. و[المسلمون والنقط والمؤتمر المصري]. و[محاورات المصلح والمقلد]. و[الوهابيون والحجاز]. و[ذكرى المولد النبوي]. و[الخلافة - أو الإمامة العظمى]. و[نداء الجنس اللطيف] و[يسر الإسلام وأصول التشريع].

* كما أشرف على طبع آثار الفكرية للأستاذ الإمام وأعده في [مصر] نشر أعلى مقالات [العروة الوثقى]

* وكذلك أشرف على تحقيق العديد من كتب التراثية المتميزة، مع صلاته بتلك الجهود الجادة حيال الكتب العربية التي كونها امتداده لإمام محمد عبده من مثل كتب [تفسير ابن كثير] و[تفسير المنار] و[تعليم الشيخ في بشر الخير على الأداء والتجويد] لمتقني، و[شرح عقيدة السفاريني] لابن قدامة، و[المعنى في شرح مختصر الخرقي] و[دلائل الإعجاز] للجرجاني، [وإخبار النحاة] للقفطي الخ

* لقد امتدت حياة هذا الإمام الكبير ثلاثة وثمانين عاما قضاها مجاهدا في الإصلاح بالفكر والممارسة على طريق الإصلاح، وخاصة منذ أن جاء إلى مصر، وصحب أستاذه الإمام محمد عبده.

* حين يدرك الأحرار، لأن نفسه الزكية نداء ربها، في حادث مفجع، كانت عائدة به من مدينة السويس إلى القاهرة، فقاضت روحه في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥هـ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٩٣٥م وذلك بعد أن دب حب الله ورسوله ﷺ في تجديد الدين، وصحب ذلك قوة وسعة واستعداد للإسلام والمسلمين، **وذلك حتى تتحقق للإنسان السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل.. وليتفهم المسلمون ليحافظوا على ملكهم، متسلحين بالمدنية، سابقين الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة»**

فعاش هو للإسلام كما كشفت [العروة الوثقى] عن وجهه المشرق المشع رشيد.. فوهب له حياته، ومات في سبيله.. عليه رحمة الله[1]

* * *

(١) انظر في ذلك

رشيد رضا [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ١ ص ٨٤، ٨٥، ١٠٠١، ٩٩٦، ٣٠٣، ٨٤، ٨٥ـ٨٧، ٣٩٠، ٩٩٨، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٣١م

و الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ١٣٥ قدم له، وحققه محمد عمارة، طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٣م

ـ ٢ ـ

منار الإحياء والتجديد

لا مبالغ إذا قلنا إن [المنار] كانت المنار الأعظم للإحياء الإسلامي على امتداد العصر الفكري للشيخ رشيد رضا . والمنار الأعظم لفكر هذا المصلح الإسلامي الكبير . فحتى كتبه ورسائله ومعاركه الفكرية، بل ومشروعاته العملية قد بدأت وظهرت أولا على صفحات [المنار] . .

بعد مئات مجلداتها ـ الخمسة والثلاثون ـ ديوان كبير للفكر الإحيائي . ذلك أنها قد صدرت :

* لتحمل رسالة مدرسة الإحياء الديني والتجديد الإسلامي إلى كل أقطار عالم الإسلام

* وتركة الخيار الإسلامي الوسطي سبيلا للنهضة الإسلامية والشرقية رافضة الجمود الذي يقيد السلف، والتبعية التي تقلد النموذج الحضاري الغربي

* وإعادة نشر مقالات [العروة الوثقى] ومقالات الإمام محمد عبده التي سبق نشرها في [الوقائع المصرية] ـ باعتبار [المنار] الامتداد لهذا الاتجاه

* وديوان تجديد وإبداع الإمام محمد عبده في تحرير العقل الإسلامي من أغلال الجمود والتقليد . .

* وتنقية العقيدة من شبهات الشرك الجلي والخفي ومن البدع والخرافات

* والدفاع عن الشريعة الإسلامية وعلومها وعن اللغة العربية وعلومها وآدابها وفنونها .

* ونشر الفتاوى المعاصرة، التي تفقه الأحكام وتفقه الواقع الجديد، لتعقد القران بين فقه الواقع وفقه الأحكام..

* وتبصير الأمة بالفروق بين الدين الإلهي المقدس والمعصوم والملزم، وبين العادات والتقاليد والأعراف..

* والدفاع الواعي عن وحدة الأمة والجامعة الإسلامية، التي هي جنسية الشرقيين على اختلاف قومياتهم ومللهم وأوطانهم

* والتأييد المتبصر والرفاقة للدولة الإسلامية الجامعة اليومية وهي الدولة العثمانية مع الدعوة إلى إصلاح مفاسدها، وتلافي عيوب إدارتها، وشد أزرها في مواجهة غوائلها من الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية ومن النزعات الانفصالية.

* والتحذير من تقليد الحضارة الغربية الغازية مع الدعوة إلى تعلم علوم الغرب، وخبراته في التقدم التي هي مشترك إنساني عام.

* والدعوة إلى الإصلاح الاقتصادي، الذي يحرر اقتصاديات العالم الإسلامي من النهب الاستعماري الغربي؛ وذلك ليكون الاقتصاد المتحرر دعامة للاستقلال الحضاري والسياسي..

* ومحاربة التبصير، ومطاردة دعاته، ودحض ادعاءاته عبر عالم الإسلام وتسليح المسلمين بأدوات مقاومة شبهاته ومفترياته وتأليف الكتب والجمعيات والمؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتكون جهود الأمة في الإصلاح أفعل وأجدى وأدوم.

* والتأكيد على منهج التدرج في الإصلاح؛ لأن صياغة الإنسان صياغة إسلامية، وتكوين الصفوة من العلماء والمفكرين، وتهيئة الواقع لتقبل المنهج الإسلامي، لا بد فيها من التدرج

* والإلحاح على ضرورة ترتيب الأولويات في الإصلاح فإصلاح مناهج الفكر، والمؤسسات التي تصنع العقل المسلم، وتصوغ الوجدان الإسلامي، هي أولى الواجبات

سنة لإصلاح تربية الأمة، مستمدة على أساليب على تدوينه" دراسة تربوية مستقة على تربية السياسة..

* و سنة سياسة عند الإسلام، وعند الأمة الإسلامية

* ... حسب [نشر] في العالم الإسلامي منهاج جديد وفريد في تفسير القرآن الكريم نشر فضيلة الشيخ ... صاحب دروس الشيخ محمد عبده في تفسير المنار، على مدى ست سنوات - من شهر المحرم سنة ٣١٧ هـ (مايو سنة ٨٩٩ م) وحتى وفاته سنة ٩٠٥ هـ - حيث عكف على تفسير ... على مدى ثنتي عشرة سنة من شهر محرم سنة ١٣١٨هـ (مايو سنة ٩٠٠ م) وحتى جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ (مايو سنة ١٩١٢م).. ثم أخذ الشيخ رشيد في مواصلة هذا التفسير

... هذا التفسير ... في شهر [تفسير المنار] فتح جديداً في علم التفسير للقرآن الكريم.. وفي تاريخ هذا التفسير ... وعبارة الإمام محمد بشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م]..

فلقد كان تفسير الأستاذ الإمام لقرآن "منهاج المعجزة في التفسير"، المبرز بجهور إمام المفسرين بلا منازع. أبلغ من تكلم في التفسير بيانا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله في القرآن، وبين آياته في الأكوان، فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم فهو آية على أن القرآن لا يفسَّر إلا بلسانين. لسان العرب، ولسان الزمان. ولقد جاء تفسيرا، لا للقرآن؛ بل معجزات القرآن» [1]

... [نشر] بحض هذه الرسالة لإصلاحه لإحداثه بتجديده في ... فروع علوم الإسلام ... حتى عد فضيلته من قد فكر وتعلم وتعلم وأسس ... بمنهج إسلامي ... يعين في ... وحضاريه، بعيدة عن حدود ... من تعليم ... وتعليم ... [نشر] في حياته ... وفي ... في حياته المركبة في الإسلامي على مدى ... يقرب من أربعين عاما (من ١٣٥٤هـ/ ١٨٩٨ - ١٩٣٥ م) فكانت دروسه التفسيرية ... ذلك المنهج

(١) انظر الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج ٣ ص ٢٥٢ جمع وتقديم د. أحمد طالب الإبراهيمي طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م

* [illegible] "إن الحق يظهر في [المنار] عريانًا في الغالب، ليس عليه شيء من الحلي والحلل التي تجذب إليه أنظار من لم يألفوا الحق لذاته".

[illegible] العرابية [سنة ١٢٩٩ هـ/ سنة ١٨٨٢م].

[illegible] إلى أداء الفريضة الإلهية الاجتماعية - فريضة الكفاية - التي يقع الإثم بتحللها على الأمة جمعاء. وعن هذه الحقيقة كتب يقول:

"إنني لم أنشئ [المنار] ابتغاء ثروة أتأثلها، ولا رتبة أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاهًا عند العامة أو الخاصة أباهي به الأقران، وأنارى به أعلياء الشأن؛ بل لأنه فرض من الفروض يُرجى النفع من إقامته، وتأثم الأمة كلها بتركه، فلم أكن أبالي بشيء إلا قول الحق، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكنت إن أصبت بحسب علمي فنسيان رضى الناس أم سخطوا، مدحوا أم ذموا، قبلوا المنار أم رفضوا".

[illegible] الكتب والدراسات، والتي وضعت فيها [illegible]

لقد صارت ديوان المدرسة الإحيائية [illegible]

[illegible]

ـ [١٣٢٤ ١٣٦٨ هـ/ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] ـ الذي حضر بعض دروس شيخ محمد
رضا ... [illegible] بعد عودته من هذه البعثة ـ بتحمس وشكيمة وتوثب
في ... [illegible] عدد من أعوانه وأحبائه شيخ رشيد ... [illegible] من عام
ثماني سنة ١٣٥٨ هـ ٨ يونيو سنة ١٩٣٩م ـ وهي مدة تبلغ عشر شهور ...
شيخ ... [illegible] عندما شرع في تفسير القرآن الكريم ... من حيث انتهى شيخ رشيد،
الذي سبق وأن هو يقصد من حيث انتهى أستاذ الإمام شيخ محمد عبده.

* * *

... [illegible] [ا...] الدين الإحياء الإسلامي، وهذه التجديد الذي يتميز بالعقم
الإسلامي المتجدد... أي أنها لم تقف عند «تجديد الفكر»، بل عملت على «تجديد
الواقع» أيضاً..

* لقد دعت إلى نهضة حضارية إسلامية ... وذلك في مواجهة الخطر الغربي
ـ الوضعي العلماني ـ في تقدمه ... مع رفض الجمود والتقيد بالسلف والتراث، ذلك
الذي فتح وتمنح، وانتهجه المتصوفة ... الواقع الإسلامي خطر الغرب

فالأفغاني قد دعا إلى هذا الخطر الحضاري الإسلامي، عندما قال

«إنه، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد دينية وقرآنية؛ فلا
خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة الانحطاط وتأخرنا إلا عن هذا الطريق

وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا ـ من حيث الرقي والأخذ بأسباب
التمدن ـ هو عين التقهقر و الانحطاط؛ لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية،
وهو تقليد يجرنا بضرورته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا
بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صنعة الإسلام ـ التي من شأنها رفع رتبة نسبة
والعلم ـ إلى صنعة حمقى وصَنَعَة واستئناس لحكم الأجنبي ... الذي هو قوام
الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعنه مدرها ... وهو لسبب المفرد لسعادة
الإنسان...»[1]

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣٢٧، ٣٢٨، ١٣١، ١٧٣ ... دراسة وتحقيق د. محمد
...

* رأي تلميذه ومرجعه الإسلامية في سيطرة دعاة الإصلاح محمد عبده، فقال:

«إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العربية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من موادّه شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا. وإذ كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره؛ وهو حاصر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره»[1].

* يقدم حسن [البنا] رشيد رضا بصورة معلم هذا المشروع الحضاري الإسلامي في كل عصر، ويعد رشيد رضا في أسس منهجه ومقدمه على حسن

«لأن التاريخ قد علمنا: أنه لم تقم مدنية في الأرض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين، حتى مدنيات الأمم الوثنية، كمدنيات المصريين، والكلدانيين واليونانيين.

لقد علمنا القرآن: أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير من الله ـ عز وجل ـ لهدايتها، فنحن بهذا نرى: أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها. وليس للبشر ديانة ـ يحفظ التاريخ أصلها محفوظا تاما ـ إلا الديانة الإسلامية.. فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية؛ لأن الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المدني..»[2].

* ويذكر أن شريعة الإسلامية جمعت الإصلاح الديني والسياسي فيها

«فمن مقومات الإصلاح الديني: الإصلاح السياسي المدني، على أن الإصلاحَيْن متلازمان في الأمة الإسلامية، لا يقوم أحدهما حق القيام إلا بالآخر، والشريعة الإسلامية هادية للإصلاحَيْن؛ إذ كل خير وصلاح للعبد يتعلق بالمعاش والمعاد قد قرره الإسلام..»[3].

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٤٨

(٢) رشيد رضا [تفسير المنار] جـ٤ ص ٤٢٩ [مقدمة ...]

(٣) رشيد رضا [المنار] مجلد ١ جـ ٣٩ ص ٧٩٥

＊ [illegible] الإصلاح

«لأن هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع الإلهية، وحكمة ذلك: أن الله تعالى قد أكمل بها الدين الحق، فجعلها جامعة بين مصالح الروح والجسد، ومنح الأمة حق الاجتهاد والاستنباط، وبهذين كانت موافقة لمصالح البشر في كل زمان ومكان.»

＊ [illegible]

أ- جهة الجمود الديني عند أفكار السلف، كما هو الحال عند:

«حماة تقليد الكتب المدونة في المذاهب المتبعة، من سنية، وشيعة إمامية، وإباضية، وحجتهم: أن علوم الشريعة المودعة في الكتب واسعة- إجمالا وتفصيلا- فقد انحصرت فيها، فمن لم يأخذ بمذهب منها فليس على ملة الإسلام»

ب- جهة الداعين للحضارة الغربية، المدعين للإصلاح عن موروثها

«دعاة الحضارة العصرية، والنظم المدنية، والقوانين الوضعية، الذين يقولون: إن هذه الشريعة المدونة لا تصلح لهذا الزمان، ولا يمكن أن تصلح بها حكومة، ولا تستقيم بها مصالح أمة، فيجب تركها واستبدال قوانين الإفرنج بها، أو استقلال كل قوم وشعب من المسلمين كغيرهم بتشريع جديد يوافق مصالحهم، وإلا كانوا من الهالكين»(٢).

＊ [illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) مصدر السابق، مجلد ٢٩ ج ١ ص ٦٦

«ولو كان للإسلام شرع هذه السطة المعروفة في المدن السابقة عليه، من السوديين والبراهمة والإسرائيليين والنصارى، أو أجازها، لوُجد لها في المسلمين نظام ورؤساء؛ ولكن شيئ من ذلك لم يوجد، وإنما وجدت طائفة منهم تصدت للتربية والإرشاد، ثم انقسمت إلى طوائف وجماعات، ولم تكن لهم سلطة على أحد، وإنما يتبعهم من شاء باختياره، ولم يسلموا مع ذلك من رَمْي الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين، ومن تفريق الحكام شملهم؛ ولذلك لم يكن لهم ظهور إلا حيث يضعف علم الدين وحكمته..»[1].

* و[illegible] الإسلامي في مشروع الحضاري، لا يعني القطيعة مع الحضارات الأخرى، وفي مقدمتها الحضارة الغربية المعاصرة، وإنما يعني هذا الأمر

أ- الانفتاح الحضاري، والدفاع الفكري، وتسهم مشروعية الإسلامي بالعلم في المعارف والعلوم

ب- مع الاحتفاظ بخصوصية الحضارية الإسلامية وقسماتها [illegible] في حاجة إلى التعلم من الغرب علوم [illegible] مع الاحتفاظ بالتميز في العقيدة والفلسفة، والشريعة والأخلاق والتصور [illegible] في مقابل خصوصية الحضارة الغربية، نحن مدعوون إلى التعلم من الغرب خبرات أمته وشعوبه وتجاربه في تقدمه وبرغم خصوصياته الثقافية والحضارية.. وكما يقول الشيخ رشيد

«إنا في أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية، وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن يقوم بالقسط ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا، وأركانها: اللغة، والدين، والشريعة، والآداب. فمن فقد شيئا من هذه الأشياء؛ فقد فقد جزءاً من نفسه، لا يمكن أن يستغني عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغني بعقل غيره عن عقله، ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقي لغاتنا كما رقوا لغاتهم، وكيف نشرد بنا كما يشردون بهم، وكيف نسهل طرق العلم بشريعتنا وآدابنا، كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم.

(١) المصدر السابق، المجلد ٥ ج ٢٢ ص ٧٤٨

(٢) المصدر السابق، المجلد ٧ ج ١ ص ١٠

* و ذلك بتعريف قيم جديدة تصلح لحياة البشرية المعاصرة، تتمثل في تحرير وحدة الأمة التي هي فريضة إسلامية، وضرورة حياتية - فإن جماعة الإسلامية هي صمام الوحدة والانتماء لشعوب الأمة الإسلامية.

«ذلك أن أكمل الجنسيات وأنفعها للبشر، ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة والدين والحكومة، بأن يُقصد بها الخير للجميع، للمساواة في الحقوق، وتمكينهم من الرقي إلى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي. وإنه جنسية لا يتحسر عليها نوابغ الحكماء، وهي موجودة في الملة الإسلامية - وإن كان المسلمون من أبعد الناس عنها! - فالملة الإسلامية تساوي بين المختلفين في الأنساب والأوطان والألوان، وتسمح لمن يحل في حكمها - وهو على دينه - أن يشيع في بلادها محاكم لأهل ملته وأبناء جنسه، فلا تلزمه بأحكامها إلزامًا، فإن هو اختار حكمها بنفسه، ساوت بينه وبين أقرب الناس من بنيها، أو أعلى أفرادها مكانة فيها. فهي تدعو جميع البشر إلى التعارف والتآلف في ظل حمايتها، وإنه لظل ظليل يباح للمستظل به كل شيء إلا محاولة إزالته أو إزالة فائدته للناس، وهي دفع الشر والأذى عنهم، وتقريب الخير منهم، مع حفظ حريتهم في أديانهم وأعمالهم..»[1].

* * *

على صفحات [المنار] تم بسط الحديث عن معالم المشروع الحضاري المنهجي، الذي صاغت معالمه المدرسة الإحيائية:

* المرجعية الإسلامية للنهضة.

* وشمولية الشريعة الإسلامية للإصلاح الديني والإصلاح السياسي كليهما.

* وضرورة الاجتهاد لتحديد سلوك الشريعة لجميع المستجدات، عبر الزمان والمكان.

* والوسطية الجامعة بين منهج المرجعية الإسلامية وبين الواقع المتحرك دون انغلاق على تجارب الماضي، أو قطيعة مع التراث، توقع أصحابها في نقيض الحضارة أو قعوده أو تغريبه.

* والاعتصام بالمشروع الإسلامي، دون الوقوع في شرك تكفيره أو تسليطه الديني

(١) المصدر السابق، المجلد ٨ جـ ١٩ ص ٧٨٦، ٧٨٧.

- بمعنى الكسى العربى تلك التى يرفضها الإسلام، والتى يرى منها الرجل الحضارى..

* والانفتاح على الحضارات المختلفة، والتفاعل مع كل المعارف والعلوم التى تمدن الواقع، مع الاحتفاظ بخصوصيات حضارية، وهويات ثقافية، وشخصيات التى تتميز: باللغة.. والدين.. والشريعة.. والآداب..

* والتعلق برابطة الجامعة الإسلامية، التى تستوعب شعوب الأمة وأجناسها وتعاليمها وأوطانها ومللها، حذرا من ضيق التعصب القومى، والعصبية الإقليمية

وغير ذلك من أقسام هذا المشروع النهضوى الإحيائى الذى حمل [المنار] رسالته إلى العالم الإسلامى على امتداد نحو أربعين عاما.. حتى أصبح "مدرسة" و"مدينة" لتيار البعث الإسلامى، واليقظة الإسلامية فى عصرنا الحديث

***

لقد عرف العالم الإسلامى، فى عصره الحديث، عشرات المجلات الكبرى.. لكن [المنار] تفردت من بين كل تلك المجلات، عندما أصبحت مدرسة جامعة لتيار الإحياء والتجديد الذى هو أعظم تيارات العصر فى عالم الإسلام..

وقيادة لإقامة مؤسسات الإصلاح والمقاومة والنهوض..

بل وكانت المنطلق للحركات الإسلامية الجماهيرية، التى رفعت شعارات شمولية المنهج الإسلامى للدين والدولة.. للعقيدة والشريعة.. للفرد والأمة.. للدنيا والآخرة.. فى مواجهة العلمانية الغربية التى أرادت اختزال الإسلام، واستبعاد حاكميته فى ميادين الاجتماع والحياة

هكذا كانت [المنار].. ولا تزال ثمراتها تسرى صحوة إسلامية معاصرة على امتداد عالم الإسلام حتى هذه اللحظات

وصدق الله العظيم: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ [الرعد: ١٧]

***

- ٣ -

أولى المعارك ضد العلمانية

قبل صدور [ ] - أواخر القرن الثامن عشر الميلادي [سنة ١٨٩٨م] كانت أوروبا الاستعمارية ممثلة في فرنسا - صاحبة العلمانية المتوحشة في بلادها - وبراعة الصليبية ضد الإسلام في مستعمراتها المسلمة!! كانت قد نجحت في جعل لبنان - بواسطة مدارس الإرساليات النصرانية الفرنسية - معمل تفريخ لكتلة من المثقفين الموارنة الذين ضربت عقولهم وصبغت وجدانهم وفق المناهج التعريبية، المعادية للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي.

فلقد كانت رسالة هذه المدارس الفرنسية [illegible] وفق عبارات القناصل الفرنسيين في بيروت هي: «تكوين جيش - [ثقافي] - متفان في خدمة فرنسا والحضارة الأوروبية المسيحية. وتأمين سيطرة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة - [المشرق العربي] -. وجعل البربرية العربية - [هكذا] - تنحني لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا!!

ولقد هاجر كثير من «جنرالات» هذا «الجيش الثقافي» إلى مصر، فأصدروا الصحف والمجلات، وأقاموا المؤسسات الصحفية والثقافية. «وأصبحوا - بعبارة عبد الله النديم - [١٢٦١ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ - ١٨٩٦م] «لا شرقيين ولا غربيين، اتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية....»[٢]

---

(١) [illegible] ١٨٩٨م.

(٢) مجلة [الأستاذ] العدد ٢٢ ص ٥١٠

وكانت مجلة [المقتطف] [١٢٩٣ ـ ١٣٧١هـ ، ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢م] الساحة التي نصبت فيها أعلام نظريات التغريب الأوروبية ... حتى ليقول «النديم» عن أصحابها: «إنهم أعداء الله وأنبيائه، والأجَرَاءُ الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها جرابة لترجمة كلام من لا يدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان».

* [illegible] ١٢٤٣ [illegible] ١٨٢٨ ـ ١٨٩٧م] [illegible] الأمة.. لغة القرآن الكريم!.

* [illegible] [٢٧٦ ـ ١٣٣٦هـ ، ١٨٦٠ ـ ١٩١٧م]

* [illegible] دعوات هذا التغريب [illegible] و[المنار] ـ شرف التصدي لها [illegible] من تصدى لدعاوى [illegible] العلمانيين في العالم الإسلامي على الإطلاق!.

* [illegible] [المقطم] [١٣٠٦ ـ ١٣٧١هـ ، ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢م] [illegible] «صحيفة إنجليزية ناطقة بالعربية» [illegible]!

[illegible] [المقطم] [illegible] الدين عن الدولة في الشرق الإسلامي..

دعا إلى ذلك [illegible] ـ في ١٢ و١٧ أغسطس سنة ١٨٩٨م ـ [illegible] ـ في ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٩م ... ثم جاء واحد منهم، مستتراً تحت [illegible] «[illegible] الأفكار» [illegible] في ٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م [illegible] الإسلام [illegible]

[illegible] العدد ٣٩ ص ٩٢٣، ٩٢٤

* وفي [illegible] حذر [illegible] الشيخ رشيد [illegible] ويس من يدعى به «المسلم حر لا فكر» كشف «رلات نعلم» عن [illegible] ما وقع عن قصص لدين عن الدولة من مسلما بأي حال من الأحوال» .

١ ـ فقد اعترف [illegible] بأنه منحرج من مدارس الإرساليات التنصيرية [illegible] وتعلم فيها .

٢ ـ [illegible] مصطلحات لا يستخدمها عادة الكتاب النصارى [illegible] من مثل «الدعوات الدينية المسكونية»! .

٣ ـ [illegible] لا يقول به مسلم، بل قول يقوله الإسلام وخصوم الإسلام [illegible] يقولون دوماً: «أن الخطر لا يزول عن الإسلام إلا بتمزيق شمل النصارى، وأن عز الإسلام لا يكون إلا بذل النصارى»!!

* وفي هذا الجزء وضع الشيخ رشيد [illegible] على الحروف، فبين تعلق هؤلاء الكتاب الإسلام من التنصيرية وفصل الدين عن الدولة [illegible] على النحو الذي يمكن تحديده في عدد من النقاط .. فهو :

أولاً: كشف عن أن هذه الدعوى لا يقول بها إلا غير المسلمين، الذين تفتح لهم سائر الصحف التنصيرية صفحاتها ليتقدموا بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية

«فـ[الأهرام] و[المقطم] متفقتان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مضرة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترقي الأمة الإسلامية إلا باتباع خطوات أوروبا ـ كما فعلت اليابان ـ و[المؤيد] ـ لصاحبه علي يوسف [١٢٧٩ ـ ١٣٣١هـ/ ١٨٦٣ ـ ١٩١٣م] ـ رد عليهما قولهما الأول، ولم يبد رأيا جديدا؛ إلا أنه وافق على أن مسلك الكتّاب المسلمين في الدعوة الدينية مفيد، كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوروبية مفيد مع ذلك» ..

وثانيًا: أن هذه الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، التي ظهرت في [المقطم] ٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م ـ لا يقول بها مسلم ..

«فهو قول لم يتبع به قائله مسلما، ولن يتابعه عليه مسلم؛ لأنه يناقض أساس الدين الإسلامي، ومقوض لعمود بنائه، وهو زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر

وقد وجد للإسلام أعداء جهلاء في كل عصر [illegible] ومنهم من [illegible] [illegible] ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من [illegible] [illegible] ومنهم ومنهم. ولكن مجموع مفاسدهم ومضارهم لن تبلغ بعض ما يرمي إليه هذا القول الخبيث الذي لم يخطر في بال إبليس، فهو أبلغ قول يشير إلى أحكم رأي لمحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود ـ قاتل الله قائله ـ ولا كثر فيمن يدَّعون الإسلام من أمثاله»!

هكذا [illegible] الشيخ رشيد [illegible] الدعوة إلى فصل الدين عن [illegible] قد تفوقت ـ في خطرها على الإسلام ـ على كل دعاوى المفسدين للإسلام [illegible] وتفوقت على أحلام إبليس!.

وثالثاً: مضى الشيخ رشيد يتوكد على رفض الإسلام ـ بحكم طبيعته الشاملة للعلمانية، فقال:

«لقد عرّف علماء المسلمين الدين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل، وإن شئت قلت: إلى سعادتهم [illegible] والأخروية. وقواعده عندهم ثلاث:

١ ـ تصحيح العقائد.

٢ ـ وتهذيب الأخلاق.

٣ ـ وإحسان الأعمال.

والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات. ومن الثاني: الأحكام بأنواعها ـ قضائية ومدنية وسياسية وحربية ـ...».

ورابعاً: أشار الشيخ رشيد إلى معاداة الإسلام في هذا الشمول [illegible] التي لا علاقة لها بالدولة والسياسة.. فقال:

«أما الدين عند النصارى، فهو ـ [كما في دائرة المعارف] ـ عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله، وليس صفات تلك النسبة»

[illegible]

أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية، وأن سلطة الدين على [illegible] فيجب على كل متبع لهذا الدين أن يدين لكل سلطة، [illegible] عن لكل شريعة حكمته، بخلاف الدين الإسلامي؛ فإنه مبني على السلطة والغَلَب [illegible]

وخامساً [illegible] النصرانية، فقال:

"إن الدين الإسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد، ومبني على أساس السلطتين الزمنية والروحية، وإن الديانة النصرانية على خلاف ذلك، وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والدنيوية، وإن كل حكومة تخرج عن طاعته الشرعية فهي منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين.. هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون، ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين؛ فإن القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يقرع دائماً آذانهم؛ بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلاً بلسان عربي مبين: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: ٤٧]

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطنة والخلافة؛ لأجل تأييد الجامعة الإسلامية:

إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين بمعنى هذه الألفاظ عندنا، فها نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق؛ فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية، وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود، وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين لصاحب الدين الذي:

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا ... فرس ولا شيء يباع بدرهم

يأوي المغارة مثل راعي الضأن ... راعي الممالك في السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه إلى خدمته وتركهم الاشتغال به ليس منه في شيء، ونحن والنصارى في هذا الأمر على طرفي نقيض، فربما إذا تنوبا تلوهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذي هو الميراث الحافظ للنصف الباقي

كلا، إن الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهدداً بالزوال. لا جرم أن ما تدعونك إليه هو أقرب طريق لإعدام (الجامعة الإسلامية)، فكيف جعلتموه طريق يجددها؟! وهو أقوى على شقتها، فأنّى تقنعوننا بأنه عدة إسعادها؟!.

وسادسًا [illegible] أن حسم الشيخ الرشيد الأمر على هذا النحو، الذي أكد فيه أن فصل الدين الإسلامي عن الدولة هو المعنى الحقيقي لفصل الإسلام، الذي هو سماح حقيقة أن في دين صحيح كدين الإسلام، ومجموعة من نصوص الشرع في شأن [illegible] لكثرتي التي تشير هذه المعضلة وفصل الدين عن الدولة وهي هذا الفصل هو الذي يحقق "توفيق يوفي" بين أمر الإسلام المختلفين في [illegible] واحدة.. فقال

«ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما ذكر ـ [فصل الدين عن الدولة] ـ هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذي يساوي بين طائفتهم وبين المسلمين، ويحمد تيران لعلو في التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويحدم كلّ دينه من الوجهة الروحية التي لا مشرفيه للتنافر والتناحر

[illegible] عرض "حجتهم" هذه التي هي عين ما ادعى المعترضون حتى تبدو [illegible] الشيخ رشيد يفند هذه «الحجة»»، فقال

«ويسهل عليه أن يبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا، فنقول:

إن بناء الشريعة الإسلامية قام على العدالة والمساواة بين المسلمين وغيرهم في الأحكام والحقوق لمعنى عليها بهذه الجملة التي يتناقلها الإسلام جميعا عن سلف، وهي «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وقد دلنا التاريخ على أن الحكومات الإسلامية كانت تراعي هذه القاعدة بحسب تمسكها بالدين قوة وضعفا

ومن قبل بين مساواة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأحد علمائنا ـ صهر النبي وربيبه ومن خيرة الرجال من [illegible] في محاكمته، واتفاقه على عينه بقوة [illegible]

خلس»، وعدّه «كتلة إحلالا مساوية لما فقد من التعصب، ونفس ما هو حاصل اليوم في فرنسا من التحامل على «دريفوس» [١٨٥٩ ـ ١٩٣٥م]، وهو من أكبر عظماء اليهود، حتى إنهم حاولوا فصل وكيله لدى المحامي عنه، وهم صاحب مقام لا يقوى خوفه وتعصبه على تقهقر الحرائق في بيوتهم، والأوروبيين في بيوتهم ومدينهم، «فالشريعة في نفسها عدلة، ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم.. وهم لا فرق عندهم بين الشرائع؛ إذ ديهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها»

٢ ـ إن الدين الإسلامي الذي تتضمنه من جملة «الجامعة الإسلامية» يوقف على تلك الحقوق وقيام الأفراد عليهم من حقوق وواجبات من بعضهم لبعض، وهذا مقول لا يخالف فيه أحد.

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب لا يدركه الشرع في شؤونهم وواجبات من أصول دينهم؛ فقد فصل بين الدين والدولة كان جميع ما يكلفهم به الدولة من حقوق وواجبات غير واجب لاتباع في عقائدهم؛ فقد جعلوه في علانية لا يأخذون به في سر، ولا تلتزم به لأنه مما لم يكن عليه شيء واحد من تلك حتى تحرك في نفسه معنى في عقائده. **فحيز للمسيحيين أن يُحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سراً وجهراً، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقي المسلمون؛ بل يتدنون ويهضمون**، كما علمه بالاختبار والمشاهدة.

فقد أثبت التاريخ أن منشأ ضعف وضعف الذي أتى على كيانهم وصائف خلافته، والخروج بها عن معناها الذي هو حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وأن العود بالإسلام إلى مجده؛ إلا بإرجاء منصب الخلافة وتفرق المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سراً وجهراً، ولا يقوم المسلمون بهذا المعنى إلا بتقرير فحص على من يهمه ترقية شؤونهم أن يدعوهم به إلى العلم، ونفض غبار الجهل والكسل، وإقامة مصالح معاشهم ومعادهم، على ما يقتضيه سعي الترقي والإسعاد فيهم كل يوم، وكما كان سعيه في ترقيهم كذلك يكون لهم»[1]

(١) [المنار] السنة الثانية عدد ٢٥ ص ٣٨٥ ـ ٣٩١ ـ ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣١٧هـ/ ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٩م

هكذا خلص الشيخ رشيد رضا على صفحات [المنار] في معارك الفكر الإسلامي ضد العلمانية وفصل الدين عن الدولة في العصر الحديث، أو:

* زيادة النصارى أموالهم وصحفهم ومجلاتهم في التبشير بالعلمانية..

* ورفض المنار الإسلامية لهذه الدعوى..

* ورفض الإسلام بصيغته السنية عن العصر الحديث وشموليته لجميع نواحي الحياة أية دعوة لفصل الدين عن الدولة

* وبسبب أن شمولية الإسلام هذه للدين والدولة والسياسة والقانون هي الضمان الأساسي للمسيحيين في حقوقهم الخاصة بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الإسلامية بمفهوم العكس - كما يدعي العلمانيون - فالشريعة الإسلامية هي المرجعية الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون على اختلاف مذاهبهم وملتهم. ولأن المسلمين لا يخضعون لحكم حقيقي إلا لشريعتهم؛ فإن الأحكام التي هي لصالح المسلمين، وعليهم تنفذ هذه الشريعة وحقوقها.

وإذا لم يكن في المرجعية الشريعة الإسلامية والاجتماع، المسلمين عندهم أن تكون الشريعة التي تُطبق لها قداسة دينية عندهم، فهي المرجعية لهم في وضعية في كل الحالات. وإذا كانت هذه الشريعة المرجعية الإسلامية المقدسة عند المسلمين، كما كانت أدنى لاحترام قوانين الوضعية التي لا يكن بها المسلمون الاحترام!

وعبارة الشيخ رشيد رضا

«... فالشريعة في نفسها عادلة. ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم. وهم لا فرق عندهم بين الشرائع؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها.. فحيث للمسيحيين أن يُحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سراً وجهراً، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقي المسلمون»!..

هذا كان موقف رشيد رضا في معارك الفكر الإسلامي مع العلمانية، ودعوى فصل الدين عن الدولة. وكان هذا هو قدر [المنار] وصاحبه في الرد على العلمانيين بمنطق «الشرعي» والبرهان «العقلي» على حدٍّ سواء!.

ـ ٤ ـ

وأولى المعارك ضد الصهيونية

[illegible] ١٨٩٩م.

كما كانت [illegible] المشروع الصهيوني على فلسطين والعرب وعموم المسلمين.

* [illegible] "[illegible]" [١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م] سنة ١٨٩٧م [illegible] والتطبيق

* [illegible] (١٢٥٨ ـ ١٣٣٦هـ / ١٨٤٢ ـ ١٩١٨م) [illegible]

* [illegible]

* [illegible] المشروع، وفي السعي لشراء الأرض في فلسطين!

[illegible] «إن معظم اليهود الذين وجدوا في مصر كل رعاية، قد أيدوا الصهيونية، وقاموا بدعمها بشتى الوسائل [illegible] وذهبوا إلى حد إنشاء الجمعيات الصهيونية التي كانت تتولى جمع التبرعات وإعداد الشبان اليهود تمهيداً لتهجيرهم إلى فلسطين، وإصدار الصحف الصهيونية بلغات متعددة، بما فيها اللغة العربية - لحشد يهود مصر وراء الهدف الصهيوني الأسمى؛ الذي يتمثل في إقامة دولة عبرية على أرض فلسطين»[1]!

وكذلك كان يصنع اليهود في الجزائر الذين اشتركوا بوفد يمثلهم في مؤتمر «بال» - سويسرا - سنة ١٨٩٧م[2]!.

وكذلك يهود المغرب، الذين أسسوا لهم جمعية [illegible] المؤتمر الصهيوني الخامس - في بال - سنة ١٩٠١م..

وكذلك كان الحال مع اليهود في العديد من البلاد العربية، ففي ليبيا أنشأ اليهود [illegible] الحرب العالمية لإقامة الدولة الصهيونية[3]!

[illegible] كان حال النشاط الصهيوني عند يهود العراق[4].

* [illegible] الاستعمار والاستيطان الصهيوني، كانت الصحافة الصهيونية [illegible]

* [illegible] والاستعماري المحموم في الغرب - سياسياً وفكرياً [illegible]

---

(١) د. [illegible] [اليهود المصريون [illegible]] [illegible]

(٢) مرجع السابق ص ٩

(٣) مرجع [illegible] ص ٩

(٤) المرجع السابق، ص ١٠

(٥) [illegible] ١٨٩٧ [illegible] ١٩٨٠م

فلسطين ... وخاصة بعد [illegible] عن هذه "العملة المدهشة" عن هذه الدراسة الجادة عن هذه "العملة" "إن المثير للدهشة، أن معظم المثقفين المصريين الذين عاصروا اليهود أثناء وجودهم فى مصر قبل حرب سنة ١٩٤٨م لا يعدمون شيئا عن طبيعة النشاط الصهيونى الذى مارسه الصهيونيون فى البلاد"[1].

* هكذا قدمت "الشعب" [illegible] عن هذه "العملة" عن الخطر الذى يحيق بمصر والمصريين من وراء هؤلاء المثقفين المصريين [illegible] وخطورة بعضهم بقبض "العملة" التى حبك "تعاقب" مع اليهود [illegible] على الأرض فى فلسطين!!..

* ولكن هذه الدراسة الأكاديمية الجادة التى رصدت نشاط الصهيونية فى البلاد العربية فى النصف الأول من القرن العشرين وتحدثت عن هذه "العملة العربية" من قبل الليبراليين العرب عن هذا الخطر، فى النصف الثانى من القرن العشرين، وعن تحالفهم مع المشروع الصهيونى [illegible] فتقول إحدى تلك الدراسات "إن المثقفين الليبراليين العرب قد تسامحوا ـ[!!!]ـ مع الصهيونية، ولم يقف ضدها إلا أصحاب الاتجاهات الإسلامية والعربية»"[2].

وقد حاولت هذه الشهادة التى أنصفت موقف الإسلاميين من الصهيونية [illegible] على الإسلاميين [illegible] هذا الخطر، فى دراسة "يسيرة" أن تدرك قيمة هذه الشهادة للإسلام والإسلاميين فى هذا الموضوع الخطير!..

* وهذا ما أكده الشيخ رشيد رضا و[illegible] فى ردوده على [illegible] هذا الخطر الصهيونى، لا على فلسطين وحدها، وإنما على عموم العرب والمسلمين وقد حدد رضا [illegible] الفكرى والسياسى [illegible] للعمل ضد الصهيونية والغرب الاستعمارى الذى يقف وراءها [illegible] وننبه لإشارته إلى معركة الشيخ رشيد رضا ضد الصهيونية، التى رفع لواءها "لتوى عموده "العملة" عن الغرب والمسلمين!

(١) [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] ص ٩

(٢) [الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤م] ص ٦

* في نوفمبر سنة ١٩٢٧م نبه الشيخ رشيد على خطر التغلغل اليهودي في [illegible] عنه بقوله «لأن هدفهم أن يملكوا بيت المقدس وما حوله ليقيموا فيه ملك إسرائيل».

* وفي أكتوبر سنة ١٩٢٨م نبه الشيخ رشيد إلى مخاطر إقامة الكيان الصهيوني على [illegible] العربية والإسلامية، وأشار بوضوح إلى خطر الصهيونية على [illegible] العربي. فالهدف «هو جعل هذه المنطقة من البلاد اليهودية ـ البريطانية فاصلة بين عرب مصر وعرب سورية والعراق...»[1].

* وفي أكتوبر سنة ١٩٢٩م ـ أي بعد ثلاث سنوات فقط من صدور وعد بلفور الخبيث ـ كتب الشيخ رشيد سلسلة من المقالات كشف فيها عن خطر الصهيونية ومشروعها الاستيطاني الاستعماري على الشرق العربي والمسلمين.

ومما جاء في هذا التحليل:

«إن اليهود من قواعد شريعتهم (التوراة) أن يستأصلوا القوم الذين يغلبونهم على أمرهم (حتى لا يستبقوا منهم نسمة ما).

ومن الحقائق الثابتة الخفية أن «الجمعية الماسونية»، التي ثلث عروش الحكومات الدينية من أمم أوروبة والترك والروس، هي من كيد اليهود، وهم أصحاب السهم الأعظم فيها، وإن كان ذلك يخفى على كثير من أهلها أو أكثر المنتمين إليها.

ومن غرائب كيد اليهود وقدرتهم التي فاقوا بها جميع شعوب البشر، أن الغرض السياسي النهائي لهم من هذه الجمعية هو تأسيس دولة يهودية دينية في مهد الدولة الإسرائيلية التي أسسها داود وأتمها سليمان باني هيكل الدين اليهودي في أورشليم على جبل صهيون، ولهذا سموها جمعية البنائين الأحرار، ويريدون بهم الذين بنوا هيكل سليمان، وأكثر أفراد هذه الجمعية يجهلون السبب الصحيح لهذه التسمية.

ومن الحقائق الاجتماعية التاريخية: أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالي، والذي هو قطب رحى المدنية الغربية الحاضرة في العالمين القديم والجديد، وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والأمم «الرأسمالية» ـ كما يقال في عرف هذا العصر

(١) [المنار] المجلد ١٣ ج ١ ص ٧٢٥

(٢) مجلة المنار المجلد ٢٩ ج ٦ ص ٤١٦

ومن الحقائق الثابتة التاريخية - أيضا - أنه لم توجد جماعة من جماعات النشر الدينية والسياسية عرفت كنه كيد اليهود ومكرهم في الأمم، ومقاصد الماسونية وأهلها، وتصدت لمقاومتهم، وإسقاط نفوذهم؛ إلا جمعية الجزويت الكاثوليكية، وذلك أن الكاثوليك يدينون بوجوب الخضوع الديني والسياسي لأحبار رومية، رؤساء الكنيسة المعصومين عندهم، ويعلمون أن اليهود هم الذين ثلوا عرشها بنفوذ الجمعية الماسونية التي تنظم في سلكها الملايين من النصارى ومن غيرهم، وأكثرهم لا يشعرون.

كما لا يخفى ما كان من نفوذ اليهود في ملاحدة الروس الذين أضعفوا سلطة الكنيسة الأرثوذكسية بمجلس الدوما، ثم أسقطوها بثل عرش القياصرة دعائمها وحماتها، وتأسيس حكم البلشفية في تلك الممالك الواسعة.

وما كان من نفوذهم في ملاحدة الترك بإسقاط نفوذ الخلافة التركية العثمانية، ثم بهدم الشريعة الإسلامية من المملكة التركية، وجعل حكومتها إلحادية تسعى لمحو الإسلام من الشعب التركي ومن الشعوب الأعجمية الإسلامية، التي كانت تابعة لها كالألبان والبوشناق وغيرهما، كالإيرانيين والأفغانيين.

ولقد استخدم اليهود دون النصارى فظاهرتهم على المسلمين. وأسسوا الجمعية الصهيونية للسعي إلى ذلك بقوة الشعب اليهودي المالية والمعنوية، وبجعل الاعتقاد التقليدي ناديًا لهم في هذا السعي وقوة روحية تؤيد سائر القوى الكسبية.

إنهم سدنة المال، هيكل المعبود الأكبر للأمم والدول العظمى في هذا العصر، وهم الذين استعبدوهم له، ولهم - بهذا المال - في العالم المدني من النفوذ والصحف والقدرة على الدعاية ما يقلب الحقائق، ويلبس الحق بالباطل.

وهم يعتمدون فيما يرومون من الاستقلال في الوطن القومي في فلسطين على قوة الإنكليز تحميهم. ولقد طلب عشرة آلاف من شبان اليهود الأمريكيين إذن حكومتهم لهم أن يذهبوا إلى فلسطين لقتال العرب..»[1]

* هكذا قدم الشيخ رشيد رضا - وظل يقدم - على امتداد عقود تحقق الخطر الصهيوني في الشرق العربي الإسلامي، هذه التحليلات السياسية والتاريخية

(١) المصدر السابق، المجلد ٣٠ جـ٥ ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣

[illegible] التي تعب في [illegible] فك [illegible] صفحة [illegible] حتى هذه [illegible] التي نجد فيها نشر هذه السطور من صفحاتها الطوال!

ولم يكن الرجل ذا موقف عنصري [illegible] ولا [illegible] هو الذي أشرنا قبيا كتب إلى الموقف الإسلامي من اليهود في تاريخه الحضاري، وكذلك [illegible] الإسلامي هو [illegible] رفع عن اليهود الاضطهاد [illegible] وقعه بهم الروم [illegible] المسيحية الرومانية «فكان من عدل المسلمين ورحمتهم، أن رفعوا الاضطهاد عن رءوس اليهود، وعاملوهم بالعدل والرحمة، حتى أنهم صاروا يأذنون ليعضهم بالإقامة في بيت المقدس» بعد أن كانوا ممنوعين من ذلك على عهد الرومان.

* ولأن هذه هي حقيقة موقف الشيخ رشيد رضا من اليهود كأهل كتاب، وهو موقفه من الصهيونية كحركة سياسية تتعارض مع أهداف اليهود الحق، فإن اليهود الصهاينة في حياتنا المعاصرة [illegible] فقد سعى الشيخ رشيد سعياً حثيثاً في «فك هذا الارتباط غير المقدس» بين الحركة الصهيونية وبين اليهود في العالم، وفي مقدمتهم يهود البلاد العربية، لعلمه بأن الصهيونية، هي التي تتآمر على اليهود.

نعم، سعى إلى ذلك، وبدأ الحوار مع الحركة الصهيونية، وحاور زعيمها «حاييم وايزمان» [١٨٦٤ ـ ١٩٥٢م] قائلاً لهم

«إنه خير لليهود، إذا كانوا يريدون أن يكثروا في البلاد العربية، ويكونوا فيها أحراراً آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية والشخصية، أن يتفقوا مع زعماء العرب أنفسهم على ذلك من وسائل ومقاصد.» [illegible] لا [illegible] الصهيوني، [illegible] العربي والمسلمين.

[illegible] الرجل سعى [illegible] هذا الهدف قبل صدور وعد «بلفور» سنة ٩١٧م وبعده ـ لكن حركة الصهيونية، والاستعمار الذي وقف خلف هذه «الشركة» استخدم في تحقيق مخططه ضد العرب والمسلمين، [illegible] الشيخ رشيد، حتى كتب الرجل فقال:

[illegible]

«ثم انقطعت المذاكرة في هذه المسألة؛ لاعتماد الصهيونيين على قوة الإنكليز في إعادة ملك إسرائيل لهم.. وكلٌّ منهما يمكر بالآخر..»

فعلّمنا رحمه الله [illegible] وهذه النسخة التي [illegible] درسا [illegible] أن يعلمه الذين [illegible] على مثل هذه [illegible] وهذه التسويات!!.

* [illegible] هي التي [illegible] لأشد عداوة للمؤمنين.. الذين [كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم].. والذين لا يزالون يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.. لأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله.

* كما [illegible] كتب [illegible] مع [illegible] التوحيد الإسلامي، وقالوا: إن الحق مع عباد الأوثان من «اللات.. والعزى» وليس مع التوحيد [illegible] الإسلام ﷺ ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ [النساء: ٥١].

* كما [illegible] الصليبية الأوروبية في عصورها الوسطى مع الوثنية [illegible] ضد الإسلام والمسلمين.

فنحن [illegible] أمام سنن تحكم حركة التاريخ.. وتحكم سلوك [illegible] وتناصب الإسلام والمسلمين العداء عبر هذا التاريخ.

***

* وفي دراسة الشيخ رشيد رضا لأسباب هذا الخلف عبر [illegible] العربية [illegible] البروتستانتية مع اليهود الصهاينة [illegible] وأساطيرهم عن عودة المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، بعد حشر اليهود في فلسطين، وإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

---

(١) المصدر السابق، المجلد ٣٠ ج٥ ص ٣٩١، ٣٩٢.

نعم ... شر ... شيخ رشيد ... هذا ... لدى في هذا الخلاف عن المقدس، فقال

«وأعجب من ذلك أن دسائس اليهود تمكنت من إغراء كثير من نصارى أوروبة وأمريكا، وإقناعهم بأن الإيمان بالكتاب المقدس يقتضي مساعدتهم على العودة إلى فلسطين وامتلاك أورشليم ... إلخ ... تصديقا للأنبياء، وتحقيقا لظهور المسيح ـ الذي يختلف الفريقان في شخصه وعمله ـ فاليهود يعنون: مسيحهم الملك الدنيوي الذي يعيد ملك سليمان لهم، والنصارى يعنون المسيح عيسى بن مريم، الذي يجيء في ملكوته ليدين العالم...»[1].

«وقد انتهز الشيخ رشيد رضا فرصة موقف موقعي وشيخ ... الذي تحداه شيخ جامع الأزهر الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤ هـ = ١٨٨٨ ـ ١٩٤٥م) ... ثورة البراق سنة ١٩٢٩م ـ ضد مخططات الاستعماري الصهيوني في فلسطين ... ليشهر الشيخ رشيد هذه الفرصة للإشادة بموقف الأزهر وشيخه ... وينتقد ... الخصمه و[من] ... يدين سلبا موقف السياسة المصرية [الأحزاب] ... سواء كان من الحاكمين أو المعارضين ... إزاء هذا الحدث المتحدي للعرب والمسلمين ... فكتب مشيد بالشيخ المراغي «الذي ارتفع صوته ـ ضد المخططات الإنجليزية ـ اليهودية في فلسطين، في وقت خرست فيه ألسنة جميع أمراء مصر وكبرائها الأحرار ـ [الليبراليين] ـ حتى غير المقيدين بسياسة الحكومة ومشربها، لا الوزراء والرؤساء الرسميين وحدهم! والشيخ المراغي من كبارهم، وموقفه هذا فتح جديد في النهضة العربية واليقظة الإسلامية معا...»[2].

* * *

«وفي الوقت الذي كانت الصحافة الصهيونية بمصر تنشر الإعلانات التي تغري اليهود بشراء أرض فلسطين ... كان الشيخ رشيد ... ينشر «الفتوى» الشهيرة بتحريم بيع الأرض المقدسة للصهاينة.

فقد جاءه من أرض فلسطين سنة ١٩٣٣ ـ «سؤال» من «محمد يعقوب الصبيحي» ـ

(١) المنار المجلد ٣٠ ج ٧ ص ٥٥٥

(٢) المنار المجلد ٣٠ ج ٦ ص ٤٦٦

رئيس لجنة [illegible] عن حكم [illegible] في فلسطين، نشر في [illegible] بعد ظهوره على صلاح فلسطيني [illegible] فكتب "فتوى" شيخ [illegible] يحرم فيها على [illegible] الاستيلاء على فلسطين [illegible] وتسفيره على [illegible] وشرذمة سكانها، وخلاتهم عن بلادهم [illegible] لمصلحة فلسطين المقدسة يهودية!!

وإن هذه [illegible] في شبه "الدولة" و"سياسية"، تعبر عن "تواطؤ الموقف الإسلامي" في كل ذرة من ذرات أرض فلسطين.. فإن إعادة نشرها هو فريضة دائمة، يجب أن لا تغيب عن عمل المسلم في يوم من الأيام.

لقد قال الشيخ رشيد في هذه الفتوى:

«بسم الله الرحمن الرحيم رب اتني حكما وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين، واجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبي إنه كان من الضالين، ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأسلمت لرب العالمين، وأنبت إليه وأسلمت له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن حكم الإسلام في عمل الإنكليز واليهود والصهيونيين في فلسطين حكم قوم من أهل الحرب أغاروا على وطن من دار الإسلام فاستولوا عليه بالقوة، واستبدوا بأمر الملك فيه، وشرعوا في انتزاع رقبة أرضه من أهله بتدابير مبهمة ليسلبوهم الملك - [بكسر الميم] - كما سلبوها الملك [بضمها]

وحكم من يساعدهم على عملهم هذا (امتلاك الأرض) بأي نوع من أنواع المساعدة وأية صورة من صورها الرسمية (كالبيع) وغير الرسمية (كالترغيب) حكم الخائن لأمته وملّته، العدو لله ولرسوله وللمؤمنين، الموالي لأعدائهم وخصومهم في ملكهم ومُلكهم، لا فرق بينه وبين المتحد معهم بالمسلمين بماله ونفسه فالذي يبيع أرضه لليهود الصهيونيين، والذي يسعى في شراء أرض غيره لهم من سمسار وغيره كالذي يساعد أي قوم من الأجانب على قومه فيما يحاولون فتح بلادهم بالسيف والنار وامتلاك أوطانهم؛ بل أقول، ولا أخاف في الله لومة لائم، ولا إيذاء ظالم: إن هذا النوع من فتح الأجنبي لدار الإسلام هو شر من كل ما سبقه من أمثاله من الفتوح الحربية السياسية والدينية على اختلاف أسمائها في هذا العصر؛ لأنه سلب لحق أهل الوطن في مُلك بلادهم وحكمهم، وحقهم في ملك أرضها لأجل طردهم منها.. ومن المعلوم - بالبداهة - أنه إذا بقي لهم ملك الأرض تيسر لهم إعادة مُلك الحكم، وإلا فقدناهما معاً.

هذا، وإن فقد فلسطين خطر على بلاد أمتنا المجاورة لهذا الوطن، فقد صار من المعلوم بالضرورة لأهل فلسطين والمجاورين لهم، ولكل العارفين بما يجري فيها، من عزم اليهود على تأسيس الوطن القومي الإسرائيلي، واستعدادهم لذلك بما سيمدهم بقوة المال، الذي هم أقطاب دولته الاقتصادية، وبقوة الدولة البريطانية الحربية، إن هذا الخطر سيسري إلى شرق الأردن وسورية ولبنان والعراق؛ بل هو خطر سينتقل من سيء إلى أسوأ.

وجملة القول، إن الصهيونية البريطانية خطر على الأمة العربية في جميع أوطانها الآسيوية، وفي دينها ودنياها، فلا يعقل أن يساعدهم عربي غير خائن لقومه ووطنه، ولا مسلم يؤمن بالله تعالى، وبكتابه العزيز، وبرسوله محمد خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه.

بل يجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من جهد في مقاومة هذا الفتح، ووجوبه آكد على الأقرب فالأقرب، وأهون أسباب المقاومة وأخفها المقاومة السلبية، وأسهلها الامتناع عن بيع أرض الوطن لليهود؛ فإنه دون كل ما يجب من الجهاد بالمال والنفس الذي يبذلونه هم في سلب بلادنا ومنكنا منه.

ومن المقرر في الشرع أنهم إذا أحدثوا، وجب على المسلمين - في جملتهم - بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل استعادته، فهل يعقل أن يبيح لنا هذا الشرع تمهيد السبيل لامتلاكهم إياه بأحد شيء من المال منهم، وهو معلوم باليقين؛ لأجل أن يوجب علينا بذل أضعاف هذا المال مع الأنفس لأجل إعادتها له، وهو مشكوك فيه؛ لأنه يتوقف على وحدة الأمة العربية، وتجديد قوتها بالطرق العصرية وأنّى يكون ذلك لها وقسم بلادها وشرايين دم الحياة فيها في قبضة غيرها؟!

فالذي يبيع أرضه لليهود في فلسطين، وفي شرق الأردن، يعد جانيا على الأمة العربية كلها لا على فلسطين وحدها.

ولا عذر لأحد بالفقر والحاجة إلى المال لنفقة على العيال، فإذا كان الشرع يبيح السؤال المحرم عند الحاجة الشديدة، ويبيح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للاضطرار، وقد يبيح الغصب والسرقة للرغيف الذي يسد الرمق ويقي الجائع من الموت بنية التعويض؛ فإن هذا الشرع لا يبيح لمسلم بيع بلاده وحياة وطنه وملته؛ لأجل النفقة

على العيال، ولو وصل إلى درجة الاضطرار. إذ فرض أن الاضطرار إلى القوت الذي يسد الرمق يصل إلى حيث لا يمكن إزالته إلا بالبيع لليهود وسائر أنواع الخيانة فالاضطرار الذي يبيح أمثال ما ذكرت من المحظورات، أمر يعوض للشخص الذي أشرف على الموت من الجوع، وهو يزول برغيف واحد مثلا، وله طرق ووسائل كثيرة

وإني أعتقد أن الذين باعوا أرضهم بهم لم يكونوا يعلمون أن بيعهم خيانة لله ولرسوله ولدينه وللأمة كلها، كخيانة الحرب مع الأعداء لتمليكهم دور الإسلام وإذلال أهلها، وهذا أشد أنواعها ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢٧) واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾

[الأنفال: ٢٧، ٢٨][1]

***

هكذا كان موقف الشيخ رشيد رضا، كنموذج لموقف السياسي الإسلامي عند علماء الإحياء والتجديد، إزاء خطر "الصهيونية" على الشرق العربي والإسلامي. فحيث كان الجهود والمقصد في غيبة الوعي السياسي بهذا التخصص العلمي والإقليمي المحلي، وحيث كان المتعربون في عداد الذين يديرون العرب لمنفعتهم ووصايتهم، كان دور الإحياء التجديدي، متصلا بالوعي الإسلامي الشامل، والوعي السياسي يحقق الموقف المعين المناهض الذي يديره الاستعمار والصهيونية لعالم الإسلام وأمة الإسلام

وهذا كان الشيخ رشيد رضا شديد التحذير من هذا الوعي السياسي الإسلامي يحقق هذه النتيجة الخطيرة، وكشف عن المخطط الذي يدبره الصهيونية لعالم الإسلام والمسلمين

"فالاستعمار الاستيطاني الصهيوني هو خير أنواع الاستعمار لأنه يسلب الأمة أرضها وملكها جميعا، بينما الاستعمار العسكري يسلب الملك والحكم فقط ومن ثم كان الاستعمار الاستيطاني يتحقق من شره الاستعمار الاستيطاني ... وملك وحده في حالة الاستعمار الاستيطاني كل شيء الخاصة هي التي تبقى من كل أمة حتى من عرفها التاريخ في عصر غلبة عروق المستعمرين"[1]

(١) مصور سابق المجلد ٣٣ ج ٤ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ عدد ربيع الأول سنة ١٣٥٢ هجرية سنة ١٩٣٣م

* والاستعمار الصهيوني الاستيطاني بفلسطين لا يقف خطره الداهم عند هذا القطر العربي المسلم وحده؛ وإنما يمتد من نقطة الارتكاز هذه إلى كل وطن الأمة العربية من مصر إلى العراق!..

* وإذا كانت الصليبية العربية والصهيونية اليهودية قد وطّنت الأساطير الدينية لخدمة هذا المخطط الاستعماري؛ فإن الوعي الإسلامي بحقائق الدين الحق، وبالسنن الإلهية الكونية والاجتماعية، وبحقائق الواقع وإمكانات الأمة، هي الأسلحة الماضية في مواجهة هذه التحديات!(٢)

رحم الله هذا الإمام العظيم الشيخ محمد رشيد رضا، وسدد خطانا على الطريق الذي سار فيه، طريق الإحياء بالإسلام.

* * *

---

(١) [illegible] موقف الشيخ رشيد رضا إزاء الصهيونية كتابا [في فقه الصراع على القدس وفلسطين] [illegible] القاهرة سنة ١٤٢٦هـ، سنة ٢٠٠٥م

المصادر والمراجع

الأفغاني ـ جمال الدين: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

د. سهام نصار: [الصهيونيون بين الصهاينة والصهيونية] طبعة [illegible] سنة [illegible]

عبد الله النديم: مجلة [الأستاذ] ـ القاهرة سنة ١٨٩٢م ـ سنة ١٨٩٣م

د. عواطف عبد الرحمن: [الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٠ ـ ١٩٥٤م] دراسة تحليلية
طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م

محمد البشير الإبراهيمي: [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جمعه وتقديم: د. أحمد
طالب الإبراهيمي طبعة [illegible] سنة ١٩٩٧م

محمد رشيد رضا: مجلة [المنار]

[تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة، سنة ١٩٣١م

[تفسير المنار] طبعة دار المعرفة ـ بيروت

محمد عبده: [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة
القاهرة سنة ١٩٩٣م

د. محمد عمارة: [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٨هـ / سنة ١٩٨٨م

[في فقه الصراع على القدس وفلسطين] طبعة القاهرة سنة ١٤٢٦هـ
/ سنة ٢٠٠٥م

[الانتماء الثقافي] طبعة دار نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٩٧م

(٢)

الإمام الشهيد

حسن البنا

[١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م]

- ١ -

بطاقة حياة

* هو: حسن أحمد عبد الرحمن البنا [١٣٢٤ - ١٣٧٨هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩م]

* ولد ونشأ في أسرة ريفية بسيطة، تحترف الزراعة بقرية «شمشيرة»، مركز «قوة»، بالقرب من «رشيد» - بدلتا النيل - محافظة «كفر الشيخ» حاليًا.

* وكان والده أحمد قد سلك - بناء على رغبة والديه - طريق التعليم الديني، بدلا من فلاحة الأرض، فحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بجامع إبراهيم باشا - بالإسكندرية - فدرس فيه منهاج التعليم الأزهري، ثم امتهن - لتحصيل العيش - مهنة إصلاح الساعات، في محل الحاج محمد سلطان - الذي كان عالما صالحا، وعضوًا «بجمعية العروة الوثقى» التي كان جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] رئيسا لها، والشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] نائب رئيسها. ولذلك، كان محل إصلاح الساعات هذا حيث عمل الوالد ملتقى عدد كبير من العلماء والوجهاء، الذين عايشهم وسمع منهم، وتأثر بهم والد حسن البنا.

* وبعد فراغ والده أحمد من تحصيل العلم بجامع إبراهيم باشا، وبعد تقدم الصنعة - إصلاح الساعات - عاد إلى قريته «شمشيرة»، فتزوج، ثم انتقل بزوجته ووالده عبد الرحمن - إلى مدينة «محمودية» بمحافظة البحيرة، مشتغلا بصنعة إصلاح الساعات، ومواصلا الاشتغال بالعلم، وخاصة علم الحديث النبوي الشريف، كما عمل مأذونا شرعيًا، ومارس الخطابة في مساجد المحمودية.

* وفي عام [illegible] أحمد [illegible] مدينة المحمودية [illegible] بكر حسن [illegible] في يوم الأحد ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٤هـ / ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦م.

* [illegible] الحديث [illegible] الشريف [illegible] مذهب الفقه الإسلامي، [illegible] على مذهب [illegible] على مذهب [illegible] على مذهب [illegible] على مذهب [illegible] الإسلام

* [illegible] حرفة [illegible] الكتب، [illegible] على [illegible] من حرف [illegible] الناس

* وفي مدينة المحمودية [illegible] وبعد مرحلة التعليم في الكتاتيب، التحق بمدرسة الرشاد [illegible] أربع سنوات [illegible] عشرة من عمره [١٣٣٣هـ [illegible] ١٣٣٨هـ ١٩٢٠م] وكان صاحب هذه المدرسة - الشيخ محمد محمد زهران على حظ من العلم والثقافة، يصدر مجلة دينية [illegible]

* ثم التحق حسن [illegible] بالمدرسة الإعدادية، التي بدأ ينشط فيها، فرأس «جمعية الأخلاق الأدبية» [illegible] كما التحق - عضواً [illegible] «منع المحرمات» [illegible] كونها مع بعض أقرانه

* وبعد المدرسة الإعدادية التحق بمدرسة المعلمين [illegible] «[illegible]» [illegible] في ٤ [illegible] سنة ١٣٤ هـ [illegible] ٢ [illegible] سنة ١٩٢٣م - [illegible] على «[illegible]» [illegible] الإصلاح [illegible]

* وأثناء نقله بين دمنهور والمحمودية لاحظ نشاط الجماعات والإرساليات التبشيرية الإنجيلية، التي دخلت مصر في ركاب الاستعمار الإنجليزي، وبدعم من الكنيسة الأمريكية، والتي «أخذت تبشر بالمسيحية في ظل التطبيب وإيواء الصبية وتعليم التطريز».

فقام - مع عدد من زملائه - بتأسيس «جمعية حصافية خيرية»، وانتخب سكرتيراً لها.. وأخذت هذه الجمعية تمارس الدعوة إلى الأخلاق، ومقاومة المنكرات، ومحاربة الإرساليات التبشيرية الإنجيلية..

* وعندما قامت ثورة مصر الكبرى [١٣٣٧هـ - ١٩١٩م] أدت من تسيج وعيه الوطني ونصيحة السياسي.. فشارك في مظاهرات الثورة، وكانت سنة ثلاث الثورة بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة.

وعندما قاطع الشعب المصري - أثناء الثورة - لجنة «ملنر» الإنجليزية - نظم حسن لت في ذلك شعراً، جاء فيه:

يا ملنر ارجع ثم سل ... وفدا باريس أقام

وارجع لقومك قل لهم ... لا تخدعوهم يا لئام

* وإن تلك الثورة، الوفي - بالنفي - الزعيم الوطني المجاهد محمد بك فريد [١٢٨٤ - ١٣٣٨هـ / ١٨٦٨ - ١٩١٩م] - زعيم الحزب الوطني - فهو نبأ وفاته حسن ... فنظم في ذلك قصيدة مطلعها:

فريد تم بالأمن والإيمان ... أفريد لا تجزع على الأوطان

* وبعد مرحلة مدرسة المعلمين بدمنهور انتقلت الأسرة إلى القاهرة، ليكون بحوزتها بكر حسن بنا، ليلتحق بدار العلوم في العام الدراسي ١٩٢٣م - ١٩٢٤م..

* وفي دار العلوم تتلمذ حسن بنا على عدد من علماء ذلك العصر، وكان من أبرز الأساتذة الذين تأثر بهم الشيخ أحمد نذير [١٢٩٥ - ١٣٤٧هـ / ١٨٧٨ - ١٩٢٩م] الذي كان قد تتلمذ على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

* وفي القاهرة ـ وهو مقر بدار العلوم ـ عاش ولازال

ـ سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م

ـ وصدور عدد من الكتب التي صادمت ثوابت الإسلام..

ـ كتب صدمته عن وصف للعرب تفكيرهم وانحلالهم الخلقي، التي كتبت عرضة لم
مجتمع محافظ من أنحاء جنته في الريف، وفي المدن شبه الريفية مثل مدينة
ودمنهور فقد وجد «الكثير من مظاهر التحلل والبعد عن الأخلاق الإسلامية
في كثير من الأماكن التي لا عهد له بها في الريف المصري وطهرت كتب
وجرائد ومجلات كل ما فيها يفضح هذا التفكير الذي لا هدف له؛ إلا إضعاف
أثر أي دين أو القضاء عليه في نفوس الشعب..»

* وإلى جانب الآلام الذاتية التي عاشها ـ من هذا الذي رآه وعرأه بالقاهرة... أخذ يفكر
في مصير أمته التي رد لأعداء دفعها إلى هذا المصير ويعبر عن «كنت متألم
أشد الألم، فها أنذا أرى الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين
إسلامها العزيز الغالي، الذي ورثته وحملته وألفته وعاشت به واعتز بها أربعة عشر
قرنا كاملة، وبين هذا الغرب الغربي العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة المادية
الفتاكة من المال والجاه، والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية وكنت يتملكني عن
بعض الشيء، الإحساس بهذا الشعور الذي كثير من الأصدقاء اختصاصه من
زملائنا الطلاب بدار العلوم والأزهر والمعاهد الأخرى..»

* وكان مكتبة الصاحبية بعلم مجتهد محمد بن خطب [٣٠٣ ـ
١٣٨٩هـ ١٨٨٦ ٩٦٩ م] مكان شكوى ومصدق محبوبه مع العديد من
علماء الطلاب وكذلك كتب مرجعية [سار] الصاحبية بعلم مجتهد
الشيخ محمد رشيد [١٢٨٢ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ١٩٣٥م] وهي إلى
إليه العديد من تلاميذ الأفغاني ومحمد عبده.

* وحدد كتبهم تعلم دينه بدار العلوم، ويقف على ما في
بعينه، عن "أبيه" وحصة" وذلك عندما كتب في مجلة «
« لإنشاء»، جواب على سؤال أسئلة احمد يوسف نجاتي'

- «شرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبيّن الوسائل التي تعدها لتحقيقها» فكانت إجابة حسن البنا - في «ورقة الإجابة» - تقول:

«إن أعظم آمالي بعد إتمام حياتي الدراسية أملان

١ - خاص: وهو إسعاد أسرتي وقرابتي

٢ - وعام: وهو أن أكون مرشدا معلما، إذا قضيت في تعليم الأبناء سحابة النهار، قضيت ليلي في تعليم الآباء هدف دينهم ومنابع سعادتهم.. تارة بالخطابة والمحاورة، وأخرى بالتأليف والكتابة، والثالثة بالتجول والسياسة

وقد أعددت لتحقيق الأول: معرفة بالجميل.. ولتحقيق الثاني، من الوسائل الخلقية: «الثبات والتضحية»، وهما ألزم للمصلح من ظله، وسر نجاحه كله.. ومن الوسائل العلمية: درسا طويلا، سأحاول أن تشهد لي به الأوراق الرسمية، وتعرف بالذين يعتنقون هذا المبدأ أو يعطفون على أهله، وحسما تعوّد الخشونة على ضآلته وألف المشقة على نحافته، ونفسًا بعتُها لله صفقة رابحة، راجيا منه قبولها، سائله إتمامها..

ذلك عهد بيني وبين ربي، أسجله على نفسي، وأشهد عليه أستاذي، في وحدة لا يؤثر فيها إلا الضمير»

فكان العهد.. والصفقة.. والمبايعة.. التي كانت أربح صفقات القرن الرابع عشر الهجري

* لقد تخرج حسن البنا من دار العلوم، وحصل على دبلومها [سنة ١٣٤٦هـ - سنة ١٩٢٧م]. ولم يكن قد أتم يومئذ عامه الواحد والعشرين، وكان ترتيبه الأول على دفعته، وقد رشح للسفر إلى باريس للدراسات العليا، لكنه تنازل عن حقه في الانتداب، مفضلا البقاء بمصر للعمل على تحقيق الأهداف التي حددها لنفسه في هذه الحياة

* ولقد عين مدرسا بإحدى المدارس الابتدائية بمدينة الإسماعيلية في سبتمبر سنة ١٩٢٧م / ربيع أول سنة ١٣٤٦هـ

وفي الإسماعيلية رأى من «الحوافز المستقرة» أكثر مما رآه في القاهرة، رأى بمناخ الاحتلال والاستغلال الأجنبي مجسدة أمام سمعه وبصره، ورأى التغريب الثقافي والاجتماعي يتحدى هوية الأمة وكرامتها:

«فهذا المعسكر الإنجليزي في غربها بيأسه وسلطانه، يبعث في نفس كل وطني غيور الأسى والأسف، ويدفعه دفعاً إلى مراجعة هذا الاحتلال البغيض، وما جره على مصر من نكبات جسام

وهذا المكتب الأنيق الفخم، مكتب إدارة شركة قناة السويس في سلطانه وسطوته، واستخدامه للمصريين، ومعاملته إياهم معاملة الأتباع المضطهدين، وإكرامه للأجانب، ورفعه إياهم إلى مرتبة السادة والحاكمين

وهذه المنازل الفخمة المنتشرة في حي الإفرنج بأكمله، ويسكنها موظفو الشركة الأجانب، وتقابلها مساكن العمال العرب في ضآلتها وصغر شأنها

والشوارع كلها تحمل لوحات لم تكتب إلا بلغة هذا الاحتلال الجاثم على صدورها، حتى شارع المسجد كان مكتوبا هكذا «ruc Du Mosquee»!!

* وفي الإسماعيلية.. وفي هذا المناخ، وتلك الملابسات.. قرر تأسيس [جماعة الإخوان المسلمين] وتوجه بدعوته إلى مختلف شرائح الأمة وقادة الرأي فيها

- إلى العلماء أولاً..

- وشيوخ الطرق ثانياً..

- والأعيان ثالثاً

- والأندية رابعاً».

وكان أول المستجيبين لدعوته ستة رجال، جمعهم من العمال الحرفيين، فأسس بهم الجماعة في ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ/ أبريل/ مايو سنة ١٩٢٨م

* وكان للمرأة - منذ البداية - نصيب في الدعوة، فأسس حسن البنا بالإسماعيلية، معهد أمهات المؤمنين» لتربية البنات تربية إسلامية صالحة، كما أنشأ بالجماعة «قسم الأخوات المسلمات».

* ومن الإسماعيلية نشرت الدعوة وتنظيمات الجماعة و«الشعب» إلى مدن مصر وقراها، وتخطت حدود مصر إلى مختلف أنحاء عالم الإسلام، وإلى مواطن الجاليات الإسلامية خارج عالم الإسلام.

* وفي سبيل الدعوة والجماعة زار الأستاذ البنا ثلاثة آلاف قرية مصرية، من بين قرى مصر التي يبلغ عددها يومئذ أربعة آلاف!! وذلك غير المدن، الكبير منها والصغير..

* وعبر الخطابة التي لم يكن يجاري فيها، كانت الصحافة ميدانا لدعوته، فأصدر من المجلات والصحف:

١ ـ مجلة [المنار]، الشهرية..

٢ ـ ومجلة [الشهاب] الأسبوعية.

٣ ـ ومجلة [النذير] الأسبوعية..

٤ ـ ومجلة [التعارف] الأسبوعية.

٥ ـ ومجلة [الكشكول الجديد].

٦ ـ وجريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية.

٧ ـ وجريدة الإخوان المسلمين النصف شهرية.

٨ ـ وجريدة الإخوان المسلمين اليومية.

* ولقد رشح نفسه للانتخابات البرلمانية مرتين ـ بدائرة الإسماعيلية ـ: الأولى في انتخابات سنة ١٩٤٢م، ثم تنازل عن الترشيح لطلب من الحكومة، بناء على ضغط وتهديد من المحتلين الإنجليز، والثانية في انتخابات سنة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥م.

* وكان الأستاذ البنا وجماعته في طليعة القوى التي وعت خطورة القضية الفلسطينية، وجاهدت في سبيلها منذ الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦م، فرفعوا شعارات الجهاد لإنقاذ فلسطين من المخطط الصليبي، كما كانوا في طليعة الذين أعدوا العدة للجهاد المسلح، وخاضوا معاركه على أرض فلسطين سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م، قبل وبعد دخول الجيوش العربية إلى أرض فلسطين في مايو ١٩٤٨م.

* وفي صيف سنة ١٩٤٦م - جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥هـ - سنة خمس عشرة وصفه عدد من الذين تعدد بقرب من سبعة عشر عامًا قضاها في السجن وتوفي كما قدمنا « مدرجة حمصية»[١١] بحكم «قانون الوطني المستبد»[١٢]

* ويتضح من الاستعمار - وحول من قوة الخداعة - وخاصة بعد تجربتهم الخيانة في فلسطين، صدر الأمر بحشد الجيش نحو الحدود في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م - صيف ١٣٦٨م - وكان عدد أعضائها الخمس يومئذ تسعة وستون عضوًا - معظمهم من الأعضاء المؤازرين أصحاب هذا العدد. وفيها من «الشُعَب» المنشرة في مصر ما يزيد على ٢,٠٠٠ شعبة!..

* وبسرعة الأحداث - وعلى الأستاذ الإمام الشيخ حسن البنا القاهرة في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩م - ربيع الآخر سنة ١٣٦٨ هـ - فتصدعت وخلا الجو من منهم المبارك إلى بارئها، بعد أن نثر البذرة التي نبتت لشجرة باسقة، التي امتدت أغصانها وأوراقها وثمراتها إلى كل أنحاء الكوكب الذي نعيش عليه - وفي ذلك لله فيه كما تم بذرته في بذوره الكثيرة التي نثرت في ذلك التاريخ

* أما الشقة التي صنعت هذا الجمع المتفرد - وصنعت هذا المشروع الإصلاحي، فقد كانت مزيجًا من:

١ - فقه القرآن الكريم..

٢ - وفقه الهدى النبوي الشريف - حديث وسيرة وخلق

٣ - وفقه الواقع المعاصر والمعيش - مصريًا، وعربيًا، وإسلاميًا وعالميًا -

٤ - والتصوف الشرعي، البريء من البدع والخرافات.. والذي أخذه عن الطريقة الخلوتية، التي تأثر بشيخها السيد حسنين الحصافي، وقال عنه:

«وكان أعظم من أخذ بمجامع قلبي، ومنك عليَّ لبي من سيرة الشيخ الحصافي - رضي الله عنه - شدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه كان لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يدع الأمر والنهي مهما كان في حضرة كبير أو عظيم»

٥ - والتربية بالمحبة والموعظة التي أخذها عن الأستاذ الشيخ عبد الفتاح

٦ ـ والعقلانية المؤمنة التي تشبع بها من المدرسة الإحيائية الإصلاحية جمال الدين الأفغاني.. ومحمد عبده.. ورشيد رضا..

٧ ـ والمعارف العامة والإنسانية، التي رآها «حكمة»، هي ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها..

* * *

* ومن كلماته الجامعة.. وذات المعنى

١ ـ عن الإسلام الثورة:

«إن الإسلام ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.. يزلزل الأوضاع الفاسدة، ويحطم صروح البغي والعدوان الشامخة، ويجدد معالم الحياة وأوضاعها، ويقيمها على أثبت الدعائم..

إنه ثورة على الجهل.. وثورة على الظلم بكل معانيه: ظلم الحاكم للمحكوم.. وظلم الغني للفقير.. وظلم القوي للضعيف..

وثورة على الضعف بكل مظاهره ونواحيه: ضعف النفوس بالشح والإثم.. وضعف الرءوس بالغباء والعقم.. وضعف الأبدان بالشهوات والسقم»

* * *

٢ ـ وعن تحرير مصر:

«أيها المصري أيتها المصرية، أيها الشرقي أيتها الشرقية، علّموا أولادكم منذ نعومة أظفارهم أن يكرهوا وأن يمقتوا وأن يلعنوا الإمبراطورية البريطانية، كما يعلّم الآباء الإنجليز أبناءهم أن يحبوا إمبراطوريتهم..

تصرفوا بطريقة تجعل على الإنجليز أن يواجهوا قلوبا تكرههم، وألسنة تلعنهم وأيدي تذبحهم.. وإنه لا باب للحرية سوى باب العداء الصريح لبريطانيا، والإعداد الكامل والجهاد الواثب، ومرحبا به ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون»

٣ ـ وعن إنقاذ فلسطين:

«إن فلسطين هي قلب الشرق النابض، وموطن مقدسات مسلميه ومسيحيّيه على السواء..

وإن الشعب الفلسطيني هو من سلالة الصحابة الفاتحين وإن ثرى فلسطين قد رُوِّى بدماء عشرات الآلاف من صحابة نبي محمد ﷺ .

وإن قضية فلسطين هي قضية العالم الإسلامي بأسره، وهي ميزان كرامته، ومقياس هيبته وقوته.

وإن اليهود في فلسطين خطر داهم على سياسة الشرق العامة، ومطامعهم في الوطن القومي غير محصورة؛ فهم لا يقتصرون على فلسطين، ولكنهم سيتحيفون الأرض من كل جانب، وهم خطر على وحدة العرب في الشرق؛ لأنهم لا يعيشون إلا في جو التفريق، وهم خطر داهم على أخلاق الشرق، فهم قوم خُلُقُهم الدجل، باعوا من قبل آيات الله بثمن قليل، ولا يزالون يبيعون الأخلاق بثمن بخس.

وإن الصهيونية ليست حركة سياسية قاصرة على الوطن القومي لليهود أو الدولة المزعومة بالتقسيم الموهوم، ولكنها ثمرة تدبير وجهود اليهودية العالمية، التي تهدف إلى تسخير العالم كله لحكم اليهود، ومصلحة اليهود، وزعامة مسيح صهيون، وليست دولتهم التي يحلمون بها بجملتها المأثورة (من نهر سيحان وإسرائيل من الفرات إلى النيل) في حلمهم، إلا نقطة ارتكاز تنقض منها اليهودية العالمية على الأمة العربية دولة فدولة، وعلى المجموعة الإسلامية أمة بعد أمة.

أما أمم الغرب، في أوروبا وأمريكا، فقد تكفل الذهب اليهودي، والإغراء الصهيوني بتوجيه زعمائها وحكامها حيث يريد..

وإن الإنجليز اليهود لن يفهموا إلا لغة واحدة: هي لغة الثورة والقوة والدم»

* * *

٤ ـ وعن الوحدة العربية.

«إن قضية وحدة العرب هي أعدل وأنجح وأوضح قضية في التاريخ، فمن البديهيات التي لا تقبل الجدل: أن العرب أمة واحدة. وإن هذا التعبير يساوي في أحقيته ووضوحه واستقراره في النفوس والأذهان قول القائلين: السماء فوقنا

والأرض تحتنا. فلقد اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية والجغرافية والتاريخية والمصلحية. ».

❊ ❊ ❊

٥ ـ وعن تحرير الوطن الإسلامي:

«إن الوطنية هي فرض من الله، هو الذي أمر به، وهي جزء من تعاليم الإسلام.

ونحن لا نطيق أن يكون في أرض الإسلام مستعمر واحد. ولذلك، يعمل [الإخوان] بالنفس والمال في سبيل تحرير الوطن الإسلامي العام.

إن الوطن الإسلامي لا يتجزأ، وإن كل شبر فيه مسلم يقول: لا إله إلا الله، أو رفعت عليه يوما من الأيام راية الله قد صار أمانة في يد المسلمين قاطبة، ووجب عليهم أن يفدوا حريته بالنفوس والأرواح..».

❊ ❊ ❊

٦ ـ وعن الجهاد.. والاستشهاد:

«إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب الله لها الحياة العزيزة..

فاعملوا للموتة الكريمة: تظفروا بالسعادة الكاملة. رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد في سبيله..».

❊ ❊ ❊

❊ وعندما سئل هذا الرجل الرباني [illegible] الذي كان من أبرز [illegible] الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري ـ العشرين الميلادي ـ [illegible] كرامة الله فاستجاب دعوته ورزقه كرامة الاستشهاد في سبيله.. عندما سئل

ـ من أنت؟؟

كان جوابه

«أن :

* سائح يطلب الحقيقة . .

* وإنسان يبحث عن مدلول الإنسانية بين الناس . .

* وموطن ينشد لوطنه الكرامة والحرية والاستقرار والحياة الطيبة فى ظل الإسلام الحنيف . .

* ومتجرد أدرك سر وجوده، فأدى : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا من المسلمين»

***

تلك سطور [illegible] مجرد سطور [illegible] من «بطاقة حياة» هذا الإمام الشهيد - عليه رحمة الله

[illegible] [الفكر السياسى للإمام حسن البنا] طبعة القاهرة - دار التوزيع والنشر الإسلامية [illegible] سنة ١٩٩٢ م [illegible] [الأعلام] طبعة بيروت الثانية [illegible] [تقويم دار العلوم] المجلد الأول طبعة القاهرة سنة ١٤١٠هـ / سنة ١٩٩٠م [illegible] [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] طبعة القاهرة دار الشروق سنة ١٩٩١م

ـ ٢ ـ

التأسيس لليقظة الإسلامية الحديثة

على امتداد أوطان الأمة الإسلامية من «غانة» غرباً إلى «فرغانة» شرقاً، ومن حوض «نهر الفولجا» في الشمال إلى جنوبي «خط الاستواء» بل وفي مواطن الأقليات الإسلامية خارج عالم الإسلام، إذ نظر الباحث المنصف إلى ظواهر البعث والإحياء والنهضة والتجديد والإصلاح، ومشروعاتها الحضارية النهضوية، وحركاتها وتنظيماتها، فسيجد أن ظاهرة الصحوة الإسلامية، ومشروعها الحضاري، هي أقوى وأكبر وأخطر وأعمق ظواهر العصر الذي نعيش فيه.

سيسوى في ذلك التقييم، والتسليم بتلك الحقيقة، الباحثون المؤيدون، أو المناوئون لهذا المشروع وتلك الحركات!.

والحقيقة الثانية التي لن تجد عليها خلافاً بين الباحثين، ولا بين حركات هذه الصحوة الإسلامية المعاصرة وتياراتها، هي الأبوة والإمامة والريادة التي يمثلها الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ/١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م] بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى ـ التي تمثل أمل النهضة لدى الإسلاميين ـ ومصدر القلق المزعج والمخيف لأعداء الإسلام والمسلمين!.

أما الحقيقة الثالثة في هذا المقام ـ فهي أن أبوة حسن البنا وإمامته وريادته لهذا الإحياء الإسلامي المعاصر، إنما تمثل «الحلقة المعاصرة» في سلسلة حلقات هذا الإحياء الإسلامي الحديث، إنها مرحلة مستمرة في «الكم» و«الكيف»، ولكنها امتداد متطور لمرحلة «النشأة» و«التطور» التي تمثلت في حركة «الجامعة الإسلامية» التي تزيد

[illegible] الإسلامي في [illegible] الإسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م]، والتي كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] [illegible] الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] [illegible] الإسلامي على امتداد أربعين عاماً [١٣١٥ ـ ١٨٩٨م، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م]، ثم أسلم [illegible] الشيخ [illegible]

* الذي واصل إصدار [المنار] لعدة سنوات

* [illegible] من حيث انتهى رشيد رضا [illegible] وواصل المسيرة من حيث انتهى محمد عبده.

* [illegible] [illegible] [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] للإمام محمد عبده [طبع الاستبداد ومصارع الاستعباد] لعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م].

وذلك لتأكيد قسمة "الواصل" و"الامتداد" مع "النظر" [illegible] "الكيف" [illegible] ويستجيب لمتغيرات الواقع.. والتحديات..

***

[illegible] الحضاري الإسلامي [illegible] الأفغاني [illegible] تستهدف تحرير العقل المسلم من [illegible] الموروث عن [illegible] "المملوكية العثمانية" [illegible] الحضاري الغربي [illegible] الإسلامي [illegible] الاستعمارية الأوروبية [illegible] الإمام محمد عبده [illegible] **فقد وجه الأفغاني عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول.** أما مقصده السياسي، فهو إنهاض دولة

إسلامية من ضعفها، وتسلمها للقيام على شئونها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده.

«لأن مشروع الخصائي العربي المعاصر كان وضعيًا علمانيًا لا دينيًا. فمنه من شعر هذه الحاجة إلى إسلامه الحداثة تحت شعار «الإصلاح بالإسلام» يستمد منه شرعية مشروعه العربي. ولكي يعود الإسلام قوة فاعلة في تقدم الحداثة، يتطلب من الأصوليين الإسلاميين أن يعيدوا قراءة النص الديني، لتتجاوز بذلك مرحلة التراث الخصائي، وتحتوي من منجزات الحداثة الغربية ما يسمح بتجاوز التبعية الثقافية للغرب الاستعماري.

ولذلك، حدد الأفغاني ومحمد عبده «محتوى فكري» «لحركة جامعة إسلامية»، عندما قال الأول:

"إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. فهو يذهب بمعتنقيه إلى جود الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابه؛ بل يفيض على المتدين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يغمرهم بسعادة الدارين.

أرسل فكرك إلى نشأة الأمة، التي حملت بعد مشاهة، وطلب سبب نهوضها الأول. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزكٍّ للنفوس، مطهر لنفوس من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مساعي الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتنقيه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ومنها وردت، وعنها صدرت، فما براه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانها؛ إنما يكون من طرح تلك الأصول وبيدها ظهريا. فعلاجها الراجع؛ إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، ولا أحد يأخذها على ما كان في بدايته.

---

[1] أعمال الكاتب الأديب محمد عبده ج ٢ ص ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣ وما بعدها، طبعة دار الشروق سنة ١٩٧٢ م.

ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن جراثيم ـ [أصول] ـ الدين متأصلة في النفوس، والقلوب مطمئنة إليه، وفي رواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفحة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا.

ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها، وقوّاها، ونوّر عقلها، وقوّم أخلاقها، وسدّد أحكامها، فسادت على العالم..»[1].

هكذا أعلن الأفغاني «البيان الإسلامي» للنقطة الإسلامية الحديثة.

ثم واصل الإمام محمد عبده السير على هذا الطريق، بالإلحاح على تركيز شعار «الإصلاح بالإسلام».. فقال ـ ناقدا للمدنية الغربية ـ

«إنها مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك»!

ومركبا للإسلام كدعامة فكرية للنقطة الإسلامية والمشروع النهضوي الإسلامي؛ لأنه دين الوسطية الجامعة. فقال:

«لقد ظهر الإسلام، لا روحيا مجردًا، ولا جسديًّا جامدا، بل إنسانيا وسطًا بين ذلك، أخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوافر لغيره؛ ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية.

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٣١، ١٤٠، ١٧٣، ١٩٧ ـ ١٩٩ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

لقد جاء الإسلام: كمالاً للشخص، وألفة في البيت، ونظاماً للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه»

ثم تحدث الإمام محمد عبده عن الإسلام كسبيل ممهد للتقدم والنهوض والإصلاح، فقال:

«إن أهل مصر قوم أذكياء.. يغلب عليهم لين الطباع، واشتداد القابلية للتأثر لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية، وهي: أن البذرة لا تنبت في أرض؛ إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على الباذر.

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعاً فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] إلى اليوم. فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فساداً ـ وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به. فلم العدول عنه إلى غيره؟!»

* * *

هكذا تم التأسيس وحدث الاختيار وأعلن الانحياز إلى خيار «الإصلاح بالإسلام» كمحتوى فكري لحركة الجامعة الإسلامية.

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٣ ص ١٠٩، ٢٣١

[illegible] الأولويات بين ميادين الإصلاح.. إصلاح الأصول قبل الفروع، والبدء بالتربية وإصلاح مناهج الفكر، [illegible] الإسلامي [illegible] الأمة على [illegible] على فروع [illegible]

وبعبارة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٥م]:

«فإن السياسة لباب وقشور، وإن سياسة التربية هي الأصل لتربية السياسة - التي هي الفروع - والأصول مقدمة على الفروع. ولباب السياسة، بمعناها العام، عند جميع العقلاء، هو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة؛ إلا بتثبيت مقوماتها من: جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة. فوجود تلك المقومات شرط لوجودها، وإذا انعدم الشرط انعدم المشروط، ثم يفيض على الأمة من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يُرد بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدت «وطنا».»[1]

فالأمل في الإصلاح والنهوض إنما يُعلق على الأمة، قبل الملوك والأمراء.

وإعلانا عن هذا المنهاج في الإصلاح.. قال الإمام محمد عبده:

«لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأمر الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه.. لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل.

---

[1] [illegible] الإمام محمد البشير الإبراهيمي] ج ٢ ص [illegible] [illegible] سنة ١٩٧٧م.

كل هذا أعده أمرا واحدا. وقد خالفت فيه رأى الفئتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم.

أما الأمر الثاني، فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير.."(1)

* * *

هكذا [illegible] فكر حركة الجامعة الإسلامية، [illegible] الجامعة الإسلامية [illegible] الإصلاح بالإسلام وتقديم الأصول على الفروع - في أولويات الإصلاح - والسلفية التجديدية، التي تعود - في الدين - إلى المنابع الجوهر والنقية - لتجدد دنيا المسلمين بهذا الدين المتجدد أبدا.. والذي غدا التجديد فيه سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس مجرد حق من حقوق الفكر والمفكرين.

وعلى [illegible] [١٣١٥ هـ ١٨٩٨ م - ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م [illegible]] [illegible]

* * *

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣١٨.

ـ ٣ ـ

تصاعد التحدي.. وعموم البلوى

في أواخر القرن العشرين حذر الإمام محمد عبده من العواقب الوخيمة لصراع «العرب» مع «الأتراك»، لأن «هذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام.. ودول أوروبية واقفة لهما بالمرصاد.. فإذا وهنت قوتهما في الصراع، وثبتت دول أوروبية، فاستولوا على الفريقين، أو على أضعفهما.. فتكون العاقبة إضعاف الإسلام، وقطع الطريق على حياته..»[1].

وبعد خمسة عشر عاما من هذا «التحذير ـ النبوءة» وقع المحظور.. وبدأ عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الإسلام..

* فالشريف حسين بن علي [١٢٧٢ ـ ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٦ ـ ١٩٣١م] أمير مكة ـ تمرد على الدولة العثمانية [١٣٣٤هـ/ سنة ١٩١٦م] استجابة لعوامل داخلية، وموقوعا ـ في الأساس ـ بإغراءات إنجليزية!.. ففُتحت في جدار دولة الإسلام الكبرى الثغرة التي أفضت إلى تنفيذ الغرب لمعاهدة «سايكس ـ بيكو» السرية ـ التي عقدتها إنجلترا وفرنسا [سنة ١٣٣٤هـ/ سنة ١٩١٦م] لتقسيم ولايات الدولة العثمانية بين أقطاب التحالف الاستعماري الغربي.. وتوعد «بلفور» [١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م] بإقامة الكيان الصهيوني، قاعدة استعمارية غربية، على أرض فلسطين.

وعقب ذلك، احتل الفرنسيون الشام، وقال قائدهم «جورو» [١٨٦٧ ـ ١٩٤٦م] أمام قبر صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م] ـ بدمشق: «ها نحن

(١) المصدر السابق، جـ١، ص٧٣٥

قد عبد صلاح بن [illegible] وختم الإخبار فسطنطينية وعلق وقار فندهم السنوسي [١٨٦١ ـ ١٩٣٦م] عبده ودخل بقدس السوء بتهيب خوف الصلة!!..

* وفي ٢٢ رجب سنة ١٣٤٢هـ ٣ مارس سنة ٩٢٤ م لغت الخلافة الإسلامية وتولى حزب جمعية أسعفاء عبد المجيد الثاني [١٢٨٦ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٦٩ ـ ١٩٤٤م]، فرد «برمر» وخصم «أوغندا» الذي حاول تشكيل وحدة حزبية على وحدة الأمة وتكامل دار الإسلام، والذي أقيمت عليه الأمة، واعتصمت به منذ ظهور الإسلام!..

وبدأ تعاون عدة بعرب الاستعماري تاريخ لهذا «برمر» وهذا «أوغندا» ولأفراح التي أقامها المصيبون وتصيدها بها الخبث، يستصغون تقدير وقعه على الإسلاميين وعلى عموم المسلمين، يتهمون معنى لرثاء الذي أقامه شاعر أحمد شوقي [١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ / ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م] عندما قال.

صجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك، وسواحل

الهند والهة ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل، والعراق، وفارس ... أمحا من الأرض خلافة مضاء؟

تالله خان، خيره ممنوحه ... قسمت نعيم حريره وخراج

برعاية الأعداء حول فلادة ... وتصور الأعداء حول وشاح

وسلافة فصمت عرى نسبها ... كانت تزعزعها الرياح لراح

نصبت صفوف المسلمين، وحطموا ... في كل خطوة جمعة ونواح

تبكي الصلاة، وليت قبلة عزها ... بالشرع، عرسة القصاء، ونواح

فمتى معين بكل أرض دعوة ... يدعو إلى الكعبات، أو لسحاح

ومتى تهدى بكل أرض قبلة ... فمها يباع الدين بيع سماح

تفنى على ذهب بعز وسلطة ... وهوى النفوس، وحقدها المسحاح[1]

[1] [illegible] [illegible] المجلد الأول ج ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٩ طبعة دار الكتاب العربي [illegible] ح

... في لا شهد حتى حمت "سوء" ... شعراء ... أصوب ... في
طول بلاد الإسلامية وعرضها .

* وفي رمضان سنة ٣٤٣ هـ ... سنة ٩٢٥ م ... شيخ علي عبد ... ش
[١٣٥٠ - ٣٨٦ هـ / ٨٨١ - ١٩٦٦م] كتابه [الإسلام وأصول الحكم] ... فكان أول
كتاب يكتبه مسلم ... شيخ الأزهر ... في نصف قرن ... على ... عن فيه ...
الإسلام ... دينه ... وخلافة ... كانت ... وعلى ... يحيط
سلطة قهر ... وأنه لا علاقة له بالإسلام!

... وقع هذا الكتاب على المسلمين وقع ... عنيفة ... في ... معركة
لعلها أكبر معارك الشرق الفكرية في القرن العشرين!

* وفي ذي القعدة سنة ١٣٤٣هـ / يونيه سنة ١٩٢٥م عزل الإنجليز ... حسين
... في ... وعين ... في حزيران "يونيه" ... لمجلس ... عقد ... "المجلس
... وعين" ... سعادتهما على ... الإسلام ... مجلس ... وكان ... من
المسلمين إسلاميين كانوا أو قوميين ... كل شيء.

* وفي سنة ٣٤٤ هـ / سنة ٩٢٦ م ... كتب ... حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ /
١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] كتابه [في الشعر الجاهلي]، ثم سحبه ... عنه ... "شك
... في ... سكت في "الشعر الجاهلي" ... وكان ... شعر الجاهلي" ...
حين شكك في عقيدة ... من ... قصة حسن ... وحتى حجارة ...
وإقامته ... مع ابنه إسماعيل - عليهما السلام - قواعد البيت الحرام.

وكان هذا الكتاب - بعد كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - ... عمل فكري ... في
شيخ الأزهر ... مثل ... الهجوم ... "تعريب" ... مجلة ... و ... "مجلة ..."
بمحاضرة ... عربية ... شاعر ... مسلم.

... حدث ... هو ... خلال ... الأرض ... ذهب ... حدث ... في
... المسلم ... وبدأ ... صوت "التعريب" ... على ... من ... الأمة ... شيء
... خلاص ... تحقق ... غير ... مشروع ... عربي ... بحجة ... شره ... بحجة
... ما ... به ... وكان ... يحمله ... من ...

[illegible] المشروع الغربي؛ لأنه [illegible]

[illegible] العقل الغربي [illegible]

[illegible] والإسلام [illegible]

[illegible] الحكم [illegible]

والإسلام [illegible]

[illegible] حكومة [illegible]

[illegible] فقط عند الله![2] . . وللمؤمنين أن يؤمنوا

[illegible]![3]

[illegible] العربية هي لغة [illegible] لأنها لغة [illegible] والأخلاف [illegible] فلا

[illegible]

[illegible][4] [illegible]

أوروبا في الحكم والإدارة والتشريع![5].

نعم . . حدث هذا الزلزال . . وهذا الاحتراق للثوابت والعقائد والمقومات . .

[illegible] في تاريخ الإسلام

[illegible] في هذا الاحتراق [illegible] غير مسبوق في تاريخ [illegible] الإسلام

[illegible]

[illegible]

[illegible] ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

لحافظون﴾ [الحجر: ٩] [illegible]

تجديد دين الإسلام!.

---

(١) د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] جـ١ ص ٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

(٢) علي عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨ ـ ٨٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

(٣) د. طه حسين [في الشعر الجاهلي] ص ٨٠، ٨١ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

(٤) [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.

(٥) [مستقبل الثقافة في مصر] جـ١ ص ٣٦، ٣٧.

ـ ٤ ـ

الجامعة الإسلامية فى طور جديد

نعم.. حدثت هذه الأحداث الجسام، التى هزت كيان الأمة، [illegible] الإسلاميين [illegible] فلقد كان الإسلام، على مر تاريخ الأمة، هو [illegible] عندما تتهدد [illegible] وجودها وهويتها [illegible] كانت صيحة «و إسلاماه» هى كلمة السر التى تنادى بها الأمة، وتدعى إليها [illegible] خاصتها وجماهيرها [illegible] كان هذا هو قانون «التحدى» و«التصدى» على مر تاريخ الإسلام والمسلمين [illegible] وقد عاد [illegible] عندما عمت [illegible] الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٦ هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨ م] وفى أعقابها

* ففى سنة ١٣٤٦هـ سنة / ١٩٢٧م - بعد فشل المؤتمرات الحكومية [illegible] الحكومية التى عقدت لإنقاذ الخلافة [illegible] جمع صفوة علماء الإسلام ومفكريه [illegible] جمعية «لشبان المسلمين»..

* وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقى قد تحدث فى رثائه للخلافة عن بكاء ممالك الإسلام ونواحى ديارها على إسقاطها

.. وبكت عليك ممالك ونواح

فلقد كان حسن [illegible] مع ثلاثة من رفاقه [illegible] يكون بكاء حقيقيًا، على الخلافة الإسلامية [illegible] وعلى [illegible] الأمة [illegible] مع معاناة التفكير [illegible] فقد بحث عمله لإنقاذ الأمة من هذا المنحدر الخطير الذى سقطت فيه.

وعن هذه الحال نفسه التي عاشها نفسي ـ ابن العشرين عامًا ـ يتحدث عن كليه دار العلوم ـ حديثًا فقال:

«.. وليس يعلم إلا الله كم من الليالي كنت أقضيها مستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، وتحلل العلل والأدواء، وتفكر في العلاج وحسم الداء، ويمضني بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء! .. وكم كنت تعجب إذ ترى أنفسنا في مثل هذه المشعلة النفسانية العميقة، والخليون هاجعون يتسكعون بين الملاهي ويترددون على أندية الفساد والإتلاف.»

ثم ينتقل للإشارة إلى «تيار التجديد» الذي يحمده هو ورفاقه ثلاثة في «اللجنة الثلاثية» ـ فيقول:

«لقد ألهبت هذه الحوادث نفسي، وأهاجت كوامن الشجن في قلبي، وفتحت بصري إلى وجوب الجد والعمل وسلوك طريق التكوين بعد التبيين، والتأسيس بعد التدريس.»

* هكذا كانت سنة ١٣٤٧هـ سنة ١٩٢٨م هي سنة «نهضة التجديد»، التي مثلت «تطور الوعي» الإخواني الشيخ حسن البنا في سياق تطور مشروع الإسلامي بنهضته الخاصة به وتجديده الذي يستمد من الإسلام «النهضة التجديدية» التي أدرك فيها هذا الرجل بنفسه وبتاريخ أمته عدة تحديات وتعرف لاختراق وعموه بتوى، بل تعصب لأمته بنقصه من إطار نهضته و نجدته التي كانت عنده مدار [تعروه وثاقي] وحتى [شيء مقدس] هي الدائرة التي تشترك فيها «الأمة» مع «النخبة»، وفي مستوى أعلى تشترك فيه «الجماهير» مع «الصفوة» في مواجهة التحديات..

فالعروبة الاستعمارية والفكرية لم تعد «غنى الأوربي» كما كان الحال في عصر الأفغاني وقد أصبح في دائرة معادة لإسلامه و تحتفظ بوجوده بعد أن تلقى الذي كان حيًا في عصر الأفغاني ومحمد عبده، وقد أصبح شأن الحضارة الغربية فعيرت ـ بدًا ـ موضع التحديات، الأمر الذي فرض إعادة النظر للأولويات

[illegible] دار الشهاب بدون تاريخ

[illegible] من عمر الجماعة الإسلامية [illegible] مشروع نهضة إسلامية [illegible] "[illegible]" [illegible] المشروع [illegible] تحديات [illegible] والآخر [illegible] كان لا بد من [illegible] "[illegible]" [illegible] "[illegible]" فكان الإمام [illegible] حسن البنا [illegible] في سياق الإحياء الإسلامي [illegible] مشروع حضاري [illegible] "المنهج" [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] حتى [illegible] مشروع [illegible] الجماهير.

وأصبحت الأسماء "التنظيم" [illegible] "[illegible]" الصحوة [illegible] الأمر كما كان [illegible] في [illegible] جمعية العروة الوثقى] في [illegible] الجماهير، كما تمثلت في [جماعة الإخوان المسلمين].

[illegible] "[illegible]" حسن البنا [illegible] "التطور النوعي" [illegible] "الإضافة الكمية" [illegible] في سياق [illegible] حركة الإحياء الإسلامي الحديث [illegible] "الصبغة" المميزة في ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة..

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

من معالم التجديد فى مشروعه الحضارى

إذا كان المقام لا يتسع لحديث مفصل عن معالم المشروع التجديدى للنهضة الحضارية الإسلامية، كما صاغه الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا حركة الصحوة الإسلامية المعاصرة، ممثلة فى [جماعة الإخوان المسلمين] فإننا نقف عند إشارات إلى عناوين أمهات المسائل فى هذا المشروع.. وعلى سبيل المثال

أ ـ التميز عن المؤسسات الدينية التقليدية

فلم يكن الإسلام عند [الإخوان المسلمين] كحركة إحياء إسلامى، كما هو عند "المؤسسات الدينية التقليدية"، تلك التى كانت لا تزال ـ فى جملتها ـ واقفة عند "السنن" و"الحواشى" و"التعليقات" و"الاعتراضات" التى أفرزها عصر التراجع الحضارى المملوكى ـ العثمانى ـ والتى أقامت شبه قطيعة معرفية مع عصر الازدهار والإبداع فى تاريخنا الحضارى.. وتحدث موقفا غير ودى من إبداعات بعض الحديث فى التجديد والإحياء

لم يكن الإسلام، عند [الإخوان المسلمين]، هو ذلك الذى وقفت عنده المؤسسات التقليدية فى التعليم الدينى.. وإنما تقدم [الإخوان] خطوات فتجاوزوا فهم هذه المؤسسات للإسلام.. ومن هنا كانوا نجوا فضلا عن فضائل تيار التجديد

* ولم يكن الإسلام ـ عند حسن البنا ـ والإخوان المسلمين ـ وقوفا عند العمل وحده فهو دين.. مطلوب فيما يعقل نسبى الإدراك، ككل ملكات الإنسان

ولا وقوفاً عن «النقل» وحده، فقلة استحالته وتعالى - مع النقل - هدايات أخرى وهبها وسخرها للإنسان.

ولا وقوفاً عند التجارب والحواس وحدها.. وإلا كان الناس «خسراء لا قلوب لهم»!.. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، لا يتجاوزون حدوده.

ولا وقوفاً عند القلب والوجدان وحدهما.. وإلا كانت «الثمرة» «درويش» لا عقل لديهم يضبط خطرات القلوب!.

وإنما كان الإسلام الإحيائي - عند حسن البنا - هو ذلك الدين الشامل، الذي يرجع - في مصادر المعرفة - إلى كتابي الوحي والكون - كتاب الله المنظور، وكتابه المنظور..

ولذلك عين حسن البنا أن جماعته هي «دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب»

وأنها - بذلك - جامعة لأصول التجديد، ومعالمه، ومستحسنة لملكات الإنسان، وملبية لشرائح الأمة ومكوناتها، وأيضاً مراعية لمستوى الجماهير.. فهي

«دعوة سلفية.. وطريقة سنية.. وحقيقة صوفية.. وهيئة سياسية.. وجماعة رياضية.. ورابطة علمية ثقافية.. وشركة اقتصادية.. وفكرة اجتماعية..»[2].

* * *

ب - الجمع بين «النظر العقلي» و«النظر الشرعي»

وفي مواجهة الاستقطاب الحاد بين الغلاة

الغلاة الذين تحدقوا أمام ظواهر النصوص.

والغلاة الذين تهوّوا براهين العقول، ونقلوها من «نسبية» إلى «الإطلاق».. وقف الأستاذ البنا - بتجديد الإسلامي - عند وسطية الإسلام، فقطع باستحالة خلاف

---

(١) [illegible] في طور جديد - ص ٢٢

(٢) المصدر السابق - رسالة المؤتمر الخامس - ص ١٥٤، ١٥٥

و لصدم واسدفص بين «نظر نعقلي» و«نظر لشرعي» في لأمور «قطعيه» ورأى أن بعض مجالات لمعرفه محصص بو حد من هذين نظرين لا حر كالإلهيات ـ مثلا.

«فذات الله ـ تبارك وتعالى ـ أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية، أو تدركها الأفكار الإنسانية؛ لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة، محصورة القدرة.. فالعقل البشرى قاصر عن إدراك حقائق الأشياء [1] في مثل هذه الميادين، ولذلك فإن «الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها، وعرفها قلة علمها، وندبها إلى الاستزادة من معارفها، فقال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء. ٨٥] ـ وقال تعالى: ﴿وقل رب زدني علما﴾ [طه. ١١٤]

و د كانت «قطعية مبحث» هي لتي تحدد نوع نظر فيه، وهو لا ولى أن يكون «عقلي» أو «شرعي»، فإن مجالاتها قد تكون في «ظاهر»، وقسم هو «خفي»، ثم وقع فيه أحدهم مرتبة «نفس» «فقد يشترك كل من نظر شرعي و نظر عقلي» في لا يدخر في دائره لأخر، ولكنهما قد يختلفان في قطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي؛ فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت بالعقل أو ينهار..»[2]

وقد كان لإسلام قد فصل «بين نظر العقل» و«نظر الوحي» في كل الميادين، ودعا إلى حوار بين نصوصه وبين نظر بشري أيا كان مجاله «لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول[3] بل جاء يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء. «والحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدها، فهو أحق الناس بها»[4]. رواه الترمذي وابن ماجه.

وهذا موقف الإسلامي يستفيد من نظر العقلي والعلمي، ويتابع كل مستجد من مجالات مبحث وصنائع الأشياء موضوع نظر فمن هذه مجالات، على سبيل

---

(١) محمد عبده، رسالة التوحيد ص ٢٩٤

(٢) مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم ص ٢٧١

(٣) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا ص ٢٩٠

(٤) محمد محمد أبو شهبة، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ص ٢٧٠

لسيادة الأوربي فيه بشعور العصبي، وموقف يكون سيادة الأوربي فيه بشعور شرعي ـ وهناك ميادين تكون سيادة فيها بشعور من التجربة ... وحين يكون سيادة الأوربي فيها للعلم والوجدان..

هذا الموقف الإسلامي المتميز، هو الذي يرفض حرفية، ميكانيكية بشعور كما يرفض المادية، ويكره العلم بغير، ولا يعلو على انسانهم ـ وإن لم يناقض العقل ـ ويرفض هذا الموقف الإسلامي ـ "الإنسان الأسطوري" الذي يرفضه "الفلاسفة الموسيقية الأوروبية" التي تكرت بوحي، ووقف عند بشعور العلم المجرد وحده، وهم بشهادة بعض علمائهم ... وكان تاريخ "بشعور" الذي يشهد على ذلك هو

١ ـ عصور الخرافة والسذاجة والتسليم المطلق بالغيب

٢ ـ وعصور الجمود والمادية والكفر بهذا الغيب المجهول.

وكل من هذين العصرين من نوع التفكير خطأ صريح، وانحراف خشن، وجهالة عن الإنسان لا يحتمل الالتباس، فلقد جاء الإسلام الحنيف يفصل القضية فصلاً حقًا فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل.. إن المجتمع الإنساني لن يصلحه إلا اعتقاد روحي يبعث في النفوس مراقبة الله. في الوقت الذي يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع، وتكتشف، وتسخر هذه المادة الصماء، وتنتفع بما في الوجود من خيرات وميرات. فإلى هذا اللون من التفكير، الذي يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية، ندعو الناس»[1]

هكذا في أسلوب بسيط، فاصلاً ومفصلاً نقول في هذا المنهج الإسلامي الوسطي، الرافض لكل ألوان الغلو في هذا الميدان.

* * *

ح ـ مرونة الشريعة.. والانفتاح على الحكمة الإنسانية

وحتى يكون الإسلام صالحًا حقًا لكل زمان ومكان، جاءه الإسلام ـ في معاملات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ـ فوقف شريعته التي هي وضع إلهي

(١) المصدر السابق، رسالته دعوت في طور جديد، ص ١١٠ ـ ١١٢

ثابت عند فقهاء التشريع ... [illegible] ... وركزت على «القواعد» و«النظريات» و«الكليات» التي كانت مفتوحا أمام «الاجتهاد» ليحكم بهذه الكليات والقواعد والنظريات ومفتوحا كذلك أمام المجتهدين في وضع هذه الاجتهادات في المدرسة والعصر. وكان هذا المنهج الإسلامي الذي يواكب كل المستجدات والحوادث الجديدة، والذي تنمي فيه هذه الحوادث الجديدة الإسلامية دون الرجوع إلى أصل فروع وفق منهج وأصول وتكييف ثابت لا يتغير فيها ولا تبديل.

وعلى هذا الموقف الإسلامي من الحوادث والنوازل المتجددة، كتب الأستاذ البنا فقال:

«يعتقد الإخوان المسلمون أن الإسلام، كدين عام، انتظم كل شئون الحياة، في كل الشعوب والأمم، لكل الأعصر والأزمان. جاء أكمل وأسمى من أن يتعرض لجزئيات هذه الحياة، وخصوصا في الأمور الدنيوية البحتة؛ فهو إنما يضع القواعد الكلية في كل شأن من هذه الشئون، ويرشد الناس إلى الطرق العلمية للتطبيق عليها والسير في حدودها. لقد جاء الإسلام للناس فكرة سامية تحدد الأهداف العليا، وتضع القواعد الأساسية، وتتناول المسائل الكلية، ولا تتورط في الجزئيات، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والنظريات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشيء منها... وقد فرق الفقهاء، في النظرة التشريعية، بين ما هو من قواعد أحكام العبادات، وشئون الحياة الاجتماعية، فأفسح للنظر والاجتهاد في الثانية ما ليس في الأولى حتى لا يكون على الناس حرج ولا مشقة ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: ١٨٥] وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. فليست في الدنيا شريعة تقبل المرونة والسلاسة واسعة كشريعة الإسلام... ولذلك كان الإسلام هو شريعة كل زمان ومكان...»[٣].

---

(١) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس، ص ٥٥

(٢) المصدر السابق، رسالة نحو الإنارة في صوت نظام الإسلام، ص ٢٩٨ - ٢٠٠

(٣) المصدر السابق، رسالة دعوتنا في طور جديد، ص ١٢٠

وهذا الجديد الذي يفتح له الشريعة صدرها ويفسح أمامه الطريق، كما يكون إبداعاً ذاتياً للأمة الإسلامية، والعقل المسلم، يكون - أيضاً - حكمة أي صوت عقلي يلتقطها العقل المسلم أنى وجدها، ويصرف النظر عن المواطن الخاصة به التي أبدعتها.

وعن هذه الحقيقة من حقائق الانفتاح الإسلامي على الآخرين، والتفاعل مع إبداعاتهم، يقول الأستاذ البنا:

«إن طبيعة الإسلام التي تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب لا تأبى أبداً الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة[1]. إنه يدعو إلى أن نأخذ من كل شيء أحسنه، وينادي بأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ولا يمنع أن تقتبس الأمة الخير من أي مكان، فليس هناك ما يمنع من أن ننقل كل ما هو نافع ومفيد عن غيرنا، ونطبقه وفق قواعد ديننا ونظام حياتنا وحاجات شعبنا.»[2]

***

د - إسلامية النظام النيابي الدستوري

ولقد طبق الأستاذ البنا هذا المنهاج - منهاج انفتاح الإسلام - وخاصة في الشئون الدنيوية على مختلف الثقافات والحضارات، طبق هذا المنهاج على الموقف الإسلامي من النظام النيابي والدستوري الذي تبلور في تجارب الديمقراطيات الغربية، فقال:

«إنه ليس في قواعد هذا النظام النيابي - الذي نقلناه عن أوروبا - ما يتنافى مع القواعد التي وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامي ولا غريباً عنه[3]. وإن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري - [التي قام عليها الدستور المصري الموضوع سنة ١٣٤١هـ / سنة ١٩٢٣م] - التي تتلخص في

---

(١) المصدر السابق: رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٥٥

(٢) المصدر السابق: رسالة دعوتنا في طور جديد، ص ١٢١، ٢٢

(٣) المصدر السابق: رسالة نحو النور، ص ٦٨

* المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها

* وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة.

* وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب، ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال

* وبيان حدود كل سلطة من السلطات

هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم. ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظاما آخر. فنحن نسلم بالمبادئ الأساسية للحكم الدستوري باعتبارها متفقة؛ بل مستمدة من نظام الإسلام..»[1].

فالمبادئ والفلسفات والمقاصد التي جاء بها الإسلام في سياسة الأمة والدولة يمكن أن تحققها «النظم المدنية» و«التجارب الإنسانية» التي هي [illegible] إسلامي [illegible] إسلامي [illegible] في القبول والرفض، هو مدى تحقيق هذه «النظم» لمقاصد الإسلام في إشراك الأمة في سلطة صنع القرارات [illegible] وفي تحقيق العدل بين الناس.

* * *

هـ - رفض التغريب.. ونقد الحضارة المادية الغربية

وفي مواجهة «التغريب» [illegible] خرق عقل الأمة، [illegible] يقف مشروع الأستاذ البنا ليقول:

«إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معا في أرض الإسلام نفسه، في حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري

وكما كان لذلك العدوان العسكري أثره في تنبيه المشاعر القومية، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره كذلك في انتعاش الفكرة الإسلامية[2]. إن مدنية الغرب، التي رهت

---

(1) [illegible] المؤتمر الخامس ص ٧٣، ١٧٣

(2) المصدر السابق: رسالة المؤتمر الخامس ص ١٥٠، ٥١

بجمالها العلمي حينا من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تقلس الآن وتنتحر! . فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات، وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان.. وقد حار الناس في علاج شأنها، وضلوا السبيل!

ونحن نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا، يعتمد على أساس الإسلام الحنيف، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب وتجاهاته في كل شيء. نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد..»

* * *

ولقد كان رفض «التغريب» في مشروع الأستاذ البنا رفضا «للتقليد والتبعية» ولم يكن رفضا «للتفاعل - الصحي - بين الحضارات» ولا دعوة «للعزلة والانغلاق والاكتفاء الذاتي» فهو الذي يقول عن حضارتنا الإسلامية وأمتنا الإسلامية:

«لقد اتصلت بغيرها من الأمم، ونقلت كثيراً من الحضارات؛ ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا، فعربتها أو كادت، واستطاعت أن تصنعها، وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيها من روعة وحيوية وجمال، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعًا، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية»[2].

وهكذا كان الموقف [illegible] الحضارات الأخرى - [illegible] «الانغلاق والعزلة» و[illegible] «التبعية» و«التقليد» [illegible] «المشترك الإنساني العام» وما بين «الخصوصيات [illegible] والثقافية» [illegible] لا [illegible] ولا يفرط في روحه الحضارية المتميزة عن الآخرين

[illegible]

[illegible]

و ـ التمييز بين المقدس المعصوم.. وبين التراث الفكري

وفي هذا الجهد "التخلص الموروث" [illegible] "التخلص" [illegible] على هذا الموروث، ذلك الأساس الذي "يجدد" [illegible] وحدة في تصوره ووضوح في رؤيته، وهي [illegible] من "الدعوات التجديدية حية الأمم والشعوب..."[1]

وهذا [illegible] في منظوره لعقدة [illegible] بين "الدين الثابت" و"الفكر المتغير" و"الممارسات البشرية" [illegible] يعني تطبيق منهج [illegible] الإسلامي في العودة إلى المنابع الجوهرية [illegible] معصومة [illegible] صحيح [illegible] من خلال [illegible] والسنة النبوي [illegible] هذا الفهم [illegible] "الفكر الإسلامي" [illegible] التراث [illegible] وحضارته [illegible] هي كل [illegible] وتخصيصه، [illegible] وتقييمه [illegible] دون [illegible] ولا تعصب [illegible] الالتزام [illegible] فالتجديد [illegible] هو العودة [illegible] المنبع [illegible] مع [illegible] الواقع المعاش [illegible] البحث عن [illegible] علاقات [illegible] هذا الواقع المعاش [illegible] المتجدد في هذا المنبع [illegible] بمستلزمات [illegible] هذا [illegible] المتغير [illegible] والحضاري [illegible] وعلى هذا [illegible] منهج التجديد [illegible] الأساسية...[2]

«إن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وسنة رسوله ﷺ وقد كثيراً من الآراء والعلوم ـ التي نصنت بالإسلام وتلونت بلونه ـ تحمل لون العصور التي أوجدتها، والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تُستقى النظم الإسلامية، التي تُحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي، معين سهولة الأولى، وأن يفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النورية؛ حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه. والإسلام دين البشرية جمعاء»[3]

فهذا التجديد ـ والتجديد يتحرر من أسر العصور السابقة، ويتحرر المعاصر من قيود العصور الماضية، بل ويتحرر النصوص المؤسسة ـ القرآن والسنة ـ من حجب النصوص المشروحة والاجتهادات التي أثيرت حولها، فتعود الدعوة الأولى لهذه النصوص معصومة [illegible] وتلك التحرر [illegible]

(١) مصدر السابق، رسالة دعوتنا في طور جديد، ص ١٢٢

(٢) مصدر السابق، رسالة الفكر الخامس، ص ١٥٤، ١٥٥

معاصر ومعيش الإجابات على علامات استفهامه [illegible] يعيش هذا الواقع [illegible] في ضوء كليات الكتاب والسنة، وانطلاقا منها، فتأتي الإجابات معاصرة حقًّا.. وسلفية أيضًا!

ونحن عندما نتأمل هذا المنهج في التجديد الإسلامي، عند الأستاذ [illegible] التي أوردناها [illegible] نتذكر على الفور صياغة الأستاذ الإمام الشيخ محمد [illegible] المنهج، [illegible] «تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى..»[1].

وهذا المنهج يتحول السلفية إلى تحرير وتجديد، لا إلى جمود وتقليد، كما فهمها آخرون.

وهنا أيضًا يتميز التجديد الإسلامي عن «الحداثة» [illegible] فضلا عن تميزه عن الجمود والتقليد..

فالجمود والتقليد قد حوّلا «التراث» إلى مرجعية كادت أن تحجب المنابع الجوهرية والنقية للإسلام، حتى غدت حجابًا بين العصر وبين البلاغ القرآني [illegible] البلاغ القرآني [illegible] وكادت المذهبية والمذاهب أن تحجب مقلديها عن منهج النبوة.

[illegible] «الحداثة» [illegible] مع التراث [illegible] التراث، [illegible] على وجه الخصوص [illegible] فلا «التراث» أنقى، ولا هي رجعت إلى «المنابع» الأولى.

لكن التجديد الإسلامي عند الأستاذ [illegible] في حضارتنا [illegible] دعوة للعودة إلى المنابع الجوهرية والنقية، المقدسة [illegible] والمعصومة [illegible] «المعين الصافي، معين السهولة الأولى» [illegible] من كنوز التراث الفكري، بعد عرضه على معايير القرآن [illegible] حتى تجيب على علامات استفهامه هو، [illegible]

[illegible]

ز ـ النقد لتاريخ الدولة.. ولمناهج الفكر في التاريخ الإسلامي

وانطلاقاً من هذه النزعة التجديدية التي هي ثورة على الجمود والتقليد، وقف الإمام هذا الموقف النقدي، وهو يُقيِّم تاريخ بدون للإسلام في تاريخه الحضاري. فكان حديثه عن العوامل التي أدت إلى تحلل كيانها، ومن ثم حدوث الفزع لدى أحد يتمدد فيه نموذج الغربي للدولة القومية الحديثة

«فأهم عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية» ـ تاريخياً ـ هي:

أ ـ الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة واتجاهاتها.

ب ـ والخلافات الدينية والمذهبية..

جـ ـ والانغماس في ألوان الترف والنعيم..

د ـ انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن، لصعوبة إدراكهم لمعانيه..

هـ ـ وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة.

و ـ وغرور الحكام بسلطانهم، والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة.

ز ـ والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع..»[1]

حتى يستطيع أن يقول: «لا أعتقد أنه قد أخر في هذه العوامل جميعاً، بل فقط لفقد العنصر النظم الإسلامية في تاريخ الحضاري، وهذا يصف منهج التفكير لدى كثير من مدارسنا المتخلفة في تراثنا الفكري: «تمثل لي شعب يعاني الجمود فيثور بطبيعته وعوامل تعيب عن مهمته الأصيلة والأدبية، هي الإبداع في عالم الشهادة، فيتحير بين هذه العوامل في التقدم والتهوض

(١) محمد عبد الله دراز: محمد خلق ورسالة بين الأمس واليوم ص ١٣١، ١٣٢.

وبهذا [illegible] الأستاذ [illegible] الصحوة الإسلامية [illegible] الحكم الإسلامية في تاريخ الإسلام..

* * *

ح ـ الاستقلال الحضاري الشامل.. وسيادة الأمة

وفي [illegible] الذين [illegible] من [illegible] «الاستقلال» [illegible] الاستقلال [illegible] «[illegible]» [illegible] الأستاذ [illegible] الاستقلال [illegible] «سيادة الأمة».

«لأن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد، ولو كلفهم ذلك الدم والمال [illegible] والاستقلال الاقتصادي للأمة ـ وليس لقطر واحد من أقطارها ـ فالهدف هو تحقيق نظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد[2] والنقد، ذلك أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، وتتقدم من التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما[3]. والاستقلال الحضاري، الذي يعيد لأمة الإسلام وحضارته مكانة الإمامة للدنيا وموقع الشهود على العالمين. «فلقد كانت قيادة الدنيا، في وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها السنوات إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورث الغرب القيادة العالمية».

وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية، يظللها لواء الله وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوي المتين، فإذا الدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣].

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

به استقلال الحضارة «المتميزة» لا «المعلقة» ولا «التابعة» ... ث ... «الإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع، وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها، ولكنه يأبى ـ كل الإباء ـ أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين».

***

ط ـ تكامل دوائر الانتماء: الوطني.. والقومي.. والإسلامي.. والإنساني

وفي مواجهة المضمون العربي، يضع الأستاذ البنا ـ بكل من «الوطنية» و«القومية» ـ وبدون وجود تناقض أو تعارض، تحديداً يعضهما عند «الوطنية القطرية» وبعضها الآخر عند «القومية العنصرية». وفي هذا الجزء ـ كما في غيره ـ يوفق الأستاذ البنا بين الإسلام وبين الوطنية والقومية في مواجهة هذا المضمون. ويرى الأستاذ البنا أن المنهج الإسلامي الذي يؤلف بين جميع دوائر الانتماء الوطني والقومي والإسلامي والإنساني فيشكلها جميعاً في نسق واحد ... فيقول:

أ ـ أن «الإخوان المسلمين يحبون وطنهم، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى في سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار.

إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأساً أن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه في العمل على سواه

هذا من وجهة القومية الخاصة ـ [أي الوطنية]

ب ـ ثم هم، بعد ذلك، يؤيدون الوحدة العربية، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض.

لقد نشأ الإسلام الحنيف عربيّ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر «إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام»، وقد تحقق هذا المعنى حين

... رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ص ٩٨

دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم. فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.

وأحب أن أنبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرَّفها النبي ﷺ فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان».

ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته وعز سلطانه. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها. فالوحدة العربية هي الحقيقة الثانية في النهوض.

وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية.

جـ - بقي أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية..

والحق أن الإسلام، كما هو عقيدة وعبادة، هو وطن وجنسية، وأنه قد قضى على الفوارق الجنسية بين الناس، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠] والنبي ﷺ يقول: «المسلم أخو المسلم»، «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

ولذلك؛ فالإخوان المسلمون يعملون للجامعة الإسلامية، باعتبارها الشكل الكامل للوطن الإسلامي العام.

د - أما الخلافة الإسلامية؛ فإن الإخوان المسلمين يعتقدون أنها رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير في أمرها والاهتمام بشأنها.

والخلافة نشأ كثير من الأحكام في دين الله، ولهذا قدم الصحابة - رضوان الله عليهم - النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي ﷺ ودفنه، حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها.

والأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالاً للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حُوِّرت عن منهجها، ثم أُميت، إلى الآن.

والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم. وهم - مع هذا - يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لا بد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة؛ لا بد أن تسبقها خطوات:

١ - لا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها.

٢ - يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المحامع والمؤتمرات بين هذه البلاد.

٣ - يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية.

٤ - حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان عليه الإجماع على «الإمام» الذي هو واسطة العقد، ومجمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله في الأرض[١].

هذا ولي أن أقول، بعد هذا: إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله، فهم ينادون بالوحدة العالمية؛ لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه، ومعنى قول الله، تبارك وتعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وأنا في غنى، بعد هذا البيان، عن أن أقول: إنه لا تعارض بين هذه الوحدة بهذا الاعتبار، وبين كلامهم تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها[٢]. لقد وفق الإسلام بين شعور الوطنية الخاصة، وشعور الوطنية العامة.[٣]

فإذا أراد أقوام أن يتحدوا من المبادئ «بالقومية الخاصة - أي الوطنية - سلاحا يميت الشعور بما عداها؛ فالإخوان المسلمون ليسوا معهم. ولعل هذا هو الفارق بينا وبين كثير من الناس[٤].

و - أما مصر، فهي قطعة من أرض الإسلام، ورعيمة أمته[٥]. وفي المقدمة من دون

---

(١) [illegible] كتاب [illegible] من [illegible] [نظام الخلافة: هل هي ضرورية لعصمة المسلمين؟]، وهو محاضرة ألقيت سنة ١٩٢٦ م، ضمن [illegible] لا أستطيع [illegible] في [illegible] الخلافة للإمامة.

(٢) [illegible] ص ٤٥ - [illegible] سنة ١٩٧٧ م.

(٣) مجموعة رسائل الإمام الشهيد، رسالة نحو النور، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) الرسالة نفسها، ص ٥١ - بتصرف.

(٥) مجموعة الرسائل، رسالة إلى الشباب، ص ٨٨.

الإسلام وشعوبه ... ونحن نرجو أن تقوم في مصر دولة مسلمة، تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب، وتعمل لخيرهم، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته.. فالمصرية لها في دعوتنا مكانتها ومنزلتها وحقها في الكفاح والنضال.. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ولخير العالم كله..»[2].

هكذا صاغ الأستاذ البنا في هذه العبارات الدقيقة المحكمة، وبهذا الأسلوب العلمي، أعمق نظريات السياسة والاجتماع المعاصرة في تحديد وتكامل دوائر الانتماء: الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانية ـ مع الإشارة إلى دور مصر ـ الرائد والقائد ـ في تحقيق هذه الوحدة المنشودة لأمة الإسلام.

الأمر الذي يستوجب على كل مسلم سوي أن يكون وطنيا يحب وطنه ويعمل لخيره وازدهاره، وقوميا يهتم بقضايا أمته ويعمل لظهورها وازدهارها قوميا ـ وإسلاميا يعمل لتحقيق التكامل بين الوطنية والقومية والإسلامية وبين الوطنيات والقوميات والأممية. الأمر الذي يستوجب على سائر هؤلاء العلماء أن يتعلموا من هذا الذي كتبه الأستاذ البنا في هذا الموضوع..

فكل هذه الدوائر للانتماء هي درجات في سُلَّم الانتماء الواحد، يصعد عليها الإنسان المسلم ـ عقيدة أو حضارة ـ دونما تناقض.. وبعبارة الأستاذ البنا: «فكل منها تشد أزر الأخرى، وتحقق العناية بها، دونما تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار..»

***

ى ـ رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله.. محمد رسول الله

وفي مواجهة العلماء الذين لا يرون في المجتمعات الإسلامية، وفي عقائد مسلمين معاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية فيحكمون بها على أممها وعلى نظم وحكومات ومجتمعات... في مواجهة هؤلاء العلماء يقدم مشروع المحدث البنا للأستاذ البنا الموقف الإسلامي الأصيل والمتوازن

(١) المصدر السابق، رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ص ٩٩

(٢) المصدر السابق، رسالة دعوتنا في طور جديد ص ١١٢ ـ ١١٤

«فنحن لا نكفّر مسلما أقرّ بالشهدتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ـ رأى أو معصية ـ إلا إن أقرّ بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن، أو فسّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر[1].

ولقد اندمجت مصر بكُلّيتها في الإسلام بكُلّيته، عقيدته ولغته وحضارته، ودافعت عنه وذادت عن حياضه، وردت عنه عادية المعتدين. ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دقاقة في كثير من جوانب الحياة المصرية، فأسماؤها إسلامية، ولغتها عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله، ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام، وما يتصل بالإسلام»

والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التي وفدت إلينا من الحضارة الغربية، تلك الحضارة التي غزتنا غزواً قويا. فانحسر ظل الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية في كثير من شئونها الهامة، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية، ونصبغ معظمها بالصبغة الأوروبية، وحصرت سلطان الإسلام في حياتنا على القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية، وباعدت بينه وبينها مباعدة شديدة، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثانية متذبذبة أو متناقضة..»[2].

فالمعركة معركة تنشأ بين المجتمعات الإسلامية من الداخل، بين [illegible] وبين [illegible] الإسلام ومن روح هدايته والاحتكام إلى [illegible] شهوده، بين غزوات الحضارة الغربية. وليست معركة الإسلام مع مجتمعات بعيدة عن الإسلام وثورته إلى جاهلية جديدة، هي أشد ظلاما من الجاهلية الأولى. كما زعم بعض العلماء الذين انحرفوا عن منهج الإسلام الذي تنهد الأستاذ إلى.

***

ك ـ في العدل الاجتماعي، فقه الواقع.. وبرنامج الإصلاح

وفي عرض جهة نظر الأستاذ في الاجتماعية التي تتطلع إليها ـ من خلال كتبه

(١) المصدر السابق، رسالة التعاليم، ص ٢٧١

(٢) المصدر السابق، رسالة دعوتنا في طور جديد، ص ١٢٠، ١٢١

لاستعماري ... ومن قبل الاستعلال نصبي محمي قدم لأستاذ ... صفحة من ... وع صفحات العدالة الاجتماعية مطبقة على واقع المعاصر و لمعيش

فضلاً عن فلسفة الاستخلاف لإلهي للإنسان في ثروات ... وأعوان ... شريكة من عمله ... سعادته ... حشه ... وعلو شيوعه مصداقه بقطره لإنسان ... حداث لأستاذ ... سامي ... واقع لاجتماعي ... شعب وسيوله لأمة ... وقدم حقوق ... وسوسة و ... جماعة ... لاجتماعي ... شر صفات ... و لأسماء ... لاسلام

لقد جعل الهدف الاستعماري ثروات بلاد الفنان الشعبي سيد درويش [١٣٠٩ ـ ١٣٤٢هـ / ١٨٩٢ ـ ١٩٢٣م] يغني قائلاً:

يا مصر خيرك في إيد غيرك طلع برَّه

وجاء الإمام حسن ... ليضع يده على دور هذا الهدف الاستعماري في ... بلاد في "رسالة ... جماعة ... وفي دعوته لإقامة نظام ... لاجتماعي ... سلام ... فقال:

«إن الدعوة نشأت بالإسماعيلية. يُغذِّيها ويُنمِّيها ما ترى كل صباح ومساء من مظاهر الاحتلال الأجنبي والاستئثار الأوروبي بخير هذا البلد.

فهذه قناة السويس علة الداء وأصل البلاء.

وفي الغرب: المعسكر الإنجليزي بأدواته ومعداته.

وفي الشرق: المكتب العام لإدارة شركة القناة بأثاثه ورياشه ومرتباته.

والمصري غريب بين كل هذه الأجواء في بلده، محروم، وغيره ينعم بخير وطنه، ذليل، والأجنبي معتز بما يغتصبه من موارد رزقه.

كان هذا الشعور غذاءً ومدد لدعوة الإخوان، فبسطت رواقها في منطقة القناة، ثم تخطتها إلى ... المرافق العامة، وكل المدفع الهامة في جميع أنحاء البلاد، ودولاب التجارة والصناعة، والمنشآت الاقتصادية كلها في أيدي الأجانب المرابين ... تسيطر عليها أكثر من ٣٢٠ شركة أجنبية[٢]

(١) مصدر السابق ... رسالة المؤتمر الخامس ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢) المصدر السابق، رسالة إلى الأمة ... يوم ص ٤١

والثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدى الوطنيين إلى أيدى هؤلاء الأجانب. فالبلد ليس فقيرا». ولكن النهب الاقتصادى الأجنبى جعل «الأجانب الذين احتلوه أسعد حالا من أهله وبنيه»[1]

وهذا الغنى الذى يحققه الأجانب من نهب ثروات مصر المسلمة، يقابله فقر مدقع يطحن المواطنين المصريين.

«فأكثر من ٦٠٪ من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس.. والبلاد مهددة بمجاعة قاتلة، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية.. وهى من أكثر بلاد العالم المتمدن أمراضا وأوبئة وعاهات.. وأكثر من ٩٠٪ من الشعب المصرى مهدد بضعف البنية، وفقد الحواس، ومختلف العلل والأمراض.. وهى - [مصر] - ما زالت جاهلة، لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخُمْس.. والجرائم تتضاعف؛ حتى أن السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس!. ومصر هذه لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة فى الجيش كاملة المعدات!..

وكذلك حال كل بلد من بلدان العالم الإسلامى»[2]

وبعد فقه هذا الواقع الاقتصادى والاجتماعى، الذى تألق فيه الأستاذ البنا كإمام فى فقه الواقع كما هو حاله فى فقه الأحكام.. جد فى تنزيل الأحكام الإسلامية على هذا الواقع المعاصر والمعيش قدعا إلى:

أ - «نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قول الله تعالى ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾ [النساء: ٥]»[3]

ب - واستقلال نقدنا عن فلك الاستعمار.

جـ - و«تمصير الشركات، وإحلال رءوس الأموال الوطنية محل رءوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك».

---

(١) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى، ص ٢٣١

(٢) المصدر السابق: رسالة بين الأمس واليوم، ص ١٤١

(٣) المصدر السابق: رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن، ص ١٠٠

د ـ و«تخليص المرافق العامة ـ وهي أهم شيء للأمة ـ من يد غير أبنائها، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية، تبلع رءوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات، ولا يصيب الجمهور الوطني، ولا العامل الوطني منها؛ إلا البؤس والشقاء والحرمان».

هـ ـ و«العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى، المهملة، التي طال عليها الأمد! ويجب التحول إلى الصناعة فورا. فهذا التحول هو روح الإسلام! مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية. وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات، والاكتفاء بالضروريات، وأن يكون الكبار في ذلك قدوة للصغار».

و ـ ويجب تكامل التنمية بين بلاد الإسلام؛ ذلك «أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، وتنقذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما..».

«فالجهاد الاقتصادي يجب أن يتوجه إلى خدمة الثروة الإسلامية، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية. والقرش الإسلامي يجب أن لا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال، فلا نلبس ولا نأكل إلا ما صنع في وطننا الإسلامي»[2]

ز ـ وكذلك يجب إصلاح الخلل المتمثل «في التفاوت العظيم، والبون الشاسع، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب»، والذي أدى إلى وجود «ثراء فاحش وفقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة. وذلك بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات، تقريبا يقضي على الثراء الفاحش والفقر المدقع»

ح ـ و«محاربة الربا. وجمع الزكاة. وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدي ـ بحسب المال لا بحسب الربح ـ يعفى منها الفقراء طبعا، ويُجبى من الأغنياء الموسرين، وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة[3] والتوسط

---

(١) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤

(٢) المصدر السابق: رسالة التعاليم، ص ٢٧٩

(٣) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣

والثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدي الوطنيين إلى أيدي هؤلاء الأجانب. فالبلد ليس فقيرا». ولكن النهب الاقتصادي الأجنبي جعل «الأجانب الذين احتلوه أسعد حالا من أهله وبنيه»[1].

وهذا الغنى الذي يحققه الأجانب من نهب ثروات مصر المسلمة، يقابله فقر مدقع يطحن المواطنين المصريين.

«فأكثر من ٦٠٪ من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون على القوت إلا بشق النفس. والبلاد مهددة بمجاعة قاتلة، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية. وهي من أكثر بلاد العالم المتمدن أمراضا وأوبئة وعاهات.. وأكثر من ٩٠٪ من الشعب المصري مهدد بضعف البنية، وفقد الحواس، ومختلف العلل والأمراض. وهي - [مصر] - ما زالت جاهلة، لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخُمُس. والجرائم تتضاعف؛ حتى أن السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس!. ومصر هذه لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة في الجيش كاملة المعدات!..

وكذلك حال كل بلد من بلدان العالم الإسلامي»[2].

وبعد فقه هذا الواقع الاقتصادي والاجتماعي، الذي تألق فيه الأستاذ البنا كإمام في فقه الواقع كما هو حاله في فقه الأحكام، أخذ في تنزيل الأحكام الإسلامية على هذا الواقع المعاصر والمعيش فدعا إلى:

أ - «نظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قول الله تعالى ﴿ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]»[3].

ب - واستقلال نقدنا عن فلك الاستعمار.

جـ - و«تمصير الشركات، وإحلال رءوس الأموال الوطنية محل رءوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك»

---

(١) المصدر السابق: رسالة مشكلات في ضوء النظام الإسلامي، ص ٢٣١

(٢) المصدر السابق: رسالة بين الأمس واليوم، ص [illegible]

(٣) المصدر السابق: رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن، ص ١٠٠

د ـ و«تخليص المرافق العامة ـ وهي أهم شيء للأمة ـ من يد غير أبنائها، فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات أجنبية، تبلع رءوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات، ولا يصيب الجمهور الوطني، ولا العامل الوطني منها؛ إلا البؤس والشقاء والحرمان».

هـ ـ و«العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى، المهملة، التي طال عليها الأمد! ويجب التحول إلى الصناعة فورا. فهذا التحول هو روح الإسلام! ـ مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية. وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات، والاكتفاء بالضروريات، وأن يكون الكبار في ذلك قدوة للصغار».

و ـ ويجب تكامل التنمية بين بلاد الإسلام؛ ذلك «أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام. تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، وتنقذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما».

«فالجهاد الاقتصادي يجب أن يتوجه إلى خدمة الثروة الإسلامية، بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية. والقرش الإسلامي يجب أن لا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال، فلا نلبس ولا نأكل إلا ما صنع في وطننا الإسلامي»[2].

ز ـ وكذلك يجب إصلاح الخلل المتمثل «في التفاوت العظيم، والبون الشاسع، والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب»، والذي أدى إلى وجود «ثراء فاحش وفقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة. وذلك بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات، تقريبا يقضي على الثراء الفاحش والفقر المدقع».

ح ـ و«محاربة الربا. وجمع الزكاة. وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدي ـ بحسب المال لا بحسب الربح ـ يعفى منها الفقراء طبعا، وتُجبى من الأغنياء الموسرين، وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة[3]. والتوسط

---

(1) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤.

(2) المصدر السابق، رسالة التعاليم، ص ٢٧٩.

(3) المصدر السابق، رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣.

بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين، بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد»[1].

ط ـ وإصلاح الخلل المتمثل في التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية في الريف، ذلك أن «روح الإسلام الحنيف وقواعده الأساسية في الاقتصاد القومي، توجب علينا أن نعيد النظر في الملكيات في مصر، فنختصر الملكيات الكبيرة، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع، ونشجع الملكيات الصغيرة. وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار. حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه. قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعنيهم أمره ويهمهم شأنه»[2].

* * *

هكذا كان فقه الواقع الاقتصادي والاجتماعي وفقه الأحكام الإسلامية في الثروات والأموال وتبرير الأحكام على الواقع كما تجلى في المشروع الحضاري للإمام الشهيد حسن البنا بن كلية العلوم الذي تفوق في هذا الميدان على كل الأحزاب والجماعات والجمعيات التي عاصرته وسبق كل علماء الاجتماع بل وحتى تيارات الشيوعية والاشتراكية في معالجة معضلات الفقر والتنمية والثروات والأموال وما سمي النهب والاستغلال، سواء منه الاستعماري الأجنبي، والذي يمارسه «المستغلون الوطنيون»!..

* * *

ل ـ سنة التدرج في الإصلاح

ولأن الإسلام دين الوسطية، فقد اعتمد سنة التدرج في الإصلاح، وهذا التدرج هو وسط بين «الجمود والثبات» وبين «الطفرة والانقلاب»!

وهذه السنة في التدرج، هي سنة عامة في كل عوالم الخلق وفي سائر ميادين الاجتماع.. وكذلك في عوالم الأفكار.

---

(١) المصدر السابق: رسالة دعوتنا في طور جديد، ص ٢٣

(٢) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص ٢٤٢

[illegible] نزلت الشرائع بالتدريج [illegible] أحكامها على الواقع [illegible] بالتدريج [illegible] التي مثلت عمران الواقع المادي - بالتدريج ..

[illegible] الإصلاح [illegible] بالتدريج [illegible] الإصلاح [illegible] بالتدريج

[illegible] في منهاج [illegible] الراشدين [illegible] المنهاج [illegible] في الشورى [illegible] الاجتماعي من قبل الدولة [illegible] في مشاريع الإصلاح [illegible] على مستوى الدولة [illegible] الخامس عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١هـ / ٦٨ - ٧٢٠م] [illegible] في كل ذلك [illegible] المنهاج الإسلامي [illegible] التدرج في الإصلاح، واضحاً كل الوضوح ..

[illegible] من هذه [illegible] الإصلاح الحقيقي [illegible] الإصلاح [illegible] الأستاذ [illegible] "المتعجلين" [illegible] الوصول [illegible] "المقاصد" [illegible] هذه "المقاصد" [illegible] على خطورة التطلع إلى [illegible] هذه [illegible] طريق "المراحل" التي تفضي إلى هذه [illegible]

[illegible] المنهاج الإسلامي في الإصلاح [illegible] على "الدولة" [illegible] هو منهج [illegible] "الدولة" [illegible] ثمرة [illegible] صبغت، ولتجد هذه "الدولة" [illegible] المنهاج الإسلامي [illegible] الجديدة [illegible] فضلاً عن رجالات هذه الدولة الجديدة وإطارات مؤسساتها

فإصلاح الأصول [illegible] وإعادة صياغة الإنسان هي نقطة البدء [illegible] "الواعي" و"القادر" على حمل [illegible] الإصلاحية هو [illegible] الإصلاح الحقيقي في منهاج الإسلام [illegible] "الدولة" و"القانون" و"المؤسسات" و"[illegible]"

و[illegible] داخلية وخارجية [illegible] لا شهادة [illegible] على أن هذا هو منهج الإسلام في الإصلاح.

وفي حالة الإسناد [illegible] ودعوته وحركته؛ [illegible] حتى وهو لا يزال في مرحلة التفكير بمشروعه الإصلاحي - قبل تكوين الجماعة سنة ١٩٢٨م - فهو يتحدث عن [illegible] التي أصابت الإسلام وأمته ودولته [illegible] وأهاجت كوامن الشجن في قلبي، وألقت نظري إلى وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس»[1].

فالجد والعمل يقطع مراحل:

١ - التنبيه

٢ - والتكوين

٣ - والتدريس..

٤ - والتأسيس!!

نعم [illegible] كان الرجل واعيا بحقيقة سنة التدرج والمرحلية في هذا المشروع الإصلاحي [illegible] وانطلاقا من هذا الوعي، تحدث إلى المتعجلين الذين يريدون «خرق المراحل»!! فقال:

«أيها الإخوان المسلمون.. وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم.. اسمعوها مني كلمة داوية.. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول.

أجل! قد تكون طريقا طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها.. فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، ومن صبر معي حتى تنمو البذرة، وتنبت الشجرة،

(١) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٥٠، ١٥١

وتصبح الثمرة، وتحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتك وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة.

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول. ولا تصادموا نواميس الكون؛ فإنها علاَّة، ولكن عالجوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هو منكم ببعيد!.

أريد أن أكون صريحا معكم لنهاية، فلم تعد تنفع إلا الصراحة.. أعدو أنفسكم.. وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها، روحيًا بالإيمان والعقيدة، وفكريًا بالعلم والثقافة، وجسميًا بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأعرو بكم كل جبار عنيد؛ فإني فاعل إن شاء الله![1]

***

م ـ القوة.. والثورة

و[illegible] من هذا المنهج في [illegible] الإصلاح، ورفض [illegible] تحرر، و[illegible] تنسبها [illegible] عرض لأستاذه [illegible] الموقف من "الثورة" فتحدث عن [illegible] الإسلام [illegible] حدث ثورة كبرى بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وفي كل ميادين الإصلاح والتغيير. فهو الذي بدل وغير وحول وخلق من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الضلالة إلى النور، وهو الذي نحى من النفوس والمجتمعات ما يخدشه فيها وجه من وجوه الخير، وغرس فيها وشجع في كل ميادين [illegible] وعلى هذه الخلفية قال الأستاذ:

«إن الإسلام ثورة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، يزلزل الأوضاع الفاسدة، ويحطم صروح البغي والعدوان الشامخة، ويحدد معالم الحياة وأوضاعها، ويقيمها على أثبت الدعائم.

إنه ثورة على الجهل.. وثورة على الظلم بكل معانيه. ظلم الحاكم للمحكوم، وظلم الغني للفقير.. وظلم القوي للضعيف..

(١) المصدر السابق، رسالة المؤتمر الخامس، ص ١٦١، ١٦٢.

وثورة على الضعف بكل مظاهره ونواحيه: ضعف النفوس بالشح والإثم، وضعف الرءوس بالغباء والعقم، وضعف الأبدان بالشهوات والسقم!

* * *

بكل الأسف نشعر أن [خطابه] لم يعد في مثله [يستخدم "العنف الثوري" ضد] الحكومات، لأن منهج [الإخوان] هو الإصلاح بالإسلام، وفق منهج [يتدرج] من أعلى إلى أسفل، [فيبدأ] بالحاكم [ليصلحه] ثم [يصلح] الأحزاب [ثم الشعب]. [فالعنف] الثوري [يستخدم] ضد [الشعب] وعلى [الحكومة] لكي [تكرهه] على [الصلاح] عكس [منهج] الإخوان!

وفي صياغة هذه "المعادلة الصعبة"، يبرر [إعداد القوة] التي هي [أداة] الإصلاح [بغير] الثورة التي هي "أعنف مظاهر القوة" [التي] نهى [الإخوان] عنها، [وهي] تستخدم [ضد] الشعب [الذي] يفرض عليه [الحاكم] على المؤسسين ـ وهم له كارهون! ـ.

وفي تحديد هذا المسار الدقيق والشائك ـ قال الأستاذ البنا:

"يتساءل كثير من الناس هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟!"

"وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر؟.. "

أما القوة، فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته! . فالإخوان لا بد أن يكونوا أقوياء، ولا بد أن يعملوا في قوة . وأول درجة من درجات القوة، قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك: قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح

والثورة: أعنف مظاهر القوة..

إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة..

---

(١) [مجلة] السياسي [العدد] ٨ [ص] ٣٦٩ [وهو مقال في] جريدة [الإخوان] المسلمين [العدد] ٢٣ شوال سنة ١٣٦٥هـ / ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦م

أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، وإن كانوا يصارحون بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال فسيؤدي حتماً إلى ثورة... إني أرى الوميض خلال الرماد ويوشك أن يكون له ضرام[2]

أيها الإخوان... إن قيل لكم: أنتم دعاة ثورة، فقولوا: نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا، ووقفتم في طريق دعوتنا، فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا، وكنتم الثائرين الظالمين!![3]

هكذا [illegible] في الإصلاح [illegible] هي سبيل الإصلاح [illegible]

* الإصلاح بالإسلام..

* وتحرير الوطن الإسلامي.

* وإقامة الدولة الإسلامية..

* وإعادة الأمة كلها إلى كامل شريعة الإسلام..

وهكذا [illegible] الإسلامي في هذا المشروع [illegible] الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا [illegible]

[illegible] ودعوته وجماعته [illegible] على مستوى جمهور الأمة في القرن الرابع عشر الهجري [illegible] الميلادي

والذي بارك الله في «البذرة» التي بذرها، كما لم يبارك في بذرة أخرى - على كثرة «البذور» التي [illegible] في ذلك التاريخ - حتى وصلت آثارها إلى كل قارات الأرض وجميع مدن هذا العالم الذي نعيش فيه.

* * *

(١) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد] رسالة [illegible] ص ٦٨ [illegible]
(٢) المصدر السابق: رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي [illegible] ٩
(٣) المصدر السابق: رسالة بين الأمس واليوم ص ١٤٤

وإذا كانت سطور هذه الصفحات قد قدمت إشارات إلى بعض معالم هذا المشروع الحضاري، الذي صاغه هذا الإمام الشهيد، فإن هناك حقائق كثيرة يمكن الإشارة إليها في هذا الختام.. ومنها:

* أن الدراسة الوافية لهذا المشروع الإصلاحي لن تتأتى إلا بعد جمع [illegible] والدراسة والنشر للأعمال الفكرية الكاملة للإمام [illegible] وتبويبها تبويباً موضوعياً وتاريخياً.

* وأن النظر في معالم مشروعه الحضاري يتمنى أن ترتفع الصحوة الإسلامية إلى الآفاق التي خلق فيها هذا الإمام العظيم!

رحمه الله رحمة واسعة، وبارك في العطاء الذي قدمه، وفي الجهاد الذي جاهده، وسدد الخطا على هذا الدرب [illegible] الإسلام.

***

المصادر والمراجع

د. إبراهيم التيومي غانم [[illegible] طبعة [illegible] والنشر الإسلامية، سنة ١٤١٢هـ / سنة ١٩٩٢م

الأفغاني، جمال الدين - [[illegible] طبعة [illegible] سنة ١٩٦٨م وطبعة [illegible] سنة ١٩٧٩م

حسن البنا [مجموعة [illegible] طبعة [illegible] تاريخ

الزركلي - خير الدين - [الأعلام] طبعة بيروت - الثانية

محمد عبده [الأعمال الكاملة [illegible] طبعة [illegible] سنة ١٩٧٢م، وطبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م

محمد عبد الجواد [تقويم دار العلوم] المجلد الأول، طبعة القاهرة سنة ١٤١٠هـ / سنة ١٩٩٠م

د. محمد عمارة [الصحوة الإسلامية [illegible] طبعة [illegible] سنة ١٩٩١م.

[الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة] طبعة القاهرة [illegible] نهضة مصر سنة ١٩٩٧م

(٣)

الإمام الشيخ

محمد البشير الإبراهيمي

[١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م]

ـ ١ ـ

بطاقة حياة

* هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م]. من قبيلة «أولاد إبراهيم» العربية، التي استوطنت مقاطعة قسنطينة ـ بالجزائر.

* ولد الشريف الجزائري في يوم الخميس ١٤ شوال سنة ١٣٠٦هـ/ ٣ يونيه سنة ١٨٨٩م في أسرة توارثت علوم الإسلام والعربية على امتداد خمسة قرون.

* وتربّى وتعلّم في كنف عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، ودرس على يديه الكتب التي كانت تدرس بالأزهر الشريف في ذلك الحين. وكان لا يفارق عمه ليلاً ولا نهاراً. تعلّمه عمه، وتعلّم من عمه، حتى في لحظات إسلام عمه الروح إلى بارئها!

* وكان ذا ذاكرة حافظة خارقة للعادة. حفظ القرآن الكريم في تمام الثامنة من عمره، مع فهم مفرداته وغريبه. ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره، إلا وكان قد حفظ العديد من «متون» ـ منها «الألفية» لابن مالك [٦٠٠ ـ ٦٧٢هـ/ ١٢٠٣ ـ ١٢٧٤م]. ومعظم [الكافية] لابن مالك أيضاً. والفتى يعرف [٧٢٥ ـ ٨٠٦هـ/ ١٣٢٥ ـ ١٤٠٤م] في الأثر والسير. ومعظم أسئلة المجموعة في كتاب [الحالة الكتاب]. و[كفاية المحفظ] للأخضري الطرابلسي، المتوفى قبل ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م]. وكتاب [الألفاظ الكتابية] للهمداني [٣٢٠هـ/ ٩٢٢م]. وكتاب [التصحيح] لثعلب [٢٠٠ ـ ٢٩١هـ/ ٨١٦ ـ ٩٠٤م]. وكتاب [إصلاح النطق]

سعقوب سكيت[١٨٦ ٢٤٤هـ ٨٠٢ ٨٥٨م] و[جمع جوامع]في لاصبي و[تحيص مسح] سه صي مروني[كان حيا ٣٥٦هـ ٩٦٧م] و[رقم خبل في علم سوس] لأس خصب[٧١٣_٧٧٦هـ ٣ ١٣ ٣٧٤ م] ومعصم سائل فحول كتاب لا لس، كس شهيب [٣٨٢ ٤٢١هـ ٩٩٢ ١٠٣٥ م] وس أي خصب ن[٤٦٥ ٥٤٠هـ ١٠٧٤ ١١٤٦م] ، سي مصرف بن عمرو[٥٨٢_٦٥٨هـ ١١٨٠ ١٢٦١م] ، معصم بن فحول كتاب شروح، كتصبي[٤٨٠هـ ١٠٨١م] وسبع[٣٥٨ ٣٩٨هـ ٩٦٩ ٩٩٨م] مع حط معصب ، معصبت وثيوب حمسة وشعر سي[٣٠٣ ٣٥٤هـ ٥ ٩_٥ ٩م] كه وشعر شرف ـ صي[٣٥٩ ٤٠٦هـ ٩٧٠ ١٠١٥ م] ، س ، وي[٢٢١_٢٨٣هـ ٨٣٦ ٨٩٦م] و ي ن م[١٩٠ ٢٣١م ٨٠٦_٨٤٦م]والمحسرو[٢٠٦ ٢٨٤هـ ٨٢٠ ٨٩٧م] ، أي يوس[١٤٥ ٩٦ هـ ٧١٢ ٢ ٨م] كم سطهر كثير من شعر حرير[٢٨_١١٠ هـ ٦٤٠_٧٢٨م] و لأحص[٩ ٩٠هـ ٦٤٠_ ٧٠١م] و سردوس[٠ ١ هـ ٧٢٨م] كم حفظ كثيرٌ من كتب بعة كمسه مثل [لإصلاح]و[مصبح] ومن كتب لادب مثل [لكامل] و[سب]و[دب لكاتب] كم حفظ سعة برجمة بين برجمهم[نفح الطيب]، وأجدرهم، وكثيرٌ من أشعارهم

وقد بعث فيه قصيدة [illegible] كان يحفظ فيها عشرات الأبيات من سبع أو ثمان

* وفي حدود عشرة من عمره أصبح يشرح بعض ما يقرأ من شروح في مسجد حمص

* ولقد مات عمه سنة ١٣٢١هـ / سنة ١٩٠٣م ـ وعمر الشيخ أربع عشرة سنة ـ وكان عمه قد أجره لأجرة يعمل [illegible] وعندما كان يحمله في سيارته صباحاً، فأصبح شبحاً وهو في سن الصبا!..

* وفي سنة ١٣٢٩هـ [illegible] سنة ١٩١١م ـ حين شيخ يشير ـ يتحدث [illegible] في حمص وعمره حوالي ٢٠ سنة ـ فتحدث [illegible] وكان قد سمع [illegible] سورة عام سنة ١٣٢٦هـ سنة ١٩٠٨م [illegible] في صيدلية في حمص، ثم

بلغه ثلاثة أشهر، حضر فيها بحلقات دروس العلم في الحرم الشريف. درس الشيخ سليم البشري [١٢٤٨ ـ ١٣٣٥ هـ / ١٨٣٢ ـ ١٩١٧م] شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمد بخيت المطيعي [١٢٧١ ـ ١٣٥٤ هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٣٥م] مفتي الديار المصرية، والشيخ يوسف الدجوي [١٢٨٧ ـ ١٣٦٥هـ / ١٨٧٠ ـ ١٩٤٦م]. والشيخ عبد العزيز محمود، والشيخ عبد الرحمن قطب، والشيخ سعد الوحي [١٢٦٧ ـ ١٣٥٤ هـ / ١٨٥١ ـ ١٩٣٥م] وغيرهم من العلماء والشعراء والأدباء.

* في المدينة المنورة، وعلى مدى ثلاث سنوات، واصل الشيخ محمد بخيت المطيعي تعليمه وتعليمه، فحضر لعدد من دروس العلم، وحضر دروس الشيخ عزيز الوحي، والشيخ حسين أحمد نصيف، كما أخذ يتردد على الشيخ حسين بن إبراهيم الأسكوبي، وخرج وتعلم وتخصص على يد الشيخ أحمد الساري الشهير بالرفاعي، وأخذ يتردد على الشيخ محمد عبد الله الزرقاني الشنقيطي، وتعلم الخط على الشيخ عبد الله الأفغاني. وفي المدينة بدأ يستفيد من مكتبات العلم الموجودة فيها.

* خلال سنوات قضاها في المدينة المنورة، انضم الشيخ المطيعي إلى جمعية الإصلاح التي أسسها الشيخ أحمد السنوسي، ودرس قضايا الخلافة الإسلامية، وحال الدولة العثمانية وأوضاع الأمة العربية والمسلمين، ونهضة الاستعمارية. وخاصة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي التقى به في المدينة المنورة سنة ١٣٣١هـ / سنة ١٩١٣م. وعلى مدى ثلاثة أشهر تكرر اللقاء بالشيخين ودرس وتحدث معهما في شؤون الوطن الجزائري، وما يعانيه من الاستعمار الفرنسي المتسلط، وفي غضون ذلك تعرف على الإسلام وكان التعليم والإصلاح الديني هو المسيطر على تفكير هذه الشخصية التي قامت لاحقاً "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" سنة ١٣٤٩هـ / الموافق سنة ١٩٣١م.

* بعد ثورة الشريف حسين بن علي [١٢٧٠ ـ ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٤ ـ ١٩٣١م] ـ حاكم مدينة مكة ـ ضد الخلافة العثمانية ـ وبتحالف الإنجليز ـ وكان الشيخ البشير ضد هذه الثورة، لم ترحل الكثيرون من سكان مدينة بني هاشم إليهم الشيخ البشير ولده في منتصف الخريف من سنة ٣٣٤ هـ ـ سنة ٩١٦ م ـ واستقر بدمشق قرابة أربع سنوات.

* وفي دمشق، تعلم على يد الشيخ عبد القادر الخطيب [١٢٨٩ ـ ١٣٤٠هـ ـ ٨٧٢ ـ ١٩٢٢م] ـ أبو سعيد أخ عبد الرزاق ـ وتعلم مع عشرات من أبناء دمشق، ولكنه بين وقت الاشتغال بالدرس، فعمل أستاذاً للعربية في مدرسة «السعادة».

* وعندما حكم الأمير فيصل بن حسين [١٣٠٠ ـ ١٣٥٢هـ ـ ١٨٨٣ ـ ١٩٣٣ م] دمشق، قامت علاقات صداقة بين الشيخ البشير وبين الأمير فيصل.

* وفي دمشق تزوج ... وفيها توفي ولده ... وأحد أولاده ...

* وعندما تحدث الشيخ البشير عن جزائر بحسن الخطيب الإصلاحي عاد إلى الجزائر سنة ١٣٣٨هـ ـ وفي سنة ١٩٢٠م ـ على وجه التقريب ـ تعلم العلم العباسي ... فتعاون مع نخبة التي كانت قد سارت على نهج أبيه وشيخه عبد الحميد بن باديس ... ومواصل العمل الدؤوب لتحريك الإصلاح في الجزائر عشرات السنين ... حتى جاءت سنة ١٣٤٨هـ/ سنة ١٩٣٠م، فأقامت فرنسا مهرجانات الاحتفالات بمئوية استعمارها للجزائر ... واستفزت هذه الاحتفالات ضمير الأمة، وفجرت فيها روح الإصلاح وصفات المقاومة ... ففي تلك الاحتفالات خطب أحد كبار ساسة الاستعماريين الفرنسيين قائلاً: "إننا لن نتصور على الجزائريين ما دام هؤلاء يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم"!!

* خطيب سياسي جزائري آخر: "لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغ مائة سنة في هذا الوطن، فلقد قام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه. ألا فتعلموا أن معزى هذه المهرجانات هو تشييع حضارة الإسلام بهذه الديار"!!

* خطيب آخر: "لقد كانت الحملة الصليبية الكبرى سنة ١٠٩٥م، وبلغت هذه المهرجانات قمتها في عهد الهلال في الجزائر قد عبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى

«الأبد ... وإن عليه أن تجعل أرض الجزائر مهداً للدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»!!.

* وفي مواجهة هذا التحول الاستعماري الصليبي، أسس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ١٣٥٠هـ الموافق سنة ١٩٣١م، وكان رئيسها الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس، وكتب وثائقها الإمام البشير الإبراهيمي، وعملت بنوده الإصلاحية والاجتماعية في خط مستقيم طريق المنهج الإسلامي في الإصلاح، وهو منهج المؤسسات الإصلاحية، ويعمل مؤسسي منظم، تحدده الدروس والخطب والمحاضرات في نوادي الجمعية «العربي» و«التهذيب» و«الشبيبة»، وتهدف إلى إعادة الجزائر إلى حصون العروبة والإسلام والاستقلال..

* وفي ٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ الموافق ١٠ نيسان سنة ١٩٤٠م اعتقل المستعمرون الفرنسيون الإمام البشير الإبراهيمي، وسجنوه في قرية أقبو في جبال البويرة.

* وفي ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ الموافق ١٦ أيار سنة ١٩٤٠م توفي عبد الحميد بن باديس والإمام البشير في سجن قسنطينة قبل «الجمعية العامة» بأسبوعين وبعد خروجه من المعتقل والسجن الذي دام قرابة ثلاث سنوات. ووُضع تحت المراقبة الإدارية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

* ثم اعتقل الإمام البشير مرة ثانية في سجن عسكري بالجزائر العاصمة في جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣هـ الموافق ٢٧ أيار سنة ١٩٤٥م بعد مذبحة سطيف في ٨ أيار سنة ١٩٤٥م التي قتل فيها ٤٥٠٠٠ من الجزائريين! وبقي الإمام البشير في إقامة جبرية في أرض المعسكر بـ«ميلة» وبعد ذلك تم في سجن عسكري بالجزائر وبسبب سوء حالته الصحية، نقلوه إلى السجن العسكري بقسنطينة حيث قضى أحد عشر شهراً، وقد دخل السجن معه بوشقرون ٧٠ من أعضاء جمعية العلماء!..

* وبعد الإفراج عنه، عاد إلى قريته يعمل للإصلاح، كما كان من قبل، وأصلب ما يكون عوداً.

* وفي جمادى الآخرة سنة ٣٧ هـ ٢١ مارس سنة ١٩٥٢م قام الشيخ بشير رحلته الثانية إلى المشرق.. فأقام بالقاهرة أسبوعا.. وفي باكستان قرابة ثلاثة أشهر.. التقى فيها بالمصلحين في باكستان.. وحاضر في سبعين محاضرة في مدن لاهور وكراتشي والإصلاح.. ثم ذهب إلى بغداد.. فمكث بها حوالي ثلاثة أشهر.. ألقى فيها عشرات المحاضرات.. ثم رحل إلى الحجاز في موسم الحج سنة ٣٧ هـ سنة ١٩٥٢ م.. وبقي في جدة شهرين يلقي المحاضرات.. ثم رجع إلى القاهرة في ٢٤ أكتوبر من نفس العام.. مع بداية سنة ١٣٧٢هـ.. وفيها عاود الشيخ البشير الإبراهيمي رحلته إلى المشرق العربي لإلقاء المحاضرات في مدن الحجاز للإصلاح.. فمكث بالقاهرة.. وفي بعض مدن الصعيد لإلقاء المحاضرات.. ومعرفة حقيقة الثورة.. وبعد قيام الثورة المصرية شعبية.. وثورتها التي قامت سنة ١٩٥٤م.. وقد وقف الشيخ البشير إلى جانب الثورة المصرية.. وسائر قضايا الأمة الإسلامية..

* وفي القاهرة.. قام الإمام البشير بافتتاح مكتب باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" للإشراف على تعليم طلاب الجمعية ببلاد المشرق العربي..

* وفي القاهرة.. التقى الشيخ البشير بكوكبة من العلماء.. فانتخب عضوا عاملا للمجمع العلمي العربي سنة ١٣٨٠هـ/ سنة ١٩٦١م

* وعندما استقلت الجزائر سنة ٣٨٢ هـ سنة ٩٦٢ م عاد الإمام البشير إلى الجزائر.. وخطب خطبة الجمعة في افتتاح مسجد "كتشاوة" بالجزائر العاصمة.. الذي ظل مسجدا بعد أن كانت الفرنسة قد حولته إلى كاتدرائية كاثوليكية طوال قرن وثلث القرن!

* وكان آخر أعمال الإمام البشير قبيل وفاته.. والذي عرضه هو سفره إلى مدينة جدة في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٨٣هـ ١٦ أبريل سنة ٩٦٤ م.. التي وفد إليها جزائريون.. دعاهم إليها بعض الجزائريين من خلاف الثورة!.. وفي جدة ألقى الشيخ البشير محاضرة عن منهاج الإسلام في الإصلاح!

* [illegible] لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أبيّا وحسبي هذا مقربا من رضا الرب ورضا الشعب»

[illegible] [عيون البصائر] و[الاطراد والشذوذ في اللغة] و[سر الضمائر العربية] و[التسمية بالمصدر] و[كاهنة أوراس] و[رسالة الصب] و[فصيح العربية من العامية الجزائرية] و[أرجوزة] - في ٣٦ ألفا من أبيات الشعر - ضمنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته [illegible] فكونت خمس مجلدات، فاربت صفحاتها ألفان وخمسمائة صفحة.

* * *

* هذا هو الإمام البشير الإبراهيمي [illegible] الذي لم يرث مالا [illegible] ولم يتمول أموالا والذي عاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»... والذي كان يسدد ديونه القديمة بديون جديدة!.. محتفظا بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطان [illegible] في ذلك طريق العلماء الأعلام [illegible] لم يورثوا درهما ولا دينارا مكتفين بالعلم والجهاد [illegible] والصديقين وحسن أولئك رفيقا

وهو الذي قال فيه صديقه ورفيق دربه الإمام عبد الحميد بن باديس - بعد إقرار لائحة «جمعية العلماء» - التي كتبها الشيخ البشير - سنة ١٣٤٩هـ - سنة ١٩٣١م.

«عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل في دين أو يجري في دنيا، أو يذل لاستعمار»؟!..

عليه رحمة الله

* * *

ـ ٢ ـ

المنهاج الإسلامى فى الإصلاح

للإصلاح فى الرؤية الإسلامية منهاج متميز عن نظائره فى كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التى نشأت وسادت خارج إطار الإسلام.

* فالإصلاح الإسلامى ليس بعيداً جزئياً ولا سطحياً، وإنما هو تغيير شامل وعميق، يبدأ من الجذور ويمتد إلى سائر مناحى الحياة، بل إنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا، وإنما يجعل من صلاح الدنيا سبيلاً إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا.

* وهو لا يقف عند «الفرد» ـ كما هو الحال فى المذاهب «الفردية» ـ كما أنه لا يهمل الفرد، مرتكزاً على «الطبقة» كما هو الحال فى كثير من المذاهب والفلسفات الاجتماعية المتسارعة الوضعية والمادية، وإنما يبدأ الإصلاح الإسلامى بالفرد، ليكون منه الأمة والجماعة. فالإسلام دين الجماعة ـ والجماعة أشمل وأوسع من الطبقة ـ وبدون صلاح الأفراد لن يكون هناك صلاح حقيقى للأمم والجماعات. وبهذه الحقيقة من حقائق الإسلام جمعت التكاليف الشرعية الإسلامية بين «الفردى» و«الاجتماعى» ـ الكتابى ـ لأن صلاح الفرد هو الذى يؤهله للقيام بالفرائض الاجتماعية والمشاركة فى العمل العام الذى تعود ثمراته على الجماعة المكونة من الأفراد، بل لقد رفع الإسلام مقام التكاليف الاجتماعية فوق مقام التكاليف الفردية ـ عندما جعل ثم التخلف عن التكليف الفردى مقصوراً على الفرد وحده، بينما ثم التخلف عن التكليف الاجتماعى شامل للأمة جمعاء، بل ورفع الإسلام ثواب التكاليف الفردية إذا هى أديت فى جماعة واجتماع

وبهذه الخطوة، كانت رهبنة الإسلام هي الجهاد.. أي بذل الوسع واستفراغ الجهد والطاقة في أي ميدان من ميادين العمل الصالح في الحياة.. فالجهاد بهذا المعنى شأنه وحده.. وبهذه الرهبانية - في الإسلام - هي التي تعكس من الحياة البشرية كل ما ظهرها للأمة والاجتماع والصالح العام.

* فرعاية العمل الإصلاحي بهذا المعنى - في الإسلام، تحدث عنه القرآن الكريم باعتباره «سنة» من سنن الله في الحياة والمجتمع و«قانون» من قوانين الاجتماع البشري.. لا تبديل له ولا تحويل.. فالتغيير الإصلاحي لابد أن يتم وفق هذه «السنة» و«القانون» ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد ..].. ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ [الأنفال: ٥٣]..

* ولأن الإصلاح «سنة» من سنن الله في الكون و«قانون» من قوانين المجتمع، وحدد القرآن، وشرع الأمة، حضارات من سبقوا في الرجوع والاحتياط، فحدد هذه الدوائر التي تقدم من حديث.. وعلى هذه السنة من سنن الإصلاح يحدث رسول الله ﷺ فيقول: «لا يزال الخير يعتدل إلا قبيلا حتى يضيع، فكلما ضيع من الخير شيء ذهب من يعدل مثله، حتى يولد في الخير من لا يعرف غيره ثم يأتي الله بالشر ويتعالى بعده.. فكلما جاء من يعدل شيئا ذهب من الخير مثله، حتى يولد في الشر من لا يعرف غيره» - رواه الإمام أحمد -.

* كذلك حدث القرآن الكريم عن الإصلاح والإصلاح فذكر سنة جميع الرسل والرسالات، وطريق سائر الأنبياء والمرسلين.. فنقطة البدء في سائر الشرائع السماوية هي «الإنسان» الذي يعيد صياغة الإنسان صياغة إيمانية.. والذي يتجلى - من ثم - في العمل الصالح والمصلح لكل ميادين الحياة.. فعند الإصلاح يبدأ بالإصلاح الذي يشعر به الضمير والأصوب والمصلحات والصادق والبيوتات والنفسيات والشخصيات، ورؤية الإنسان لنفسه، وموقفه من هذا الوجود، ورسالته فيه، ينتهي هذا الإصلاح إلى إصلاح شامل لكل ميادين الفروع في سائر مناحي الحياة.

هكذا كانت دعوة رسول الله شعيب ﷺ في مدين حينما قال يا قوم

عُدوا عليه ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط (٨٤) ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٨٥) بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦]

فنقطة البداية في الإصلاح تنطلق من الإيمان الذي يعد صاحبه لأن يكون أهلا لهذا الإصلاح بعد ذلك في فروع المعاملات والاجتماعيات والاقتصاديات والعلاقات.

وعلى نفس المنهج سار في الإصلاح والإصلاح كل موقف لكافرين من هذين القومين فنجد شعيبا وجود علاقة "اقتصادية" بين الإيمان والصلاة وبين ما كانوا يمارسونه في فروع حياتهم ومعاملاتهم الاقتصادية والاجتماعية من مظالم جعلوها ثمرة للحرية المزيفة متصلة في هذه المسائل ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ [هود: ٨٧]

لكن شعيبا عليه السلام يؤكد لهم أن دعوته هي الضرورة حتى للإصلاح والإصلاح ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [هود: ٨٨].

﴿وفي سورة المزمل المكية يرسم الله تعالى لنبيه الكريم خطة سير في هذه الحياة منهج الإعداد والتحمل لتبعاتها الروحية التي تحتاج إلى تجرد كامل وانقطاع عن الأشغال والانكباب على جهاد النفس وهو جهاد عنيف لأنه يتناول أعز ما يملك الإنسان وهو نفسه ليقدر على حمل مهام شاقة في تحقيق منهج الإصلاح فيهذه الدعوات والتعهدات التي تعد صياغة الإنسان صياغة جديدة، يكون هذا الإنسان الذي حمل تبعتها هو الأساس والقاعدة لإقامة ﴿يا أيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥) إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا﴾ [المزمل: ١ ـ ٦]

وعلى امتداد مرحلة مكة الثلاثة عشر عاما من عمر الرسالة كانت الصناعة الشيعية التي أقامها رسول الله ﷺ هي إعادة صناعة الإنسان، بإقامة الأصول، وتجسيدها في حياة الأمة. وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم بدأت الدعوة السرية الأولى في تاريخ الإسلام. كانت صناعة الشيوخ، يعاونهم نخبة من الشباب وقتما تكون الخلية الحزبية، وتتوافر حمايته وكفاءة في صنعها الرسول ﷺ على عينه، جاءت بعد الهجرة مرحلة النشر والانتشار للإصلاح في مختلف فروع الحياة بالدولة وسياسة وحكومة وفتوحات ونظم ومؤسسات وتشريعات وعلاقات دولية. في هذين فروع الإصلاح قد تقدمت "الدعوة" على "الدولة" وتقدم تغيير "النفس" على تغيير "الواقع" وهذا كان معجزا مقصيا وحقيقيا ورسخ كل رسوخ.

وذلك "الأمة المحمدية" التي خلقت الإسلام عبقرية رسول الله ﷺ في نحو عدد ١٢٤ ألف "الأمة" خصائصها التي مثلت الأخلاق والعادات والتقاليد والعلوم التي تخرجت في مدرسة النبوة قد أحصى علماء المسلمين في نحو ثمانية آلاف منهم كثير من ألف مترجم حياتهم في أسفار التي صنفت أعلام الصحابة، بدأ صنعة وقادة من خلق رسول ﷺ أعظم نموذج للصلاح والإصلاح في تاريخ البشرية والرسالات.

* وقد بشر بشارات متعددة بشرت بها في عظم المعارف والإمكانات التي يتجرها هذا النهج الإسلامي في الإصلاح - تغيير الجذور والمنطلقات: التصورات والقناعات، والإيمان الذي تجسده وتتمثله المجاهدات الروحية - سيحمي عملية الإصلاح والصلاح في سائر الميادين تجري في جميع مراحل التاريخ. وقد بشر بشارات عديدة على صنع هذا النهج في الإنسان الذي كان في أعلى الدرجات والمراتب وقد عاش الصحابة المعاصرون لنبي صلى [٨ هـ ١٢٩ م] الصحابي الذي حمله وصفه بأنه صناعة رسول الله. وبعد الإصلاح الذي صنعه بها الإسلام، يقول:

«أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف

فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته

وعفقه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى، فنعبد الله تعالى وحده ونحن نشرك به شيئًا، ونحرم ما حرم الله علينا، ونحل ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك»[1].

هكذا صنع الإصلاح والإصلاح هذا [illegible] حذرني وتعميق وتأسيس في [illegible] هذه الجماعة المؤمنة، التي ولدت من رحم الغربة الكريمة

ثم [illegible] صنع الإصلاح الإسلامي [illegible] حاضر من أبي سفيان [٣٥ و ٣٠ هـ / ٥٨٦ - ٦٥٠م] [illegible] حتى [illegible] سنة [illegible] رسول الله ﷺ [illegible] في "المقوقس" عظيم القبط [illegible] سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨م [illegible] ورث مع ورث أقدم حضارات [illegible] وعرقها

[illegible] المقوقس جوابه مع حاطب [illegible] واستكمال [illegible]

[illegible]

«ما منعه - [أي الرسول] - [illegible] يدعو علي فيستجاب لي»[2]

فكان جواب حاطب:

منعه ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفْعَلَ به ويُفْعَل

[illegible] المقوقس سماعه [illegible] ثم استدعى [illegible] حاطب [illegible] فأعاده عليه حاطب [illegible] فسكت المقوقس [illegible]

وهنا ستأتي حاطب مجدورة المقوقس [illegible]

[illegible]

- إنه قد كان قبلك رجل - [يشير إلى فرعون موسى] - وعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به [أي من الذين استخفهم فأطاعوه] - ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُغتَرّ بك!

وإن لك دينا - [أي النصرانية] - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، تكفى به لله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعوتُ إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وليس نهاك عن دين المسيح، ولكن بأمرك به» إن الناظر في حوار «البدوي» خطب بن أبي بلتعة هذا مع المقوقس، إذا سأل نفسه

من علم خطب هذه [illegible] - في [illegible] وفي خبرته و[illegible] تاريخ؟ [illegible] ومن أين قدرته على [illegible] بكثيفها في كتاب هي عصارة [illegible] للحكمة العالية؟؟..

بل لنط في ذلك، و سائل عنه، لابد أن تفتح أمام بصيرته و بصره معالم منهج سوي في إصلاح و إصلاح، ذلك الذي يد أ بالأصول، [illegible] و [illegible]، ليست هذه [illegible] في سبك الجماعة و الأمة و المجموع و الاجتماع، تتعلم بها وتعلمها [illegible] و به والسياسة والنظم والمؤسسات والعلاقات

وبشارة أخرى دالة على "نوح" و"كيف" الذي نتمره هذا منهج يسوق في الإصلاح على جبهة صناعة [illegible] سجلي في كتاب ابن شاشي، المتوفى عام بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣هـ/ ٥٨٤ - ٦٤٤م] عندما أرسل مع جنده من بعض ٥٠٠ ق هـ ٢٣هـ/ ٥١٤ - ٦٤٤م] ٤٠٠٠ جندي لفتح بهم مصر. فلما وصل عمرو جيشه إلى "حصن بابليون"، وعلم أن بمصر ١٢٠٠٠ جندي من خيرة جند الروم، يتدربون ويُوفر العدد والعدد وأكثرها قوة وفتكا، ويتحصنون [illegible] عند حكم (٢٥١هـ/ ٨٧٠م) - في حصون [illegible] حصون[1]

عندئذ، طلب عمرو بن العاص من عمر بن الخطاب مدداً، لهذه المعركة الحاسمة، التي قرر فيها «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] فتح مصر لروما "د [illegible] لإسكات [illegible] صوت [illegible] الروم» فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص "إني قد أمددتك بأربعة آلاف

(١) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ طبعة بليدن سنة ١٩٢٠م و[مجموعة الوثائق [illegible] النبوي والخلافة الراشدة ص ٧٢، ٧٣، طبعة بالقاهرة سنة ١٩٥٦م.

رجل، على كل ألف رجل منهم رجلٌ مقام الألف ـ الزبير بن العوام [٢٨ ق هـ ـ ٣٦هـ / ٥٩٦ ـ ٦٥٦م] و المقداد بن عمرو بن الأسود [٣٧ ق هـ ٣٣هـ / ٥٨٧ ـ ٦٥٣م] وعبادة بن الصامت [٣٨ ق هـ ٣٤هـ / ٥٨٦ ـ ٦٥٤م] ومسلمة بن مخلد [١ ـ ٦٢ هـ / ٦٨٢م]. [وقيل خارجة بن حذافة [٤٠هـ / ٦٦٠م]. ـ ولا يُغلب اثنا عشر ألفا من قلّة»

هكذا تبع المؤرخ نوح و كتب خريجي مدرسته سوء و منهجه في الإصلاح

***

وهذا منهج الإسلامي في الإصلاح. هو الذي بعثته وحدته و تطوره ... إلى مدرسة الإحياء الإسلامي في المغرب في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي مدرسة عبد الحميد بن باديس [١٣١٤ ـ ١٣٥٨هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] و الأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ٨٤٩ ـ ٩٠٥ م] و الذي سنته وصفته «الجامعة بعلماء مستقلين حرّ تربيتهم» التي سنها وقدوة الأساتذ العظيمان الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٨ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م] و الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ ٨٨٩ ـ ١٩٦٥م]

وقد كتب في سبق ي وكتب دراسة عن الإمام بن باديس ـ فسأكتفي من البحث في هذه المصنفات التي وقفت عليها بالإشارة إلى ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن صاحب هذه المدرسة الذي سماه «الإمام المشير» الذي جمع إلى علمه و عمله جهادي، وقد عضده و سدّد خطاه تلامذته الذين تربوا في مدرستهم المباركة، و على منهاجهم الإصلاحي. حمل بن باديس و الأستاذ الإمام و الذي شهد شهادة صدق على أستاذه الإمام محمد عبده حركة الإصلاح في المغرب العربي و تحدث عن امتداد هذه المدرسة الإصلاحية في الإحياء الإسلامي بحرارة على وحدته المتجددة فشهادته ـ في هذا المقام ـ تدل على بعد المدى الذي بلغته مدرسة و على تحطيم حدود مصر إلى مختلف آفاق عالم الإسلام.

فكما حدث هذه المدرسة نموذج الإسلامي في الإصلاح، كذلك حدث عليه

الإسلام

(١) [نوح مصر حاضر] ص ٦١

(٢) د محمد عمارة [مسلمون ثوار] ص ٤٥٩ ـ ٤٩١ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٨ هـ، سنة ١٩٨٨م

(٣) [الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ٥ ص ١٦٣ ـ ١٧٠، ٢٧٢ ـ ٢٩١ جمع وتقديم د أحمد طالب الإبراهيمي طبعة بيروت سنة ١٩٩١ م

- ٣ -

إمام فى مدرسة الأئمة

إذا كانت الجزائر قد شهدت العديد من العلماء، والعديد من الثوار، على امتداد تاريخها مع الاستعمار الفرنسى، ذلك التاريخ الذى امتد من جهاد إمامها الأكبر الأمير عبد القادر الجزائرى [١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ ١٨٠٧ - ١٨٨٣م] وحتى جهاد الإمامين عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمى، فإن ما تميزت به الحركة الإصلاحية التى جسدتها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» هو استدعاء المنهاج الإسلامى فى الإصلاح، والانطلاق من معالمه التى بعثها وحددها - فى عصرنا الحديث - أئمة الإحياء والتجديد: جمال الدين الأفغانى، والأستاذ الإمام محمد عبده.

وهذه هى العلامة الفاصلة، والسمة البارزة، والقسمة المميزة لمنهاج جمعية العلماء عن غيرها من الدعوات والثورات والأحزاب التى شهدتها الساحة الجزائرية فى مواجهة الاستعمار.

لقد ركز الاستعمار الفرنسى - فى الجزائر - على مسخ ونسخ الأصول المميزة للإنسان الجزائرى.. أصول.

* الإسلام.. الذى هو دين الأمة..

* والعربية.. التى هى لسان الدين والأمة..

* والوطنية.. التى تفصل المستعمر عن المستعمر، والتى حول بين الشعب الجزائرى، وبين الذوبان والاندماج فى فرنسا..

ولأن المنهج الإسلامي في الإصلاح، هو المنهج الذي يبدأ من الأصول، ليبلغ بعد ذلك كل ميادين الفروع. ولأنه هو المنهج الذي صلح به أول هذه الأمة، وبه وحده يكون صلاح آخر هذه الأمة. كان حبيب «الجمعية العلماء المسلمين الجزائريين» لهذا المنهج في الصلاح والإصلاح، وكانت تلمذته فيه على الأئمة الذين قادوا بهذا المنهج، حركة الإحياء والإصلاح في العصر الحديث، وخاصة الرائد المؤسس جمال الدين الأفغاني، والمهندس الأكبر والمصلح الأعظم في هذه المدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وعلى هذه الحقيقة يشهد هذا الإمام العظيم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ذلك الإمام الذي تربى في مدرسة هؤلاء الأئمة العظام، والذي صاغ مشروع «الجمعية العلماء» التي وضعت هذا المنهج في الممارسة والتطبيق، فصنعت الجيل الذي فجر الثورة الجزائرية سنة ١٣٧٤ هـ سنة ١٩٥٤م، التي احتدمت إلى ساحتها طلاب الفروع وأجناده، والتي انتزعت بدماء الشهداء استقلال الجزائر من براثن الاستعمار الصليبي الفرنسي.

يشهد الشيخ البشير على هذه الحقيقة، عندما يفصل القول في الاعتراف بأستاذيه الأفغاني ومحمد عبده في تحديد معالم المنهج الإصلاحي، الذي جعل الأولوية:

* للإصلاح الديني والعلمي والتعليمي

* وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي في التعامل مع القرآن الكريم، باعتباره النص المقدس والمؤسس للدين.. والأمة.. والحضارة..

* وصولا إلى الإصلاح السياسي، الذي يبدأ بالأصول والجذور والثبات، حتى تبلغ الفروع التي يخطئ البعض عندما يحسبونها جماع السياسات!

***

ـ ٤ ـ

في الإصلاح الديني.. والعلمي.. والتعليمي

*و كانت فرنسا لاستعمارها - كي تنزع روح الجهاد و الفداء من قلوب الجزائريين وعقولهم - وكي تسهل عليها عملية تنصيرهم - تحارب الإسلام باعتباره عقيدة تربط المسلم بخالقه سبحانه وتعالى - فهو يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ويعمل لنيل رضوان الله ومغفرته ورسوله ﷺ *وهم لله ورسوله ولكن المنافقين لا يعلمون* [المنافقون ٨] وحضارته لا تعترف بأي كيان أسمه الكنيسة - بالمعنى المسيحي *ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين* [آل عمران: ١٣٩]

و كانت فرنسا - كي تضمن نجاح مخططها الهادف إلى تحويل الجزائريين عن دينهم قد صنعت لهم من "الجزائرية" "العلمانية" البشعة التي هي صنيعة وتصنيع فرنسا - بالجزائر - هو من قضاء الله وقدره - لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد - فمن المعلوم أن الإسلام يميز في قضاء الله بين قضاء التكويني الحتمي *فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها* [فصلت ١٢] وبين القضاء الذي فيه حرية و إرادة وتخيير *وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه* [الإسراء ٢٣] ومن المعلوم أن الاستعمار الظالم - حتى لو تجسد في أرض الواقع - فإنه لا يمكن أن يكون قضاء إلهيا حتميا يستحيل رده - وإنما هو من الذي يدفع الناس إلى الوقوع في الإثم ومخالفة أمر الله الذي لا يتحقق في الأرض إلا بوقوع *ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين* [البقرة ٢٥١]

صنعت فرنسا من "الجزائرية" - وليس من الصوفية - "العلمانية" يريدون بها تحويل الإسلام، بروحه الجزائرية النفسية في الشخصية الجزائرية، ولكسر شوكة مقاومة الجهاد في نفوس الجزائريين

وبسبب كون الإصلاح الديني في عقائده - و الإصلاح و تجديده لأصوله الجهادية الإسلامية، بتعليمه و تعلمه، هو سبيل "الجمعية العلمانية" لاجتثاث كل مقاومة للاستعمار الفرنسي تعتبرها من الإفساد الذي حولته حسب أصول الإسلام .

ومن هنا كان الإسهام في "الجمعية العلمانية" - منهج الإمام محمد عبده و فريد في الإصلاح - وتعتبره الإمام البشير:

... لمسيح سار بهؤلاء المحاسن [المفرقة] بحيث هم يحبون من يحرق على الإصلاح ويشكر له في جميع أطواره وعلى اختلاف مظاهره، فقد كان يوسف بن ... وهو حبس، فلما ظهر في الأفراد ردده ... تكثر وعمه نفسه، فلما ظهر في شكل جمعية أجمعوا أمرهم وشركاءهم لحربه بهذه المكائد

أتم تعلموا أنهم قبل أن يظهر الإصلاح بهذا الوطن، وتلهج الألسنة باسمه كانوا يلعنون ابن تيمية [٦٦١ـ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ـ١٣٢٨م] وابن حزم [٣٨٤ـ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ـ١٠٦٤م] ومحمد عبده [١٢٦٦ـ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ـ١٩٠٥م] وغيرهم من أئمة الإسلام الذين جهروا بإنكار البدع، فلما ظهر الإصلاح بالمظهر الفردي كان أمضى سلاح يقاومونه به قولهم: تيمي، عداوي!![1]

***

... الإصلاح الديني، هو سعة العلماء المخلصين، هو الذي يجعل همه تعليم الأمة وتعليمها على صورته الحق ... وهو الذي يجعل العلم سلطة وسلاطين يتعاونون ويتعاونون سلاطين جور وفساد ... وهو الذي يجعل خدمة الدين سلسلة من الجهد الجهيد، هو الذي يهيئ النفوس ـ ومن ثم المجتمعات ـ لتقبل الإصلاح وتهيئها لتنظيم ... روح الأحزاب والحكومات ... لأنها ـ جميعاً ـ ليست إلا شعاعاً لأضوائه ... تتسحب في المجتمعات ... وهذا البدء يعكس هذا المنهاج ـ أي تقديم الفروع على الأصول والاكتفاء بالشروع في خدمة الشؤون وتكميلها بالجزئيات ـ لا حرث في البحر، وبعثرة في الهواء، وسعي في غير مجتمع حسب ... الذين يحرقون ... في هذه السبل!...

وفي ذات ليلة فصل الإمام عشرة معلمين من الإصلاح الذين سكنوا «جمعية العلماء» المعروفة ... وضع العلماء، لأنه لا يعلم أن يزيد عليه ... في هذا الصباح ... كانت مدرسة الأفغاني والأستاذ الإمام...

قد كتب عبده رحمه الله:

"لقد صدق ظني بالعلماء فيما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٧

جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن للقبول جزءاً من الله على الإخلاص يعجنه بعبده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائل عن سبق [illegible] عن حق، إلى الأمة عامة وعلمائها خاصة، فرأى القبول للكلام من العالم الذي لا يمتلك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل [٦٤ ـ ٢٤١هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م]، وأخضع صولة الملك في عنفوانها لعز الدين عبد السلام [٥٥٧ ـ ٦٦٠هـ ٨١ ـ ٢٦٢م] في موقفه الشهير لإعلاص من بعض أمرائه المماليك بيوعهم وأموالهم في عاشوراء لأنه لم يعلم أنهم خصص وعده بالنصر لمن نصره.

وما أحوج الأمة اليوم إلى رجع عظيم من بعث تلك الشجاعة، فهي أحوج ما كانت من خصالهم، وحرمانها ـ بسوء تربيتنا ـ من خلالهم.. **ولعمري إن تلك القوى لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشُّعَل لم تنطفئ، فهي في كنف القرآن آمنة، وما دامت نفحات القرآن تلامس العقول الصافية، وتلامس النفوس الزكية، فلا بد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب..**

وما أحرى أن يسمح الزمان بكل دعاة في ربيع الإسلام بخطاب يشرق، ويسمع به كل خطيب فيه صوت يحرق، من **عالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً**، ويترك بعده ما يتركه الشمس من شفق يهدي الناس ما خلص لي الحق.

وما أحوج قلوبنا إلى أن نحبهم، ونقتبس من هديهم من علماء الإسلام، مثلاً شروداً في شجاعة الرأي، لا يخطر لها ببال من يعلم، علم الأنفاس، من أعلم علمائه في فقه النفس عصره، فقد شهد وقعة بعد من حوادث الأعمار في الأنفاس بعد عام، وعلم التصوف فحرك فحرص، وحرك فحرك فحرص، حتى تمنى ربه عز وجل طويل ولا علم فيهم مثلاً في شجاعة الرأي علم كعز الإسلام أحمد بن عبد السلام، فقد شهد حرب شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخاً وشموخاً، وأكثر اتباعاً وشيوخاً، يصدهم ولاة السلطان، ويؤزرهم العلماء المتشدقون بالفتيا

ولقد ادخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، لواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة النفس والقلب، وهو

محمد عبده، فهز النفوس الجامدة، وحرّك العقول الراكدة، وترك دويًا ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن..»[1].

[illegible] علماء مجددين، يعتبرون تحصور جهود الأستاذ محمد عبده [illegible] دعوة الأمة لتجديد دينها، ويدرس مسلك [illegible] التي جعلت منه «المجدد» و«الشهيد» [illegible] الطريق لأستاذه جمال الدين [illegible] سلاح، و[illegible] من سبقه، ومن تبعه، وصولاً إلى الإمام محمد عبده [illegible] الخمسة» [illegible] ـ بتطهيره ـ «تأذن فجر الإسلام بالانبلاج» من جديد!..

* * *

* وفي سنة ١٩٥٧م كتب الأستاذ بشري الشوربجي [illegible] يحضر بعض دروس الأفغاني بمجمعية بشتان بمصر [illegible] بالقاهرة يكتب عن «مدرسة الأفغاني في المدرسة الحديثة للإصلاح بالإسلام» فيقول:

«إن من أبرز الخصائص التي تكاد تميز مدرسة الأفغاني ومن كان منهم أو من تأثر بها، أو ممن يحبون أن يذكروا بصحبتها، ويحمد لهم أن يعدوا منها، وتحتفي بهم إذا أطلعت عليهم السبل، وقدموا إذا أعوزوا الإمام القائد.

تعلماء الربانيون في هذه الأمة [illegible] من الأمم، وفيهم من الأجيال، وفي حكمه في هذه [illegible] أخرى، لا [illegible] منهم الأمة جديد يوحد، ولا يحيي [illegible] بعد [illegible] بين وجود الأمة فترة من حكم الأهواء، سيلاء خمول، وسنة غفلة، وتعدد [illegible] هذه [illegible] وجهل [illegible] وأنصبة وثقة [illegible] وبين [illegible] ومتصوفة [illegible] الإسلام [illegible] فيهم، فيكون ظهوره تجديداً للدين والدنيا معاً، وعودة للعزة فيهما معاً، وإصلاحاً لما أفسدته الغفلة منهما معاً، ورمّاً لما تشعث من بنائهما معاً. ومن هذا القليل جمال الدين الأفغاني..

والأفغاني ينظر إليه الخليون الفارغون من علماء القشور والرسوم على أنه ليس عالماً دينيًا بالمعنى الذي يفهمونه من متدين ومن العالم الديني، الذي هو عندهم حاكي أقوال وحافظ اصطلاحات وراوي حكايات، يجلس في حلقته فيفيض في الحلال والحرام

(١) المصور بتاريخ ٤ ص ١١٢، ١١٣

وفي الزهد والرقائق بكلام مقطوع الصلة بالقلب، مقصور على اللسان، فهو لا يؤثر، ومن ثم؛ فهو مقصور على سمع السامع فهو لا يتأثر، وليس فيه إلا قال فلان، وقال فلان، وليس منه: قلتُ، ولا ارتأيت، ولا فكرت، حتى إذا فرغ كل شيء منه، وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله؛ فلا يهتز لها هزة الغضب، ولا يتأثر لها تأثر المنكر، بل يجاري البدع والمبتدعين ويكثّر سوادهم، ويكون حجة على الدين لا حجة له.

أما أصحاب العقول المتدبرة، والأفكار المثمرة، والبصائر النيِّرة، والموازين الصحيحة للرجال؛ فإنهم يرون الأفغاني عالما أي عالم، وفردا انطوى على عالم، وحكيما أي حكيم، وأنه أحيا وظيفة العالم الديني وأعاد سيرتها الأولى..

.. لقد كان الأفغاني عالما شجاعا، قوّالا للحق حريصًا فيه، لا يخشى في كلمة الحق يقولها، ولا في الحق يدعو إليه لومة لائم - وجميع الشعر التي أتينا منها؛ فعلّة العلل فيها آتية من سكوت علماء الدين وبعدهم عن شئون المسلمين العامة

وقد جزاه الله في الدنيا جزاء عاجلا، فرزقه طرازا من التلامذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، وربّاهم على مبادئه، وكانوا من بعده حملة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبده

لقد اقتحم جمال الدين هذا الميدان فكان حجة لبعض العلماء، وحجة على بعضهم

رحمة الله على جمال الدين جزاء ما قدمه للإسلام والمسلمين، وكفاء ما سنّه للعلماء من أسى حسنة لم نزل نتقلب في أعطافها، وندين له بالفضل فيها"

هكذا سرّ الإمام البشير بين «علماء الرسوم»، الذين لا قلوب لهم، ولا حكمة، فيهم، ولا شجاعة لديهم - والذين رسم لهم الأفغاني صورة «كاريكاتورية» عندما وصف الواحد منهم بأنه «جنّة كالخرج، وعمامة كالبرج، ورأس فارغ» [illegible] البشير بين هذا الصنف من «العلماء» وبين «العلماء الحكماء» الذين يتحدّدون [illegible] بتحديد الدين [illegible] وحدث عن مكانة الأفغاني بين هؤلاء العلماء الحكماء [illegible] عن عرشه

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦

ولقد وقفوا بعد زوال تلك الغشية صفًّا واحدًا في وجه ذلك المصلح يجادلونه بالبهت، ويكايدونه بالإفك، وألبوا عليه الألسنة والأقلام، ووقفوا له بكل مرصد، ورموه بكل نقيصة، فلم ينالوا منه نيلا إلا قولهم إنه كافر، وهنة وهنة، وهذه هي النعمة المرددة التي كان فقهاء الحيل البائد في وطننا هذا وفي غيره يرددونها مقرونة بالسب واللعن، وقد ورثها عنهم أهل هذا الحيل واشتقوا منها اشتقاقات غريبة، وهي أسلحتهم التي يقذفون بها في وجوه المصلحين كلما أعيتهم الحجة، وأعوزهم الدليل.

وكان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية وبعد النظر، وعمق التفكير، وحدة الخاطر، واستنارة البصيرة، وسرعة الاستنتاج، واستشفاف المحبات، حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى.

منقطع النظير في صدق الإلهام وسداد الفهم، وصدق العزيمة وخصب القريحة واستقلال الفكر، وبضاعة الاستدلال، وتمكن الحجة.

موفور الحظ من طهارة الدخيلة، والانطباع على الفضيلة، مستكمل الأدوات من فصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وقرطبة الفراسة، ودقة الملاحظة، وسلامة العبارة، ومطاوعة البديهة، ورباطة الجأش، وكبر الهمة الخطابية، وقوة المعارضة في البيان، واتساع الصدر لمكاره الزمان وأهله.

حجة من حجج الله في فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها، وفي النصر بسنن الله في الأنفس والآفاق، وفي العلم بطبائع الاجتماع البشري وعوارضه ونقائصه

وبالجملة، فالرجل فذٌّ من الأفذاذ الذين لا تكوّنهم الدراسات وإن دقت، ولا تخرجهم المدارس وإن ترقّت، وإنما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود وتبرزهم حكمته في فترات متطاولة من الزمن على حين انتكاس الفطرة، واندراس الفضيلة وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهرا من مظاهر رحمة الله بعباده، وحجة للكمال على النقص، وإصلاحا شاملا، وخيرا عميمًا.

ولو أن قول الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل

لم يتدله المترجمون للرجل بوضعه في غير موضعه، حتى صاروا يشدونه في حق أشخاص يتكرم عنيا الزمان بمأت من مثلهم في كل جيل، لولا هذا الابتذال السخيف لهذا اسيت بقلد" إن أحق رجل بانطباقه وصحة إطلاقه هو الأستاذ الإمام. فرضي الله عن الأستاذ الإمام»[1].

* * *

وبعد [illegible] يسمح الإمام [illegible] بين "عبقرية محمد" وبين "عبقرية عمر" [illegible] فيعقد [illegible] ويسمي [illegible] على [illegible] يسمح [illegible] في [illegible] لإصلاح، فيتحدث عن "عبقرية عمر"، التي كتب في [illegible] هذه المدرسة لإصلاحه على [illegible] مصر من [illegible] فيقول:

"وسبحان من قسّم الخصوص بين الجماعات؛ فأعطى كل جماعة حظ لا تعدوه، وفرق الخصائص على البقاع فخصّ كل بقعة بسر لا يعدوها. فما زلنا نستجلي من صنع الله لك ـ [يا مصر] ـ وللإسلام لطيفة سماوية، وهي أنه كلما رثّت جدّة الإسلام، وخالطته المحدثات، سطع في أفق من آفاقه نجم يهدي الحائرين إلى سوائه، وارتفع صوت بالدعوة إلى أصول هدايته، ثم لا يلبث ذلك النجم أن يخبو، وذلك الصوت أن يخفق، إلا نجما سطع في أفقك ـ [يا مصر] ـ وصوت ارتفع في أرجائك، وقد ارتفعت أصوات بالإصلاح الديني في أقطار الإسلام، وفي حقب معروفة من تاريخه، فضاعت بين ضجيج المطالين، وعجيج الضالين، إلا صوت محمد عبده؛ فإنه اخترق الحدود وكسر السدود..»[2]

* * *

كما عرف الإمام [illegible] صاحب الحاجة [illegible] دعوة الإصلاحية [illegible] التي حدثت في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" إنها هي رافد من هذا النهر العظيم في الإصلاح [illegible] وأثر من آثار منهج الإصلاحي الذي حدده الإسلام، وهدى

(١) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٧٧، ١٧٨.
(٢) المصدر السابق، جـ ٣ ص ٤٩٦، ٤٩٧.

حديثة وهندس بناءه، وأنشى صرحه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في عصره الحديث ... ثم هذه خلاصته، ويعنيها فيصل ـ كما عنوان "نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر":

"إن التأثير الأكبر في تكوينها يرجع إلى عدة عوامل

أولها تنوع جرثية محدودة أحدثتها في النفوس المستعدة الأحاديث المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام محمد عبده، ولو من خصومه المعنيين في التشنيع عليه وسبه ولعنه ـ وما أكثرهم بهذا الوطن! ـ فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النفوس المتعرمة من حاضرة، والمستشرفة إلى تبدله بما هو خير، وتكييفها تكييفاً جديداً، وتعريتها أولاً وبحثاً عن منشأ هذه الخصومة العنيفة لهذا الرجل، فإذا عدمت أن منشأ ذلك دعوته إلى القرآن، أو إلى دعاوى الاجتهاد ـ كما كانوا يقولون ـ قرب هذا الاسم منها، فأحبته ولجت في الانتصار له، وإن لم تتبين مشربه كل التبين

ثانياً يضاف إلى هذا العامل قراءة [المنار] ـ على قلة قرائه في ذلك العهد ـ واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القديمة، ككتب ابن تيمية، وابن القيم [٦٩١ ـ ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م] والشوكاني [١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ/ ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤م] فهيأ عاملاً له أثره في التمهيد لدعوة الإصلاحية" "... لقد تحمت في هذه العهود الأخيرة، ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة، وكتبه المتعرمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها، وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتاً بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بياناً لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدهم رأياً في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملاً جدّياً في ذلك"[٢].

هكذا شهد الإمام بشير ـ شهادة بعض الناس خير ـ بريادة الشيخ محمد عبده لدعوة الإصلاح الديني والعلمي والتعليمي ـ في عالم الإسلام المعاصر الحديث

***

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٨

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٤٢، ٣٤٣

ـ ٥ ـ

المنهاج المعجزة فى تفسير القرآن الكريم

لأن القرآن الكريم هو الإعجاز الخالد المتجدد، الذي تعهد الله بحفظه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، ولأن جهاده هو جهاد الأبد ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ [الفرقان: ٥٢]، ولأنه قد جمع خير الأولين وبأ الآخرين، حتى أنه لا تنقضي عجائبه.

ولأن أعداء الأمة الإسلامية وفي طليعتهم الصليبية الفرنسية في الجزائر قد أدركوا خطر القرآن الكريم في بعث وتجديد الهوية الإسلامية بالجزائر، فقاموا بكل ما في وسعهم أثناء الاحتلال بمحو هويتها الإسلامية سنة ١٩٣٠م: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم»[1].

ولما للقرآن الكريم [illegible] الشعب الجزائري [illegible] العربي [illegible] والإعجاز [illegible] في [illegible] الإنسان [illegible] والمجتمع [illegible] على امتداد الزمان، [illegible] كان [illegible] «جمعية العلماء الجزائريين» في مشروعها الإصلاحي ـ منهاج الإمام محمد عبده، الذي مثل النموذج الأحسن في تفسير القرآن الكريم، فهو «المنهاج المعجزة.. والتفسير لمعجزات القرآن»، الذي رسم معالمه محمد عبده، ودونه رشيد رضا، وأكمله عبد الحميد بن باديس.

وعلى هذه الحقيقة يشهد الإمام البشير فيقول:

.. إن هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم في الأقطار الإسلامية، بشير بقرب رجوع المسلمين إلى هداية القرآن الكريم؛ لأن هذه النهضة بنيت أصولها على الدعوة إلى كتاب الله وتفهمه والعمل به

وقد كان من ثمرات هذه النهضة في بدايتها تفسير الإمام محمد عبده، والآلوسي [١٢١٧ ـ ١٢٧٠هـ / ١٨٠٢ ـ ١٨٥٤م] المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، وتفسير الأمير صديق حسن خان [١٢٤٨ ـ ١٣٠٧هـ / ١٨٣٢ ـ ١٨٨٩م].

ثم جاء إمام النهضة بلا منازع، ودرس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده، فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها. وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسَّر إلا بلسانين: لسان العرب ولسان الزمان. وبه وبشيخه جمال الدين، استحكمت هذه النهضة وستمر مريرها

ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا فسار على ذلك النهج الذي نهجه محمد عبده في تفسير القرآن، كما جاء شارحاً لآرائه وحكمته وفلسفته في الدين والأخلاق والاجتماع

ثم جاء أخون وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، قائد تلك النهضة بالجزائر، بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة، وهو ممن لا يتضاءل عمله ذكره في استكمال وسائلها، من مكانة شخصه، وسعة اطلاعه على السنة، وتضلعه في العلوم التي أشرنا إليها وهو أحوجها وهو في عصر لا تنجح فيه إلا العلوم والعلماء بمنتجات العصور ومستحدثات الاختراع، ومستجدات العمران، بعد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير، وقلم كاتب لا تقل له شأنه..»[1].

لقد كان من إصلاحات الإمام محمد عبده العملية ـ في هذا الباب ـ درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق، وهو من هو في استقلال الفكر، واستكثار الطرائق الحامدة.. ولكن المستمعين لتلك الدروس ـ على كثرتهم وجلالة أقدارهم في العلم والمعرفة، وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيض من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنها مما لم تنطو عليها حنايا عالم ولا صحائف كتاب ـ لم

---

(١) نفسه المصدر السابق ـ ص ٣٢٧

[illegible] أقلامهم [illegible] إلا قليلا، [illegible] الإمام [illegible] محمد رشيد رضا [illegible] ولكن [illegible] حفظ معاني [illegible] الدروس، وسدد قلمه في [illegible]، ثم [illegible] على شعاع هديه في تفسير كلام الله [illegible] بتفسير المنار»[1]

«... لقد كان تفسير الأستاذ الإمام المنهاج المعجزة في التفسير، المنبئ - بعد إرهاصات الشوكاني والألوسي وصديق حسن خان - بظهور إمام المفسرين بلا منازع: محمد عبده، أبلغ من تكلم في التفسير بيانا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله في القرآن، وبين آياته في الأكوان. فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه [illegible] دون ذلك، فخلفه [illegible] أفكاره [illegible] أسراره، محمد رشيد رضا، فكتب في التفسير ما كتب، ودون [illegible] الإمام فيه، [illegible] منهاجه، ومات قبل أن يتمه، [illegible] التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى [illegible] وصديقنا ومشيئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل بالشمال الإفريقي عبد الحميد بن باديس»[2]

هكذا [illegible] الإمام [illegible] على إمامة الشيخ محمد عبده في [illegible] التفسير [illegible] الكريم [illegible] فهو صاحب «المنهاج المعجزة» في التفسير [illegible] الذي يجاور تفسير القرآن [illegible] فأصبح تفسير معجزات القرآن [illegible] وفسر القرآن [illegible] فكان [illegible] هذه [illegible] الحقائق [illegible] من سبقه دون [illegible] فيه وجد علم التفسير وتم [illegible] وكانت [illegible] فيضا من [illegible] على [illegible] الإمام العظيم

* * *

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٣

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣

- ٦ -

فى الإصلاح السياسى

إذا كانت السياسة فى الرؤية الإسلامية - هى الأفعال والتدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعها الرسول ﷺ ولا نزل بها الوحى كما قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل [٤٣ - ٥١٣هـ / ١٠٤٠ - ١١٩١م]، وتقول هذا التعريف عنه الإمام ابن القيم [illegible] أى أنها مضبوطة بمنظومة الأخلاق والقيم الإسلامية، وليست «الميكافيلية» التى تبرر الغايات فيها الوسائل!

إذا كان هذا هو المفهوم الإسلامى للسياسة التى عدت «علماً إسلامياً»، وليست مجرد «علم» وفقط - فهى علم «السياسة الشرعية»، لأن منها الأصول ومنها الفروع ومنها الثبات ومنها القشور، ومنها القواعد والمنطلقات والنظريات، ومنها الأحكام والتدابير المتغيرة وفق مستجدات الزمان ومقتضيات المصالح والعادات والأعراف، وضرورات البيئة والمكان..

ولأن الإصلاح فى الرؤية الإسلامية إنما يبدأ من الجذور والأصول والمنطلقات وسمات الهوية وقسماتها، فإن مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى التى قادها الأفغانى ومحمد عبده قد ركزت فى الإصلاح السياسى - على «الأصول» التى توصل إلى «الفروع»، واهتمت «بثبات» السياسة، لا بالوقوف عند «القشور» وركزت على «الأمة» كطريق إلى «الدولة». واهتمت بإصلاح المؤسسات التى تصوغ العقل والوجدان قبل الأحزاب التى تقف عند الممارسات، وأعلنت «السياسة الشرعية»

---

(١) [القيم: إعلام الموقعين] ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

كتاب «تربية سياسية» وردت وضع توصية على صحيفة الإسلام بتصحيح وعقدت الآمال على «العلماء» لا على «الأمراء»..

وبعد تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» هذا منهج سياسي وضعها على ذلك الأساس الشيخ الإبراهيمي فكتب يقول في سنة ١٩٤٧م

«إن السياسة لباب وقشور ولب سياسة، تعلمه العام، عند جميع العقلاء، هو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة.. فوجود تلك المقومات شرط لوجودها، وإذا انعدم الشرط انعدم المشروط. ثم يفيض على الأمة من مجموع تلك الحالات إلهام لا يُغلب ولا يرد بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدت «وطنا»..

وبعد هذا التقديم لمفهوم السياسة عند جمعية العلماء يتساءل الشيخ العقبي عن رأي «جمعية العلماء» لهذا المفهوم، فيقول:

«ونحن نعتبر بأن اللباب ـ لباب السياسة ـ إنما هو حظ «جمعية العلماء» له عظيم، وفي ميدانه سابقت فسبقت، وفي سبيله لقيت الأذى والكيد والاتهام، وفي معناه اصطدم فهمها بفهم الاستعمار، هي تفهمه دينا، وهو يفهمه سياسة.. إن «جمعية العلماء» تعمل لسياسة التربية؛ لأنها الأصل، وبعض ساستنا ـ مع الأسف ـ يعملون لتربية السياسة، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله، وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع؟!..».

ثم يعرض الشيخ العقبي ليكشف عن أن هذا المفهوم في الإصلاح السياسي، وهذا الفهم المتعلقات المتعلقة به الإصلاح، إنما هو منهج مدرسة الإصلاح السياسي التي سيرها الأفغاني والأستاذ الإمام، والتي تميزت به وقامت على أساس توجيه السياسة إلى التركيز على «الأمة» لا «الأمة»، وعلى «الأمراء» و«الخاصة» لا على «العلماء»، وعلى «الحركة السياسية» أكثر من «الدعوة والتربية السياسية».

ويعرض الإمام الشيخ ليكشف عن الأسس التي سيرت مدرسة الإصلاح السياسي في هذا المنهاج، فيقول:

«... ففي الوقت الذي كان فيه جمال الدين الأفغاني يضع أساس الوطنية الإسلامية على صخرة الإسلام الصحيح، ويهيب بالمسلمين أن ينفضوا أيديهم من ملوكهم ورؤسائهم، وفقهائهم؛ لأنهم أصل بلائهم وشقائهم، وفي الوقت الذي كان محمد عبده يصيح ذلك الصياح ويعليه، كان مصطفى كامل [١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م] ـ على إخلاصه لدينه ووطنه ـ يوجه الأمة المصرية إلى مقام الخلافة العثماني المتداعي، ويخيف الاستعمار بشبح لا يخيف، ثم جرت الأحزاب المصرية إلى الآن على ذلك المنهاج. فهمل شيع لتربية الأمة وتقوية مقوماتها، وتطاحن أشياع على الرياسة والحكم، وترديد كلمة الوطنية دون تثبيت لدعائمها، وتغن بمصالح الوطن وهي ضائعة، وترام بالتهم، والجريمة عالقة بالجميع، وتقديس للأشخاص، والمبادئ مهدورة، والاستعمار من وراء الجميع يضحك من شدقيه، ويدم من عينيه.

ليت شعري! إذا كان من خصائص الاستعمار أنه يمحق المقومات ويميتها، ثم يكون من خصائص أعني الأحزاب أنها تهملها ولا تلتفت إليها، فهل يلام العقلاء إذ حكموا بأن هذه الأحزاب شر على الشرق من الاستعمار؛ لأن الاستعمار يأتيه من حيث يحذر، والحذر ـ دائمًا ـ يقظ، أما هذه الأحزاب فإنها تأتيه من حيث يأمن، والأمن أبدا نائم؟!...»

وإذا علمت من يعني بـ«الأحزاب» في [illegible] بقوله الإمام البشير:

«إن من العقلة والبله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية؛ فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها، وصححت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، وعلماء أحيوا الدعة، ومعلمين راضوا الأجيال على ذلك، وأين نحن وأحزابنا من ذلك؟!...».

وهذه الحقيقة هي التي أشار إليها الإمام إبراهيمي بقوله الكثير الذي [illegible] الأوروبية قد نشأت نشأة الأحزاب السياسية الأوروبية. وفي وقت نهضة جميع أوروبا مقوماتها وقسماتها هويتها. ثم جاءت الأحزاب لتعبر عن التنوع والاختلاف في إطار «الوحدة» وفوق «الأرض المشتركة»، فكانت اختلافًا في «الفروع» مع الشبه في الأصول. وكانت المقومات هي الحاكمة والموجهة لاختيارات الأحزاب

ولقد اهتم الإمام البشير بالتأكيد على أن هذا المنهج في الإصلاح السياسي: تقديم «الأمة» على «الدولة»، و«الدعوة» على «الحركة»، و«التربية على الأصول» قبل «الحرية في الفروع»، والتركيز على «العلماء» لا على «الأمراء»، إنما هو منهج مدرسة الأفغاني والأستاذ الإمام - الذي تبنته «جمعية العلماء».

«فلقد رأى جمال الدين الأفغاني أن أنكر المنكر - في زمنه - هو عبث الأمراء المستبدين أو الأمراء الضعفاء بمصالح المسلمين، وأنهم أضاعوها في سبيل شهواتهم الشخصية، وأنه لولا سكوت العلماء وقعودهم مع الخوالف؛ لما تمادى أولئك الأمراء في غيِّهم، فوجه جهوده ووقف مواهبه على هذا الميدان السياسي، والسياسة في نظر الإسلام هي لباب الدين؛ لأنها حامية لشرائعه وشعائره وحدوده، وموقف الأفغاني من شاه إيران وسلطان العثمانيين وخديوي مصر مشهورة، فالأفغاني باتساع معلوماته، وباستعداده الفطري، وبعد نظره، وبصراحته وشجاعته، وبحسن فهمه لأمراض المسلمين، ومعرفته بأصناف علاجها، مصلح سياسي، اجتماعي، مستكمل الأدوات لا يشق له غبار ولا يصطلى له بناء»

وكما سبق وأشار الإمام البشير إلى «عبقرية المكان» - مصر - في الإصلاح الديني لدى هذه المدرسة الإصلاحية، عاد فأشار إلى ذلك في «الإصلاح السياسي»:

«فالأفغاني لم يتخذ وطنه - [أفغانستان] - مركزا لحركاته وأعماله؛ لأن ذلك الوطن لا يصلح مركزا لانبعاث حركة فكرية شاملة لبُعْده، وانقطاعه عن بقية الأوطان الإسلامية، واختار مصر قاعدة للحملات الصادقة التي حملها على استبداد الأمراء وخمول العلماء، وغفلة العامة

وشيء آخر من بواعثه على اختيار مصر واتخاذها قاعدة لحركاته، وهو أن مصر لم تزل حاضنة العروبة، وحافظة عهودها من لدن الفتح الإسلامي، ولم تزل كعبة العرب ومهوى أفئدتهم منذ قرون، وكل مبدأ يتعلق بإصلاح شئون المسلمين العامة، فمن دواعي نجاحه أن يكون منبعثا من أرض العرب؛ لمكانهم من النبوة ومنزلتهم من القرآن...»[1].

---

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] جـ٣ ص ٦٤ - ٦٦

ن الذين يقرءون سيرة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، يعنيهم موقفه من الثورة العرابية سنة ١٢٩٨ هـ/سنة ١٨٨١م. ويعنيهم كذلك موقفه من عرابي وحزبه الذي تحتسب له الثورة، فقد كان منهجه العام في إصلاح المجتمع هو تجميع العقل المسلم وتربيته وحدته الإسلامي الأزهر، والمسجد، والقضاء، والأوقاف، والعمل على تجديد منهج التفكير والتفكير الإسلامي، وتصحيح العقائد الإسلامية، والإصلاح اللغوي، وتكوين نخبة وتصورها التي تربي تلامذته وتعدهم، وهذا كله هو منهج الذي يلتزم نظام الحكم الشوري، وتصحيح كل سياسات الفروع في واقع الاجتماع الإسلامي[1].

وهذا المنهج هو الذي كان عبده يدفع به الإمام الشيخ، في حديثه إلى السيد علام محمد ـ الحاكم العام لدولة باكستان ـ عندما زاره في ٢١ مارس سنة ١٩٥٢م. وكان باكستان تريد أن تضع لها دستوراً إسلامياً. وتحدث حاكمها العام إلى الشيخ الشنقيطي عن رغبته في أن يعينه على وضع الدستور الإسلامي. فهو حسن الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده. وأنه على ثقة شديدة على أنهما لم يضعا ذلك. وطلب من الشيخ الشنقيطي أن يضع ما قصّر فيه الأفغاني وعبده! فتحدث الشيخ الشنقيطي إلى الحاكم العام لباكستان عما قام به الإمام عبده في تونس في ميدان الإصلاح السياسي.. وكتب عن هذا اللقاء فقال:

«.. واعتذرت عن الشيخين ـ [الأفغاني وعبده] ـ بأنهما صرفا عنايتهما إلى الأهم من أحوال المسلمين في زمنهما، وهو التقريب بينهم، وإصلاح خللهم، وإعدادهم لينقذوا أنفسهم من أمراضهم المستبدين، ومن أعدائهم المتسلطين، ولو تم هذا في زمنهما ولو في وجهة مخصوصة ـ [أي وطن من أوطان المسلمين] ـ لكانت الخطوة الثانية الطبيعية هي هذا الدستور الإسلامي الذي تقصدونه. ولعلهما كانا يريانه أسهل مما تتصورونه نحن الآن، وهو كذلك إذا خف تأثير المذاهب المفرقة، واجتمع المسلمون على هدى الكتاب والسنة، وهو ما كان يعمل له الإمامان..»[2].

إن الذي هو دستور [ ] وإنما هو [ ] الإسلام بسنة الأمة وعقده صحيحة

(١) المصدر السابق، جـ٥ ص ١٩٥.

(٢) المصدر السابق، جـ ٤ ص ٤٦ ـ ٤٨.

الإنسان، وتكوين الصفوة والنخبة والمرتادات ... الجيل الفريد الذي تخرج في مدرسة النبوة. وعندما تم هذا الإنجاز التأسيسي، وتبلورت الأصول، جاءت مرحلة الدستور الخاص بالدولة، وما تبع ذلك من فروع السياسات وتطبيقات الأصول، عقب الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.. وهذا هو المنهج والترتيب في مفردات الإصلاح السياسي الذي كل الذين يتطلعون في الإصلاح السياسي من منهاج الإسلام في هذا الميدان.

* * *

لقد قال الله سبحانه وتعالى في المحكم من نبأ السماء العظيم عن شمولية المنهاج الإسلامي في الإصلاح: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [النساء: ٦٥]

﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ [الشورى: ١٠]

* وجاء في دستور دولة المدينة المنورة - «الصحيفة» - «الكتاب» الذي وضعه الرسول ﷺ فور تأسيس الدولة سنة ١ هـ/سنة ٦٢٢م:

«... وإنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله»[1]

* وقال الإمام مالك بن أنس [٩٣-١٧٩هـ/٧١٢-٧٩٥م]: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»..

وعلى امتداد تاريخ الإسلام كان المجددون ... وكانت مشاريع التجديد هي السبيل لمعالجة عاديات التراجع والهبوط والانحطاط.

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ٢٠

* وفي عصرنا الحديث ... [illegible] ... لاستاذ الحضارة الغربية». . قال جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م]، في تشخيص العلة ... [illegible] ... لإصلاح:

«لا أطيل عليك البحث، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكني أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل ... إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.

أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خلقت بعد نشأة ... وطلب أسباب نهوضها لأول ... به دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، بعث على الألفة، داع إلى المحبة، مُرِّك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماع البشرية، حافظ وجوده، ويتأدى معتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة هذه الأمة، ولها وردت، وعنها صدرت، فما تراه من عوارض خللها، وهبوط عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا. . فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، ولا أجد بأحكامه على ما كان في بدايته ... ولا سبيل لليأس والقنوط؛ فإن أصول الدين متأصلة في النفوس. ... والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته؛ فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت. ... فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة ـ شأنها ما ذكرنا ـ بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا.

ومن يعجب من قولي هذا؛ فإن عجبي من عجبه أشد! ... ودونك تاريخ الأمة العربية. ... وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية. ... حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم»

[illegible] [الأفغاني] ص ١٣١، ٩٧، ١٩٩، طبعة نشرها سنة ٩٢٨ م

هكذا صنع الأفغاني ـ بعبارات هي من آيات الحكمة البالغة ـ أسباب الدرء الحضاري للأمة الإسلامية وحدد سبيل الإصلاح والنهوض.

* وعلى درب الأفغاني سار تلميذه ومساعده الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] في الإصلاح بالإسلام. فقال:

«.. لقد أشربت النفوس الانقياد إلى الدين حتى صار طبعاً فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا يثمر، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي [١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ / ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] إلى اليوم. فإن المأخوذين بها لم يردوا إلا فساداً ـ وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات فما لهم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم؛ فلا أثر لها في نفوسهم.

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العرفية عن صنعة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه، ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في رجوعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم نعدل عنه إلى غيره؟!»[1]

ذلك هو منهج محمد عبده في الإصلاح بالإصلاح المسمى «تعليمياً» و«سياسياً». منهج «الإصلاح بالإسلام». وهو في ذلك لا يبتدع، بل تُقدم الأصول على الفروع.

* وعلى هذا الدرب سار تلميذه محمد رشيد رضا و«جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» تحت قيادة الإمام عبد الحميد بن باديس.

درب عنوانه: تسلح المسلمين بالدين الإسلامي الحنيف لإحياء إسلامهم، ليكون لهم صدر عن منابع الجوهر، وهو العودة لأصول الإسلام. وليكون جديداً دائماً وأبداً بإنسان يقرن ويسبر الزمان؟!

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ١٠٩، ١٢١

المصادر والمراجع

ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م

ابن القيم: [إعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

الأفغاني ـ جمال الدين [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

عادل نويهض [معجم أعلام الجزائر] طبعة بيروت سنة ٤٠٠ هـ ـ سنة ١٩٨٠ م

محمد البشير الإبراهيمي [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

د. محمد حميد الله الحيدر آبادي ـ محقق [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م

محمد عبده ـ الأستاذ الإمام ـ [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة ـ دار الشروق ـ سنة ١٩٩٣م

د. محمد عمارة [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة ـ دار الشروق سنة ١٤٠٨هـ/ سنة ١٩٨٨م

محمد بن يوسف الصالحي الشامي: [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ـ طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ، سنة ١٩٩٧م.

(٤)

الإمام الأكبر الشيخ
محمود شلتوت

[١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ /١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م]

تقديم

في بعض الحوارات العلمية، التي دارت حول المعاملات المصرفية، سمعت شيخنا محمد الغزالي [١٣٣٥ـ١٤١٦هـ/ ١٩١٧ـ١٩٩٦م] رحمه الله في معرض تأييد الاجتهادات أستاذه الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ـ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ـ١٩٦٣م]ـ يقول:

ـ «أروني فقيهاً مثل الشيخ شلتوت»؟!.

نعم.. لقد صدق شيخنا الغزالي.. فلقد كان الشيخ شلتوت إمام فقهاء العصر الذي عاش فيه؛ ولعله كان أبرز فقهاء العقود التي أحاطت بمنتصف القرن العشرين.

ولم يكن فقه الشيخ شلتوت كفقه كثير من الفقهاء، الذين وقف فقههم عند فقه الأحكام، وإفتاء الأحياء بفتاوى الأموات، أو مجرد الترجيح بين الآراء في إطار مذهب من المذاهب الفقهية الشهيرة، وإنما كان فقهه فقهاً للواقع أولاً، وبحثاً للمشكلات ومستجدات هذا الواقع عن الضوابط الإسلامية في فقه الأحكام ثانياً، ثم تنزيلاً لفقه الأحكام على فقه الواقع، على النحو الذي يعقد القران الشرعي بينهما مع ملكه في فقه الواقع، وفي فقه الأحكام، وفي عقد القران بينهما مثلث «الجوهرة النفيسة» التي يفتقر إليها الكثيرون!

كذلك، تميز فقه هذا الإمام الجليل باتساع مساحة مرجعية القرآن الكريم وصحيح السنة فيه، بأكثر من مساحة الاجتهادات الفقهية الموروثة، وخاصة منها تلك التي ارتبطت بواقع تاريخي تجاوزه الزمان، وبخطة المصالح الشرعية المتجددة.

كما تميزت العبقرية لهذا الإمام بعظم «بالعدسة اللامة» التي رأت الدنيا بلها عنصر إسلامي، كما رأت الإسلام وأمته وعالمه في إطار كوني شامل وفسيح، وقد [illegible]

- ١ -

بطاقة حياة

- السيرة الحياتية
- والمسيرة العلمية

* في ٦ شوال سنة ١٣١٠هـ، ٢٣ أبريل سنة ١٨٩٣م ولد الشيخ محمود شلتوت [illegible] مصري.

* [illegible] على [illegible] الإسكندرية [illegible] سنة ١٣٢٤هـ / سنة ١٩٠٦م.. أي في العام التالي لوفاة الإمام محمد عبده.

[illegible] على تفوقه في [illegible] على [illegible] دراسته، حتى نال شهادة العالمية سنة ١٣٣٦هـ / سنة ١٩١٨م.

* وفي العام [illegible] سنة ١٣٣٧هـ [illegible] سنة ١٩١٩م [illegible] الإسكندرية الديني.

* وكانت كبرى ثورات الشعب المصري - ضد الاحتلال الإنجليزي - [illegible] في ذات العام [illegible] سنة ١٩١٩م [illegible] الشعب [illegible]

* ومع أن الشيخ محمود شلتوت لم يشتد ساعده على يد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، إلا أنه استطاع بعبقريته الفذة أن يجد له مكانًا في مدرسة الأستاذ الإمام المدرسة الإصلاحية التجديدية التي تؤمن بفكرته، وتعمل على تحقيقها، فتتلمذ على يد هذه المدرسة، وتلمذ الأستاذ الإمام، وفي مقدمتهم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي [١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٨١ - ١٩٤٥م] والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٦م] والإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم [١٢٩٥ - ١٣٧٤هـ/ ١٨٨٢ - ١٩٥٤م] وهم من كبار تلاميذ الشيخ محمد عبده، الذين تعلموا على يديه، وحضروا دروسه، وتدارسوا معه في جلسات خاصة، وكانوا من أقرب تلاميذه إليه، وأكثرهم تأثرًا بفكره، وأشدهم دعوة لاستقلال الأزهر عن السلطات الحاكمة، وعودة الأستاذية العالمية للأزهر.

وبذلك، فقد تولى الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر في ٢ ذي الحجة سنة ١٣٤٦هـ/ ٢٢ مايو سنة ١٩٢٨م، بعد أن سبقه الشيخ شلتوت، وعينه من مدرسي المعهد الإسكندري، في منصب رئيس قسم التخصص العالي - الجامعة - بالقاهرة، وهو القسم الذي كان يرأسه يومئذ من أعلام مدرسة الإصلاح والتجديد، الشيخ عبد المجيد سليم.

* وبعد ذلك، تولى الشيخ شلتوت رئاسة القسم نفسه، بعد أن أصبح يسمى بقسم التخصص بالأزهر الشريف. وهي أعلى مستويات التدريس.

* وعندما حدثت الأزمة الشهيرة بين الشيخ المراغي - شيخ الأزهر - وبين الملك أحمد فؤاد [١٢٨٤ - ١٣٥٥هـ/ ١٨٦٩ - ١٩٣٦م] بسبب إصرار المراغي على مطالبته لإصلاح الأزهر، وتجديد مناهجه، وتطهير كتبه وأقسامه ومعاهده، وتأكيد استقلاله، ومعارضة الملك فؤاد لهذه المشروعات، كان الشيخ شلتوت واحدًا من أهم كتاب المراغي ومشروعه الإصلاحي - التطهيري، فكتب عدة مقالات تحريضية «السياسة» يوميه، وألقى العديد من الخطب في الأندية والجلسات

وقد اختار المراغي شلتوت ليكون أحد أعضاء لجنة الأزهر - في جلستها المنعقدة سنة ١٣٤٩هـ/ ١٠ فبراير سنة ١٩٢٩م، بمنزل الشيخ محمد الخضري، لدراسة مشروع إصلاح الأزهر، الذي أعده الشيخ محمد أحمدي الظواهري [١٢٩٥ - ١٣٦٣هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٤٤م] وكيل الأزهر، وكبير من كبار علمائه المستنيرين، وشهد هذه الجلسة

مراعي في مشيخته، وتنفيذ مشروعه الإصلاحي، وقد استمرت فلاقل وحدث وصراعات عنيفة ثورة الأزهرية ضد المراغي عن مشيخته وبضعف قبضة الدولة للعلماء وطلاب الثائرين، وخاصة بعد ثورته المشهورة التي رئسها الشيخ عبد الرحمن قراعة [١٣٠٩ - ١٣٦٩هـ ١٨٧٥ - ١٩٥٠م] وهي ثورة التي تعقب دستور سنة ١٩٢٣م، وقد تعاقب لأسباب التي قضت بفصل الشيخ شلتوت من منصبه، ضمن الذين فصلوا من علماء الأزهر، في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ هـ ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣١م ويومئذ شغل الشيخ شلتوت بمحاماة شرعية مع شقيق صديقه الشيخ مصطفى عبد الرازق - الشيخ علي عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] الذي كان قد فصل من القضاء الشرعي سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥م بسبب كتابه عن [الإسلام وأصول الحكم]

وظل الشيخ شلتوت مفصولا من التدريس بالأزهر، وبعيدا عن الجامعة قرابة أربع سنوات ثم اضطر بعدئذ المؤدي إلى الرضوخ لإصرار علماء الأزهر وإصلاحه على عودته للمراغي، وانتهى في مشروع إصلاح الأزهر، وسعدت بعودته مدرسة الشريعة، عند الشيخ محمود شلتوت وكل المتطوعين إلى الأزهر، مدرسة الشريعة، في دار التعاونية سنة ١٣٥٣ هـ فبراير سنة ١٩٣٥م، بدار الوزارة توفيق نسيم باشا [١٣٥٧هـ ١٩٣٨ م] بعد أقل من شهرين عاد الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر في المحرم سنة ١٣٥٤هـ/ ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٥م..

* وتعاقبت قيادة المراغي للأزهر الشريف - وفي ظل مشروعه الإصلاحي لهيئة الجامعة لأعرق جامعة الأزهر تتواصل مع مجامع ومؤتمرات علمية عالمية، تستهدف تجديد الإسلام، منطق جديد. وتتفق الأضواء على تميز الأزهر منارة الإسلام، وهو ما من حدوث مشكلات لإيجاد حلها فشارك في مؤتمر تاريخ الأديان الدولي - السادس - بمدينة "اوكسفورد" - في جمادى الآخرة سنة ١٣٥٤هـ ١ - ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٥ م وشارك في هذا المؤتمر الشيخ مصطفى عبد الرازق وفد من الأزهر وعندما عقدت الدورة السابعة لمؤتمر المستشرقين الدولي في أثينا - في جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦هـ أيلول سنة ١٩٣٧م وقد وفد مصر العلماء الأزهريين، وكان عبد الرازق المتحدث الرسمي، فألقى الشيخ محمد

شلتوت ممثلا الأزهر في هذا المؤتمر العلمي، فقدم بحثا عن [مسئولية الدولة وخاصة في شريعة الإسلام] وكتب هذا البحث هي التي مهدت بعد ذلك إلى «هيئة كبار العلماء» سنة ١٣٦٠هـ / سنة ١٩٤١م فنال بها عضوية الهيئة. وكان يومئذ أصغر الأعضاء سنا في «هيئة كبار العلماء» أعلى هيئات العلم الإسلامي في العالم الإسلامي.

* وبعد ذلك عين الشيخ شلتوت في «لجنة الفتوى» بالأزهر الشريف.

* وقد كان حرص الشيخ مراغي على أن يكون الشيخ شلتوت ذلك الرجل الذي يدفع عجلة التدريس في الأزهر وقد دفع الشيخ الإصلاح والتجديد في الأزهر الشريف، عندما رقى الشيخ شلتوت من مدرس بكلية الشريعة إلى عضوية جماعة كبار العلماء سنة ١٣٥٨ هـ الموافق سنة ١٩٣٩م. فأراده مراغي أن يتسلم العمل في كلية الشريعة، ليشرف على خطة الإصلاح فيها.

* وعندما تم تأسيس «هيئة كبار العلماء» سنة ١٣٦٠هـ الموافق سنة ١٩٤١م، بدأت هذه الهيئة تفتح جميع أبواب «الاجتهاد» الإسلامي المعاصر في جميع الميادين، وذلك باقتراح

١ ـ إنشاء مكتب علمي يتحدى العالم بأسره، مهما رصد للهجوم على الإسلام، ويرد على هذه الهجمات، ويفند مزاعمها، ويرد الشبهة عن عقيدة وشريعة وحضارة الإسلام.

٢ ـ بحث المعاملات المستحدثة، لاستنباط الأحكام الفقهية الجديدة لهذه المعاملات التي لم يعرفها عصور وجهابذة الفقهاء.

٣ ـ وضع كتاب عن الإسرائيليات في التفسير لتنقيته وتنقيحه، بتنقية هذه التفاسير من تلك الإسرائيليات التي تعرض لتفسير آيات القرآن الكريم في ضلالات

٤ ـ تنقية الكتب الدينية من البدع والخرافات.

* وقد تبنت «هيئة كبار العلماء» هذه المقررات، وتألفت لتحقيق هذه المقاصد جميعا برئاسة الشيخ عبد المجيد سليم، وكان الشيخ شلتوت أحد أعضائها.

---

(١) انظر هذا البحث في كتابه [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٣٩٢ ـ ٤٢٩ طبعة دار القلم سنة ١٩٨٠م.

* في سنة ١٣٥٠ هـ = سنة ١٩٤٠ م عين الشيخ محمود شلتوت عضوا بمجمع البحوث الإسلامية، وكان عضوا عاملا، ثم عضوا عاملا غير متفرغ، ثم عضوا متفرغا، حتى وفاته. وقد عين معه في ذلك الوقت الأساتذة أحمد أمين (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م) عضوا عاملا، ومحمد مصطفى المراغي، ومحمد علي عبد الرازق، وعبد المجيد سليم، وعبد الرحمن تاج، ومحمد عرفة، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد فريد وجدي، وعبد العزيز البشري، ومحمد أبو زهرة، وعبد الوهاب خلاف، ومحمد علي السايس، وعبد الغني عبد الخالق، ومحمد أبو العيون، وعبد الرحمن حسن، وعبد العزيز عامر، وعبد الرحمن قراعة، ومحمد عرفة الدسوقي، ومحمد الغزالي، ومحمد سلام مدكور، ومحمد يوسف موسى، ومحمد أبو زهرة، وعبد الوهاب خلاف، ومحمد فريد وجدي [١٣١٠ - ١٣٨٧ هـ = ١٨٩٣ - ١٩٦٧ م].

* ثم عين عضوا بلجنة الفقه بمجمع البحوث الإسلامية، وكان رئيسا لها، وهي اللجنة التي وضعت مشروع «قانون الأحوال الشخصية» المستمد من الشريعة الإسلامية.

* في سنة ١٣٥٩ هـ = سنة ١٩٥٠ م عين الشيخ محمد عبد الله السمان مشيخة الأزهر، خلفا للشيخ شلتوت الذي عين رئيسا لقسم بحوث العقيدة والثقافة الإسلامية بالأزهر.

* وفي سنة ١٣٧٦ هـ = سنة ١٩٥٧ م، وفي ظل الجمهورية العربية المتحدة، أنشئت الأكاديمية الإسلامية، من خلال مؤتمر الفقه الإسلامي الذي دعا إليه الشيخ محمد شلتوت، وكان رئيسا لها حتى وفاته. وقد عين الشيخ شلتوت رئيسا لهذه الأكاديمية، التي كان لها أهمية وفاعلية في التواصل مع شعوب ومذاهب الأمة الإسلامية.

* وفي عهد الشيخ شلتوت عين وكيلا للأزهر، فحدث كثير من التغيرات والتطورات التي أسعدته وأسعدت محبيه، وأغضبت خصومه، فاضطر إلى الاستقالة من منصبه، وعاد إلى التدريس في كلية الشريعة، وظل يمارس نشاطه العلمي والفكري حتى وفاته. وقد عين عضوا بلجنة الفتوى بالأزهر، وعضوا في مجلس إدارته، وعضوا بلجنة الفقه بمجمع البحوث الإسلامية، ورئيسا للجنة الفقه والتشريع بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضوا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ورئيسا لتحرير مجلة «رسالة الإسلام». وله فتاوى شهيرة، أعيد نشرها في كتاب بعنوان «الفتاوى»، وكان أحد المشايخ القلائل الذين تعلموا على المذاهب الفقهية الثمانية المعروفة، وهي المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي، والمذهب الجعفري، والمذهب الزيدي، والمذهب الإباضي، والمذهب الظاهري، وكان يدرس هذه المذاهب في كلية الشريعة، ويفتي على ضوئها، ولا يتعصب لأحد منها.

وهو أقدم وأعرق وأكبر مجمع للعلم الإسلامي - جمع هذه المذاهب في المدارس والإقناع.

* وفي ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٧٨ هـ ٣ أكتوبر سنة ١٩٥٨م تولى الشيخ محمود شلتوت منصب الإمام الأكبر شيخ مجمع الأزهر، وفي موقعه - كشيخ للأزهر - له حظوة بتحقيق مشاريع الإصلاح والتجديد، التي طمح إليها وهو يتململ من التخلف حتى ذلك التاريخ. وفي ذلك مشروع إنشاء "المجمع البحوث الإسلامية"، الذي أعده لهيئة كبار علماء الأمة الإسلامية على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم - وهو المشروع الذي سبق وقدمه عبد المجيد سليم وكيلا للأزهر - فكان إنشاء هذا "المجمع" أهم هياكل مشروع تطوير الأزهر، الذي صدر به القانون رقم ١٠٣ سنة ١٩٦١م. وهو التطوير الذي حمله الشيخ شلتوت، وسار لإصلاح الذي بدأه الإمام محمد عبده والذي تخرج علماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، ودعاة للإسلام يجمعون في فقههم قوة الحق لعلوم عقيدته وإدراك حديثه وعصريته ومطالب الحياة، وذلك من وجهة حركة التطور وحاجته في كل زمان وفي كل مجتمع قاموسها. وجمعت المدارس والمعاهد بين علوم الأزهر وعلوم العصر وعلومه، فأصبح خريجوه مصريون وعصريون ومؤسساتهم، بعد وقف المسلمون، هبات وأعطيات عند «كليب» و«حلاوي»، مكتفين بحفظ القرآن وشيء من الفقه والتفسير والحديث، تاركين الدنيا ومؤسساتها للأقباط المصريين، وذلك خوفا على عقيدتهم من التغيير الذي قرب بعض المدارس علوم الدين، وبعض حديثه في مدارس الإرساليات التنصيرية!..

فجاء قانون تطوير الأزهر - الذي رعاه الشيخ شلتوت، والذي وضع بنوده، وكتب مذكرته الإيضاحية، وحدد أمور تطوير على الإسلام وفكره وتراثه. هو الأستاذ محمد سعيد العريان [١٣٢٣ - ١٣٨٤هـ ١٩٠٥ - ١٩٦٤م] يجعل الأزهر مؤسسة الإسلام العلمية الكبرى، ويجعل جامعته مكتبة للشريعة والعربية - مع الذي بني أحيانا حتى المسلمين في علوم الدين والدنيا - فجاء في بنده الثالثة من هذا القانون - عند الحديث عن رسالة الأزهر:

«الأزهر هو الهيئة الإسلامية الكبرى التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ودراسته، وتجليته ونشره، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر، ورقي الحضارة، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة؛ كما تهتم بسعة الحضارة العربية وانتراث العلمي و لفكري للأمة العربية، وإظهار أثر العرب في تطور الإنسانية وتقدمها. وتعمل على رقي الآداب وتقدم العلوم والفنون، وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية، وترويد العالم الإسلامي والوطن العربي بالمخلصين وأصحاب الرأي فيما يتصل بالشريعة الإسلامية، والثقافة الدينية و لعربية، ولغة القرآن، وتخريج علماء عاملين متفقهين في الدين، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح، كفاية علمية و عمليه ومهنيه، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك، وتأهيل عالم الدين للمشاركة في كل أسباب النشاط والإنتاج، والريادة والقدوة الطيبة للمشاركة في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية و لعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية»

كما جاء في المادة ٤ من القانون نفسه، فإن الأزهر يهدف إلى:

أولاً. أن يُبقي الأزهر، وأن يُدعم ليظل أكبر جامعة إسلامية، وأقدم جامعة في الشرق و لغرب

ثانيًا. أن يحتفظ كما كان منذ مئات السنين وحتى يومنا هذا، بالمعنى الإسلامي، ويتجدد ويتحيى في جوهره الأصيل، ويتسع ليشمل العلم في كل مستوى وفي كل بيئة، ويدافع عن كل ما يشوهه وكل ما يُرمى به»

* وكنتيجة لهذا القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م

دخلت هيئات الأزهر، وتضمن فيه لأول مرة في جميع مراحل دراسته، لأول مرة في تاريخه.

ـ تم إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية» ـ بشكل جديد «المجمع كما نعلمه»

- ... «المعهد العالي للشعوب الإسلامية» بمثابة الأمة الإسلامية جامعة لأكثر من ثمانين جنسية من جنسيات الشعوب والأقطار الإسلامية.

- ... «المعهد العالي للشعوب الإسلامية» يعتبر الأعداد والتوجيه ... الذي يؤهل الطلاب غير العرب للدراسة باللغة العربية.

- ودُرِّسَت المذاهب غير العربية - أوروبية وشرقية - بالأزهر.

- ... في كتب الشريعة بجامعة الأزهر وصبح اسمها الكتب «الشريعة والقانون».

... في الشريعة في جوهرها هي ...

- وأصبحت المعاهد الدينية - الابتدائية، والإعدادية، والثانوية - تعطي كل قرى مصر ... في مقررات من سنة ... بعد أن كان عددها في حدود ... مدرسة! كما أصبحت كليات جامعة الأزهر تعطي سنوياً مخصصات مصر، وكما توسع في تعريب في الكثير من الأقسام الخارجية، لشرقية منها والغربية. وكان الشيخ شلتوت هو صاحب الرؤية والتفكير الذي تحمس في هذا الإطار الكبير.

* وإذا كان «واقع» تطوير الأزهر الشريف لم يرتق إلى مستوى «آمال» الشيخ شلتوت من ورائه، فإن مرد ذلك عائد إلى «قصور» الذين قاموا «بالتطبيق والتنفيذ» - للدولة التي لا خبرة لها بهذا الحقل من حقول العلم والتعليم، والتي لم تكن تثق بنوايا شيوخ الأزهر تجاه توجهها إلى «الاشتراكية العلمية» التي رفعت شعاراتها في ذات الوقت التي بدأت فيها مسيرة التطوير! . وشيوخ الأزهر، الذين لم يتحمس الكثيرون منهم لهذا التطوير، لسوء ظنهم برجالات الثورة، واتجاهاتهم الاشتراكية - فانعكس سوء الظن هذا على مقاصد الدولة من وراء التطوير!.

* ... وقد بدأت هذه المأساة، عندما صمم الشيخ شلتوت ... على تطوير ... عندما رأى صحيح في التطوير! حتى بعد أن انتهت هذه المأساة فترة «السبعينيات»، لا أريد في الاختصاصات الإدارية، وبث عدد ... الأزهر» - وكان عدد فصلاً - بكل مخصصات الإدارية في الأزهر - ... هذا الاستثمار في الشعوب الإسلامية، الذي ...

تطوير، حتى أردت منصب شيخ الأزهر أن يكون ديني فقط، ولا علاقة له بالمناصب الإدارية في الأزهر، حتى دائرة مكتبه! فحاص الشيخ شلتوت معركة صاخبة، تخلى فيها عن المنصب وشجاعة، ضد هذا العبث على منصب مشيخة الأزهر. وكتب عبدالكريم شجاعة في رئيس تحريرها حسن عباس زكي [١٣٣٦ - ١٣٩٠هـ/ ١٩١٨ - ١٩٧٠م] وولي رئيس مجلس الوزراء على صبري منصب وزير الأوقاف - صفحات في كتاب شجاعة وكرامة وتسامح

فاستقر به الأمر في السيوفر طية، وتصيد الحمام وخرفي بشتون. وقد سئل عبدالكريم شجاعة من مشيخة الأزهر في ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ/ ٦ أغسطس سنة ١٩٦٣م. ورجاء في كتاب سئل يعتذر به عن الرئيس حسن عباس زكي عن أسباب هذه الاستقالة:

«... ولي أن أسندت وزارة شئون الأزهر إلى السيد الدكتور محمد الفحام، فسار بها في طريق لا تتفق مع رسالة الأزهر، وما يتبعه طلاب الإصلاح به، حتى مس كيانه، وصدع بنيانه، وفي هذه الفترة الأخيرة، التي جاوزت العشرة شهور، طلبت من جانبي أحيانا علاج ما ترتب على طريق سيره من مشكلات، وأدفع بقدر الاستطاعة عن حرمة الأزهر وحماه، ولم أدع فرصة إلا التمست فيها إلى المختصين عسى أن يهيئ الله من الظروف ما يستقيم معه المعوج ويصلح به الفاسد... ولكن الأمور أفلت زمامها من يدي، وانتقلت من سيء إلى أسوأ، حتى تحول الأزهر فعلا عن رسالته، ولم يصبح لمشيخة الأزهر وجود أو كيان.

ورأيت هذه الظروف السيئة المتجمعة، أحد شيئين أمام واحد من أمرين

إما أن أتمسك على تضييع أمانة الأزهر وهو ما لا أقبله على ديني وكرامتي

وإما أن أتقدم - آسفا - في هذه الظروف - بطلب إعفائي من حمل هذه الأمانة، التي أعتقد عن يقين أنكم تشاركوني المسئولية في حملها أمام الله والتاريخ

وذلك، فليس أمامي إلا أن أصبح استقالتي من مشيخة الأزهر بين يديكم، بعد أن حيل بيني وبين القيام بأمانتها.

والله أسأل أن يديم عليكم نعمة التوفيق في خدمة العروبة والإسلام، وأن ينهض الأزهر في عهدكم؛ حتى يظل للإسلام حصنا وتوطن المسلمين في مختلف الأقطار خيرا وبركة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

* وما لبث الشيخ محمود شلتوت أن أصابه مرض كما سبق وحدث للإمام محمد عبده - عندما خبر سنة وسن إصلاح الأزهر - فتوفي الشيخ شلتوت بعد خمسة أشهر من تقديمه الاستقالة، وصعدت روحه المطمئنة إلى بارئها راضية مرضية في ٢٧ رجب سنة ١٣٨٣هـ - ١٣ ديسمبر سنة ١٩٦٣م، في ذكرى الإسراء والمعراج بعد عمر امتد سبعين عاما، كان فيه منارة سامية للاستنارة والإصلاح والاجتهاد والتجديد.

* ولقد كان الشيخ شلتوت من طلائع أئمة الأزهر الذين تجاوزت شهرتهم وآثارهم وطن العروبة وعالم الإسلام، فمنح الدكتوراه الفخرية من جامعة «شيلي» بأمريكا اللاتينية - سنة ١٣٧٧هـ / سنة ١٩٥٨م

ومنح الدكتوراه الفخرية - أيضا - من جامعة جاكرتا - أكبر جامعات كبرى الدول الإسلامية

- كما منح وسام العرش المغربي - من الملك محمد الخامس [١٣٢٧ - ١٣٨٠هـ / ١٩٠٩ - ١٩٦١م] - سنة ١٣٧٩هـ / سنة ١٩٦٠م

* كذلك، ترك الشيخ شلتوت - غير الشجاعة في الحق - والنموذج الخلقي الرفيع والإنجازات العلمية الكبيرة - والنشاط الفكري والدعوي والاجتماعي - ذخيرة من الأعمال العلمية التي ضمت مشروعه الفكري في الاجتهاد والتجديد، ومن أهم هذه الأعمال العلمية:

١ - فقه القرآن والسنة.

٢ - مقارنة المذاهب.

٣ - يسألونك - [وهي إجابات عن أسئلة إذاعية]

٤ - منهج القرآن في بناء المجتمع.

٥ - المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية

٦ - القرآن والقتال.

٧ - القرآن والمرأة

٨ ـ تنظيم العلاقات الدولية في الإسلام.

٩ ـ الإسلام والوجود الدولي للمسلمين

١٠ ـ تنظيم النسل.

١١ ـ رسالة الأزهر.

١٢ ـ في القرآن الكريم

١٣ ـ الإسلام عقيدة وشريعة ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م

١٤ ـ من توجيهات الإسلام ـ طبعة دار الشروق ـ السابعة ـ القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م

١٥ ـ الفتاوى ـ طبعة دار الشروق ـ العاشرة ـ سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م

١٦ ـ تفسير القرآن الكريم ـ [عشرة الأجزاء الأولى] ـ طبعة دار الشروق ـ السابعة ـ سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م.

ـ ولقد ضمت طبعة دار الشروق لكتبه الأربعة الأخيرة أغلب دراساته الأخرى فكأنها قريبة من أعماله الفكرية الكاملة

* تلك هي أبرز معالم هذه السيرة العطرة ـ والسيرة العلمية الخصبة لهذا الإمام العظيم ـ الشيخ محمود شلتوت ـ عليه رحمة الله[1].

* * *

(١) انظر في وقائع سيرة الشيخ شلتوت ـ علي عبد العظيم [مشيخة الأزهر] جـ ٢ ص ١٧٩ ـ ٢٤٣، طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م

ـ٢ـ

المدرسة الفكرية: مدرسة الإحياء والتجديد

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] [٣٠٢ [illegible] ١٣ [illegible] ٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] [illegible] [٢٩٩ ـ ٣١٤ [illegible]
١٨١٢ ـ ٩٥٤ [illegible]] ومحمد [illegible] [١٢٨٩ ـ ٣٤٥ [illegible] ٨٧٢ ـ ١٩٢١م] [illegible]
[illegible] [١٣٠٤ [illegible] ٨٨٨ ـ ٩٨٠م] [illegible] [٢٩٣
١٣١٧ [illegible] ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م] [illegible] [١٢٩ ـ ١٣٦٤ [illegible] ٨١٤ [illegible] ٩٠٥ [illegible]
[illegible] [٢٨٦ ـ ١٣٦٦ [illegible] ٨٦٩ [illegible] ٩٤٦ [illegible]] [illegible]
[١٣ [illegible] ٣٩ [illegible] ٨٩٥ ـ ٩١ [illegible]] [illegible] [٦ [illegible] ٣٩٤ [illegible] ١٨٩٩
٩٧٤ م] [illegible] [١٣٠٨ ـ ٣٩٨ [illegible] ١٩ ـ ٩٧١ م] [illegible]
[illegible] [١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ [illegible] ٨٨٨ ـ ١٩٥٦م] [illegible] [٣ [illegible] ٣١٥ [illegible]
٨٩٥ ـ ١٩٣٦م] [illegible] [١٣١٢ ـ ٣٧٩ [illegible] ٨٩٤ ـ ٩٥٩م]
[illegible] [١٢٩٥ ـ ٣٧٣ [illegible] ٨٧٨ ـ ٩٥٤ [illegible]] [illegible] [٣٢٤
٣٦٨ [illegible] ٩٠٦ ـ ٩٤٩ م] [illegible] [١٣٢٥ ـ ٣٨٨ [illegible] ٩٠١ ـ ٩٦٨ م]
[illegible] [١٣ [illegible] ٣٩٦ [illegible] ١٨٩٣ ـ ١٩٧٦م] [illegible] [٣٢٣ ـ
٤٠٢ [illegible] ٩٠٥ ـ ٩٨٢ م] [illegible] [٣٢٥ ـ ٤٠٥ [illegible] ٩٠٧ ـ
١٩٨٥م] [illegible] [١٣٠٦ ـ ١٣٨٣ [illegible] ١٨٩٩ ـ ١٩٦٤م] [illegible]
[١٣٣٥ [illegible] ٩١٧ ـ ١٩٩٦م] [illegible] [١٢٨٩ ـ ٣٥٧ [illegible] ٨٧٣ ـ
٩٣٨ م] [illegible] [١٣٠٥ ـ ٣٥٩ [illegible] ٨٨٧ ـ ٩٤٠ م] [illegible]
[illegible] [١٣٠٦ ـ ١٣٨٥ [illegible] ١٨٨٩ ـ ٩٦٥ م] [illegible] [١٣٢٠
١٣٩٤ [illegible] ٩٠٨ ـ ٩٧٤ م] [illegible] [٢٩٦ ـ ١٣٩٣ [illegible] ١٨٧٩
١٩٧٣م] [illegible] [٣٢٧ ـ ٣٩٠ [illegible] ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠م] [illegible]
[illegible] [١٣٢٣ ـ ١٣٩٣ [illegible] ٩٠٥ ـ ١٩٧٣م] [illegible]
مدرسة الإحياء والتجديد.

* * *

[illegible] التي
[illegible] الأصول [illegible]
الأصول هو:

١ ـ نقد ورفض الجمود والتقليد

[illegible]

نعم الله، سبحانه وتعالى، به على الإنسان، كما أنه كخليفته الله على الأرض يحوطه ويحميه ويصونه ويحمده على «فروع» فكرى خرصب وتحوض عنه فكريات تغريب الإسلام حضارى، التى حاولت بلادنا فى ظل تبعيتها الإقليمية الغربية الحديثة، فى ملاهى... لا أمر فكك الإسلام سحقه هو من

ث، كل بعد ورفض مدرسة الإحياء والتجديد بجموده التقليد عن ومضف، والتحديد؛ لأن هذا الأصل هو تلك التخطيم القسود التى تحول بين الأمة وبين الانطلاق من مدرك حضارى لذى ردت فيه ... التى تمثل بحسب موروث حضارى وحيى عمقه، بعد يمثل الإسلام فكرى وحضارى بمعنى وحيه ... بعقله ... الحضارى

ولقد كان بعد ورفض مدرسة الإحياء والتجديد بجموده التقليد عن ومضف، سواء أكان تقليدا للغرب، وجمود على فكرة التغريب، أو تقبلا للحرب الأسلاف والتراث موروث.

ذلك «لأن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى - [كما يقول الأفغانى] - ليسوا أردأ تلك العلوم التى ينقلونها والتمدن الغربى هو، فى الحقيقة، تمدن البلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى. ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها مثل تطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»[1].

فتغريب فكرية حضارة الغربية على ... يحتم «عملاء» لا «علماء» ... ذلك ... حضارة الإسلامية، المؤسس على تمر شريعة الإسلامية، ... تغريبين حضارة الغربية ... بحيث يتكون نموذج فى لإحياء ... سبحانه و... تمدنية هذه الحضارة الأوروبية - كما يقول الإمام محمد عبده - «هى مدنية الملك و لسلطان، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفحفحة و لبهرج، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها

---

[1] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جـ ٢، ص ٩٥ - ٩٧، تحقيق د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.

الأعلى هو «الجنيه» عند قوم، و«الليرا» عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك»[1].

ونقترب من هذا التقليد «للآخر الغربي» [illegible] الأسلاف [illegible] الجمود على [illegible] الحضاري الإسلامي، [illegible] في [illegible] لا [illegible] «الفراغ الفكري» الذي يتمادى فيه فكر «الأعداء» و«العملاء»[2].

ولذلك، كانت «سلفية الجمود على ظواهر النصوص» - كما يقول الإمام محمد عبده - «أضيق عطنا، وأخرج صدرا من المقلدين، وهي وإن أنكرت كثيرا من البدع، ونحّت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه؛ فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء».

[illegible] الأدبيات [illegible] لا [illegible] العلوم [illegible] لأنهم [illegible] تلك العلوم [illegible] بملابسات نشأتها وخصوصيات [illegible] وتقررت [illegible] مع [illegible] النصوص [illegible] هذه النصوص.

ذلك هو الأصل الفكري [illegible] من الأصول [illegible] الفكرية [illegible] الإحياء والتجديد، التي كان الشيخ شلتوت واحدا من أعلام علمائها.

٢- وثاني هذه الأصول: هو التجديد

[illegible] الجمود [illegible] شاملا [illegible] في هذا الجمود [illegible] الآخر الحضاري [illegible] وعلو الجمود [illegible]

---

(١) [illegible] محمد عبده [illegible] ٢٠٥ [illegible] سنة ١٩٩٣م

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٤

[illegible] لعدل المتوازن بين هذين المعنيين.

وهذا التجديد، الذي يجمع بين سعة العودة للمنابع والأصول الإسلامية، وبين عصرية فقه الواقع المعاش، والتشوف للمستقبل، هو في اعتقدي التفكير الإسلامي الأكثر من مجرد «حضارة» لأنه «صيرورة إسلامية» فتصدها وتقصيها كون الأمة الإسلامية هي الشريعة «الغائية» الخاتمة، إذ دون التجديد، الذي يحافظ على ثوابت الإسلامية كي لا تحدث قطيعة معرفية مع الأصول، وتفتح الباب أمام [illegible] إسلامية، الذي يجد في تجديد فقه واقعي لتلك الشريعة المقاصدية التي تتصل بها الإسلام، والتي تقدم هذه الشريعة الخالدة في الزمان والمكان، وهو عصر وحي وتنزيل، [illegible] عصورية الإسلام الشريعة الإسلامية من أن تكون «الغائية» حقاً، ولا الخاتمة حق أن تكون محمد هو السبيل لتحقيق رحمة الله بعباده، وبالتالي، لا تكون شريعة محمد [illegible] ورسالته هي الغائية، وخاتمة الرسالات السماوية، ولا تتصل حجته على عباده قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وبهذه الحقيقة من حقائق الإسلام تكون مدرسة لإحياء التجديد، كما في جيوب هذه المدرسة تعلم على طريق التجديد في الإسلام، التجديد الذي يتصل

وانطلاقاً من التفكير السنوي، الذي جعل التجديد سنة من سنن الله، وقدراً من قدره التفكير الإسلامي «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» رواه أبو داود، والذي جعل التجديد عاماً في كل زمان ومكان «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم» رواه الطبراني. «جددوا إيمانكم» قيل يا رسول الله وكيف نجدد إيمانكم؟ قال «أكثروا من قول لا إله إلا الله» رواه الإمام أحمد.

وانطلاقاً من هذه التوجيهات النبوية، التي جعلت التجديد سنة وقدراً وفريضة، أصبحت مدرسة لإحياء التجديد معلماً هاماً من معالم التجديد، فكان الإمام محمد عبده: «لقد دعوت إلى

* تحرير الفكر من قيد التقليد.

* وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف

* والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى

* واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري.

* وإصلاح أساليب اللغة العربية

* والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

وقد حالفت في الدعوة إلى ذلك رأي طلاب علوم الدين، ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر، ومن هو في ناحيتهم»[1].

٢ ـ وثالث هذه الأصول هو الإصلاح بالإسلام

وليس نموذج حضاري الغربي الوضعي والعلماني، الذي اقتحم عالم الإسلام في ركاب الغزوة الأوروبية الحديثة.

[illegible]

فإن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق، وذلك بتوفيقها على الوجه، ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المدافع العمومية ... إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحاط بالسقي وارتوى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية؛ لأنها أصل

(١) نفس السابق جـ٢ ص ٣١٨

وجميع مذاهب السياسات عنه بمعزل لفرع . و لتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لك أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لك أن تعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه. . فيسعى تعميم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة. ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكَّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركبوا فيها تحسيب وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدي الحدود.

وعلى ذلك الأصل . الإصلاح بالإسلام لا [illegible] لأنه كما قلنا حكم الله الأعلى "إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان وإنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا، فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة الانحطاط وتأخرنا إلا عن هذا الطريق، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط؛ لأنا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوروبية، وهو تقييد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التي من شأنها رفع رتبة السيطرة والغلب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي

ولقد ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط في سيطرة المسلمين كانت من بداية حرب الصليب، والأليق أن يقال: إن ابتداء ضعف المسلمين كان يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد البشرية (الدهرية) في صورة الدين، وسريان هذه السموم الفاتكة في نفوس المسلمين. . فكان الخلل والهبوط من طرح أصول الدين، وبدؤها ظهر، والعلاج إنما يكون برجوع الأمة إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته. ولا سبيل لليأس والقنوط؛ فإن جراثيم الدين متأصلة في النفوس، والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نَفَسُها في جميع الأرواح لأقرب وقت . فإذا قاموا،

[illegible] ج ٣ ص ٥٩ ، ١٢٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧ [illegible]
[illegible] ١٣٧٣ هـ

وجعلوا أصول دينهم الحقة نُصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا منتهى الكمال الإنساني. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططاً. ولن يزيدها إلا نحساً، ولن يكسبها إلا تعساً»[1].

وفي ذات المعنى، لإصلاح والإسلام، يقول الإمام محمد عبده: «إن البذرة لا تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتمرس بهوائها، وإلا ماتت البذرة، بدون عيب على طبيعة الأرض وجودتها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما العيب على البادر. ولقد أشربت أنفس الأمة التقليد في الدين، حتى صار طبعاً فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين، فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي [١٢٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ/ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م] إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يردوا إلا فساداً. وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات، فما لم تكن معارفهم نعمة وادة لهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم..

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنه؛ فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العربية عن صيغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً. وإذا كان الدين كفلا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم نعدل عنه إلى غيره؟!»[2].

٤ ـ ورائع هذه الأصول هو الوسطية الإسلامية

ذلك أن الجمود والتقليد، إذا كان للعرف، فهو تطرف يرى «الآخر الحضاري» ويعمى عن «الذات الحضارية». وإذا كان للتحضر، فهو تطرف يرى «الذات الحضارية» ويعمى عن «الآخر الحضاري». وبين التطرفين، يتحيل الحضاري الذي يتمسك بالوسطية الجامعة في صيغة واحدة.

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣١، ١٧٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ١٦١، ١٩٧، ٩٩

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ١٠٩، ٢٣١

[illegible] التي [illegible] الإسلام وشريعته [illegible] الأصول والفروع، بين الثوابت والمتغيرات، [illegible] الموروث الصالح [illegible] ذلك كانت هذه الوسطية [illegible] الأمة الإسلامية "جعلاً" [illegible] ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وفسرها رسول الله ﷺ، بأنها العدل الذي يجمع [illegible] من الأطراف والمتضادات المختلفة، وأحيانا متضادة، [illegible] وسطا [illegible] "الوسط العدل، جعلناكم أمة وسطا" - رواه الإمام أحمد.

[illegible] من [illegible] فكر مدرسة [illegible] جعل الإسلام [illegible] الإمام محمد عبده: "ظهر الإسلام، لا روحيا مجردا، ولا جسديا جامدا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، أخذا من كلا القبيلين نصيب، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره؛ ولذلك سمي نفسه دين الفطرة، وعرف به ذلك خصومه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية"[1].

٥- وخامس هذه الأصول هو العقلانية المؤمنة

[illegible] على [illegible] النصوص، [illegible] على [illegible] كما [illegible] هذه العقلانية الإسلامية [illegible] عن العقلانية [illegible] خلت من النقل والوحي والإيمان الديني.. [illegible] عن العقلانية [illegible] الحديثة، التي جاءت [illegible] ثورتها على [illegible] واللاهوت [illegible] فكانت العقلانية الإسلامية [illegible] بالإيمان [illegible] الدين، وحياة ونبوة ورسالة.. ومناطا للتكليف [illegible] الشبهات عن [illegible] وذلك فضلا عن كونها شكرا لله، سبحانه وتعالى، الذي أنعم

---

[1] [illegible] ج٣ ص ٢٤٢

نعمة تعمر على الإنسان ... ينبغي تتبع نعمه لا يمكن للإنسان أن يعرف قدرها، كي يشكر الله عليها ».

... شاعت في ... هذه المدرسة لإحياء أحاديث علماء الإسلام فيهم ... فالعقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل قوى الإنسان على الحقيقة. . وهو يسوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة. . أما النقل فهو اليسوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، و بعدات ».

فهذه العقلانية الإسلامية، الجامعة قد آخت بين العقل والنقل، بين الحكمة و الشريعة، على نحو من صوره ... حمل عليه ... الإسلام بوجه ... العربي [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١١٢م] عندما قال: «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من طن وجوب الجمود على التقليد، و تباع ظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر. وأن من تعمق في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر؛ فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. فمثال العقل، البصر السليم عن الآفات والأذاء، ومثال القرآن، الشمس المنتشرة الضياء، فأحق بأن يكون طالب الاهتداء المستعين إذ استغنى بأحدهما عن الآخر في عمار الأعياء. فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثاله، المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العمياء. فالعقل مع الشرع نور على نور »[1].

و... العقلانية المؤمنة عن "الخصوم المتصوفين"، ... من يكتفي بوقوف ... ظواهر النصوص فيسكن ... ويتعصب لهذه النصوص. كما ... عن العقلانية الإسلامية، التي ... العقل ... بالنقل عن الوحي ... النصوص، ... فكما ... النقلي عن العقل والكشف والمحققون بعلمه شهادة من عنده بالغيب، وظاهر حجته ... غيب وراء هذا الظاهر، ... به في كونه النصوص عن ... في ... كما ... النصوص. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦) يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٦، ٧]..

---

(١) المصدر السابق، جـ٥ ص ٤٢٨، جـ٣ ص ٢٩٨، ٣٢٥

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٣٢، طبعة مكتبة صبيح، القاهرة، بدون تاريخ

وبهذه العقلانية المؤمنة تنتفي شبهات متناقضة، تمثل في مقتضى فيها "السلفية النصوصية" و"الوضعية الغربية" حيث أقر منها في فكر مدرسة الإحياء والتجديد المعجزة الإسلامية - غير الكبرى - عقلانية؛ لأن معجزته هي خارقة "المعجزة "والقرآن - وهو المعجز الخارق - دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم... فهو معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضي فيه، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها... فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يُغشّي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية... فتآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، وبتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل... والله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا، ومضيع لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التي تركنا كتبهم فريسة للأتربة وأكلة للسوس، بينما انتفعت بها أمم أخرى أصبحت الآن تُنعَتْ باسم النور!

والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه، حتى اقتنع به، فمن رُبّي على التسليم بغير عقل، والعمل - ولو صالحا - بغير فقه، فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس المقصود من الإيمان أن يُذلّل الإنسان للخير كما يُذلّل الحيوان؛ بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير؛ لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر؛ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده... فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا دونه!"(1)

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٣٥٦، ٣٥٧، ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨٠، جـ٤ ص ٤١٤

وإذا حدث تعارض بين النقل والعقل فإن ذلك لا يعدو أن يكون تعارضا بين حقيقة ونقل وبين توهم للعقل، وبين صريح المعقول وبين ما يظن أنه معقول - وليس حقيقة بعقل - «فلقد اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلا ممن لا يعتد بهم، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريقة الثانية تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أدته العقل»[1].

ومع هذا الإعلاء المقدم للعقلانية المؤمنة، فإن ابن رشد في فكر هذه المدرسة الأندلسية الحر، والمتحرر من العقلانية الأفلاطونية التي تكتفي بالعقل عن النقل، والتي تستغني بالنقل عن العقل وتكتفي به، فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة؛ اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن؛ فقد كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعا، ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويُفْقَدُ ما قُصِدَ بوضعها «وإذا قدَّرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله، إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني. أما الوصول إلى كُنْه حقيقة فمما لا تنهض قوته.. ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده. لهذا كان العقل محتاجا إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة»[2].

٦ - وسادس هذه الأصول الفكرية: الوعي بسنن الله الكونية

هناك في الحكم سنن عزم محتوم بها، وهي كمثل قوة عدد عدم الاجتماع للناس، في التقدم والتخلف، في الهبوط والانحطاط، في الانتصار والهزيمة، وفي التدافع بين الدعوات والأمم والحضارات.

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٣٠١

(٢) المصدر السابق ج٣ ص ٣١٢، ٤١٤، ٤٢٦، ٣٧٩، ٣٩٧

لقد دعت أدبيات هذه المدرسة الإحيائية إلى تأسيس علم السنن، [illegible] الإلهية في الاجتماع الإنساني، وقال الإمام محمد عبده - في تفسيره قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [آل عمران: ١٣٧] «إن إرشاد الله إيانا أن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبيّنها العلماء بالتفصيل، عملا بإرشاده، كالتوحيد وأصول الفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلّنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها. إن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل، وهي التي تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين. ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه؛ فإن عقل عن ذلك عاقل، لا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع في الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرّر، أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه..»[1]

وبالوعي بهذه السنن الإلهية في الكون، والاجتماع الإنساني، تسقط ثنائية التناقض الموهوم بين الإيمان الديني والقضاء الإلهي، وبين الأسباب التي أودعها خالق الكون ومسبب الأسباب في الكون المخلوق، ذلك «أن القول بنفي الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين - [مثل النصرانية] - ورد في كتابه: أن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحوّل عن مكانك فيتحوّل الجبل! يليق بأهل دين تُعَدُّ الصلاة وحدها، إذا أخلص المصلي فيها، كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري! وليس هذا الدين هو دين الإسلام. دين الإسلام هو الذي جاء في كتابه: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ [التوبة: ١٠٥] ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: ٦٢] - وأمثالها

[illegible]

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية؛ إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله! [1]

٧ـ وسابع هذه الأصول،

ان الدولة في الإسلام ـ مدنية ـ إسلامية ... لا كهنوتية.. ولا علمانية

فالإنسان مُستخلف لله ـ سبحانه وتعالى ـ لاستعمار الأرض ـ الذي هو جزء من عبادته لله وشكره على تسخيره ما سخر له هذا الإنسان من نعم وطاقات وقوى وممكنات. ولأن الإسلام هو دين الجماعة، الشاهد المتفرد، والمؤسسة على الأمر في الأمة وليس الفرد، والطبقة هي مركز الخلافة والاستخلاف. ولأن الله تعالى بعد ذلك، فقد كان من تحقيق تحقيقه، وعبادته، وعبوديته لله رب العالمين، وإيمانه بالله تعالى بتصويب مناهج الجماعة والأمم في هذه الحياة الدنيا، كانت شريعة الإسلام هي سند عقد وعهد الاستخلاف الإلهي للإنسان.

ولأن "الدولة" لم تولد في أصول الإسلام، ولا في أركان الإسلام، ولا في أي ركن من "نظم الحياة" المتفرعة عن الإسلام، وجزء من الاجتهادات المشتقة منها، لتنظيم الجماعة المؤمنة لتحقيق مقاصد الدين وغاياته، التي لا تقوم بغير هذه "النظم". فالدولة "واجب مدني" لا تقوم بدونه "الواجبات الدينية"، وهي صاحبة السلطة والسلطان فيها هو الأمة، بشرط لا تخرج هذه السلطة ولا هذا السلطان عن الشريعة التي هي سند عقد وعهد الاستخلاف ـ "فالأمة" مُستخلفة عن "الله" و"الدولة" مُستخلفة عن الأمة. وكلاهما ـ "الأمة" و"الدولة" ـ محكومة بمقاصد ونصوص الشريعة.

وبهذا المنظور تحررت الدولة الإسلامية من دولة الكهنة المتسلطة التي دمجت الدولة في الدين، وغابت عنها الأمة. ومن دولة العلمانية التي فصلت بين الدولة والدين، فغابت عنها الشريعة.

---

(١) المصدر السابق، جـ٣ ص ٥٠٢

وعن هذا الأصل من أصول التفكير في مدرسة الإحياء الديني، يقول الإمام محمد عبده: «ليس في الإسلام سلطة دينية، سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتحذير من الشر، وهي سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.

أصل من أصول الإسلام ـ وما أجلّه من أصل ـ قلب السلطة الدينية و لإتيان عليها من أساسها. هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم. ولم يدع الإسلام لأحد، بعد الله ورسوله، سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه، فليس في الإسلام ما يسمّى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه. و لإسلام يجعل الأمة، أو نائب الأمة هو الذي ينصب الخليفة، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج «ثيوكراتيك» أي سلطان إلهي.

وكذلك القاضي، والمفتي، وشيخ الإسلام. لم يجعل الإسلام لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية، قدّرها الشرع الإسلامي، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدّعي حق السيطرة على إيمان أحد، أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريقة نظره..

إن الإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، وهي دعوى القداسة والوساطة عند الله، ودعوى التشريع والقول على الله دون (دين الله)، أو السلطة الدنيوية، وهي سلطة الملك والاستبداد. فالمؤمن لا يرضى لنفسه أن يكون عبداً لبشر مثله للقب ديني أو دنيوي، وقد أعزه الله بالإيمان، وإن أئمة الدين مبلغون لما شرعه الله، وأئمة الدنيا منفذون لأحكام الله، وإنما الخضوع الديني لله ولشرعه، لا لشخوصهم وألقابهم.

ومع هذا فالإسلام دين وشرع. لم يدع ما للقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله.. فكان الإسلام كمالا للشخص،

وألفة في البيت، ونظاما للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه..»[1]

وهذه الدولة «الإسلامية ـ المدنية»، يمكن ـ في ظل التنوع الإسلامي في الألسنة واللغات ـ أي الأقوام ـ والتعدد في الأقاليم ـ أي الأوطان ـ أن تحقق وحدة الأمة، ووحدة دار الإسلام، دون أن تكون دولة مركزية واحدة، وذلك إذا تخلّصت أقاليمها وأوطانها وأقطارها من حواجز «الجنسية» ـ التي جاءتنا من الدولة القومية الأوروبية ـ وإذا اجتمعت دولها ـ تحت مظلة الجامعة الإسلامية ـ على جوامع الإسلام «فوطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذي ينوي الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه وعيشه يجري عليه عرفه، وينفذ فيه حكمه.. فهو رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته.. أما الجنسية فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجري عليهم.. وإنما هي عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية. ولقد جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها والاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها، لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره..»[2]

ومع تنوع أقاليم وأقطار وقوميات الجامعة الإسلامية، تكون جوامع القرآن من العقيدة والشريعة هي قبلة الجميع، فعالم الإسلام «دول متصلة الأراضي، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن. واتفاقهم هو من أصول دينهم ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠] وبهذه الوحدة يقيمون سدًّا يحوّل عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من كل الجوانب. لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا؛ فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن،

(١) المصدر السابق: جـ٣ ص ٢٣٣، ٢٨٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦، جـ٤ ص ٤١٢

(٢) المصدر السابق: جـ٢ ص ٥ [illegible]

ووجهة وحدتهم الدين، وكل دي ملك على ملكه. فهذا، بعد كونه أساسًا لديهم، تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات "[1]

٨ـ والأصل الثامن من أصول فكر هذه المدرسة الإحيائية، هو الشورى

[illegible] الإسلامية [illegible] الاجتماع الإسلامي [illegible] الشورى، التي يشترك فيها ويها كل [illegible] في تحقيق نفعه. وذلك من خلال [illegible] الشورية والمسئولة والدستورية "فلا بد من إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، وذلك بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين. والقوة التشريعية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس أمته. وبذلك يشارك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح.. والأمة هي التي تُملِّك حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي، وتتوجه على هذا القسم، وتعلقه به. يبقى التاج على رأسه ما بقي هو محافظ أمين على صون الدستور، وأنه إذ حنث بقسمه وخان دستور الأمة، بما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس "[2] "وقد كان المسلمون في عصر الأول على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة، حتى كان الصعلوك من رعية الإنس يأمر مثل عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ وينهاه فيما يرى أنه الصواب.. "[3].

٩ـ وتتسع هذه الأصول الفكرية هو العدالة الاجتماعية

التي تحقق [illegible] الاجتماعي بين [illegible] فالإخاء الذي عقده المصطفى ﷺ بين المهاجرين والأنصار كان أشرف عمل تجلّى به قبول اشتراكية الإسلام الوسطية التي أشار إليها القرآن بأدلة كثيرة. والمعايرة لاشتراكية الغرب القائمة على التطرف وروح الانتقام من جور الحكام والأحكام. ذلك أن تنعم فريق من قوم وشقاء فريق

[illegible] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ج ٣ ص ٢٨، ٢٩، [illegible] ضبطه وصححه [illegible] سنة ١٩٦٨ م.

٢ ـ [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩ ـ ضبطه وصححه سنة ١٩٦٨ م.

(٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص ٥٩.

آخر، في محيط واحد، وبمساع ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت، مما لا يتم به نظام الاجتماع..»[1].

[illegible] «على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم»[2].

١٠ـ وعاشر هذه الأصول هو إنصاف المرأة

[illegible] عن [illegible] الإنصاف [illegible] في بناء الأمة. «فالأمة تتكون من البيوت (العائلات)، فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة. والرجل والمرأة يتماثلان في الحقوق والأعمال، كما أنهما يتماثلان في الذات والشعور والعقل. والآية القرآنية ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٨] هي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق، إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذا الأمر ـ القوامة ـ يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء، ذلك أن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس.. يرجع إلى رأيه في الخلاف كي لا تنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام. والرئاسة هنا إرشاد ومراقبة وملاحظة، وليست قهرا ولا سلبا للإرادة. فالمرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن. وكلاهما بشر تام، له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويُسَرُّ به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة

---

[1] [illegible] الأفغاني] ص ٤٠٤ـ٤٠٧.

[2] [illegible] الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٥ ص ١٩٤.

المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام بحقوقه.. أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم؛ فإنهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم!..»

* * *

تلك هي الأصول الفكرية العشرة لمدرسة الإحياء والتجديد التي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني، والتي فصل أصولها الفكرية الإمام محمد عبده.

وهي المدرسة التي تربى على أصولها الفكرية الشيخ محمود شلتوت، حتى صار علماً من أعلام علمائها، وإماماً كبيراً في السلسلة الذهبية لأئمتها، وامتداداً متطوراً لإحيائها وتجديدها، فهي مفتاح إلهم والدراسة لموقف وموقع وإنجاز هذا الإمام العظيم.

* * *

(١) المصدر السابق، جـ٤ ص ٦

(٣)

المشروع الفكرى

تجديد الدين الإسلامى.. لتتجدد به دنيا المسلمين

(أ) الاجتهاد والتجديد

كان الشيخ محمود شلتوت رائداً من رواد النهضة الإسلامية، وواعياً بأن لم يقدم الإسلام نموذجاً حضارياً لنهضة الأمة الإسلامية، فإن النموذج الغربي الأدبي، الذي يبشر به الاستعمار والمتغربون من أبناء الشرق، جاهز لملء الفراغ الذي يصنعه الجمود والتقليد. ولذلك كان جهاده - على امتداد ما يقرب من نصف قرن أكثر من أجل تجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين. وكثيراً ما تحدث عن الإسلام باعتباره «دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم». وعن رسول الإسلام ﷺ «الذي لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، والذي لم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين (٥٠) أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾

[العنكبوت: ٥٠، ٥١]

وتحدث عن القرآن الكريم «الذي ارتفع بالعقل، وسجل أن إهماله في الدنيا سيكون سبباً في عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجري على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠].

«وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل، ودين العلم، أنه حذّر من اتباع الظن، وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومن هنا كثرت آيات القرآن الواردة في ذم التقليد والجمود على ما كان عليه سلفهم، وجرى الخلف وراء السلف، دون نظر واستدلال. وكأنهم يرون أن السبق الزمني يخلع على خطة السابقين وآرائهم في المعتقدات، وأفهامهم في النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان، فالتزموها وتقيدوا بها، وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان، خاصة البحث والنظر ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ [البقرة: ١٧٠]. «فالجمود عند الموروث، والاكتفاء به مصادم لما تقضي به طبيعة الكون وطبيعة كل حي من النمو والتوليد. والتناسل الفكري كالتناسل النباتي والحيواني والإنساني، كلاهما شأن لا بد منه في الحياة، ولو وقف التناسل الفكري لارتطم الإنسان في حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التي هو منها، وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية. فيتحقق فشله في القيام بمهمة الخلافة الأرضية التي اختير لها، ووكلت إليه منذ القدم»..

«وكذلك.. فالجمود على آراء المتقدمين، لمجرد أنهم متقدمون، فيه سلب لمزية الإنسان في التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم. فيقاد بالزمام، وزمامه صور الآباء والأجداد، فهو دائما تجذبه القهقرى، ولا تجد من نفسه عونا على التقدم، فيقع في ضيق من الحياة المتجددة حوله ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ [الأعراف: ٢٨].. ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صولة الطبيعة النامية، فتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون.

فالجمود جناية على الفطرة البشرية، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان، وإهدار لحجة الله على عباده، وتمسك بما لا وزن له عند الله..»

[illegible] «التجديد الانقلابي» [illegible] العقلية الإسلامية عامة، وذلك حتى تكون

[illegible] القاهرة سنة ١٤٠٠هـ - سنة ١٩٨٠م

عصور الأزهر خصائص، هي مرجعته بفكره إلى عقيدته وأسس عصور مرجع خصائص حتى تأخذ من هذه الفكرة التجديد مع فهمه وتفاعل معه على أساس فكر إسلامي أصيل وجديد في ذات الوقت..

وفي قمة هذا «التجديد الانقلابي» - مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية - وهو الذي انعقد - في ٨ صفر سنة ١٣٧٨هـ/٢٤ أغسطس سنة ١٩٥٨م -:

«إن هذا الذي نريده للأزهر هو في واقعه انقلاب، ولكنه انقلاب محبب للنفوس العيورة على ماضيها، المتطلعة إلى مستقبلها. انقلاب يصل بالعقلية الأزهرية إلى الفكر الأصيل يوم كان خالصا في موقفه من القرآن، وفي تعبيره عن تعاليم القرآن، وهو في الوقت نفسه يربط العقلية الأزهرية - أو الفكرة الإسلامية السليمة بالحياة الواقعية - التي يعيش فيها العالم اليوم، والتي تتجاذبها تيارات فكرية متعارضة، يجب أن يقف العقل الأزهري أمامها ليقي الجماعة الإسلامية عروها، وليحفظها من الانحلال والدوران في غيرها»

فالتجديد الفكري - عند شيخ شلتوت - هو الأساس الذي يحفظ للأمة الإسلامية وحدتها من التمزق الفكري بين ما يسمى بمسيح وبمسيح هويتها الإسلامية وتميزها الحضاري. وهو التجديد الانقلابي، الذي يحتاج إلى جهود، ولكنه لا يقلب على الأصول، فيحدث قطيعة معها، فالأصول، كما هو واضح في فكر شيخ شلتوت "انقلاب يصل العقل المعاصر بالفكر الأصيل، وأيضا بالحياة الواقعية المعاصرة" وهذا هو الاستقلال الفكري للأمة الإسلامية، وهي الوحدة التي تكرس قطيعة الغرب. ومن هذا المنطلق تحدث شيخ شلتوت عن هذا التجديد الانقلابي، عندما رأى "السبيل أمتنا إلى الزعامة" والإمامة في هذه الحياة. ويقصد بذلك عن هذا المنطلق قال

«إن سبيل أمتنا إلى الزعامة: هو مقاومة الفكر الوافد إليها عن طريق الاستشراق والإلحاد، هذا الفكر الذي من شأنه أن يزعزع القيم الإسلامية في النفوس، وأن يمزق وحدة المسلمين والعرب عن طريق الغزو العقلي، والاستعمار القلبي. وإن من يتتبع تاريخ الغزو الاقتصادي والسياسي، لا يكاد يجده إلا نتيجة وأثرا لهذا الغزو العقلي، الذي يملك على الناس قلوبهم، ويصرفهم عن أنفسهم إلى ما يريد

(١) علي عبد العظيم [مشيخة الأزهر] جـ٢ ص ١٩٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م

ولا يظن ظان أننا بهذا نسد على أنفسنا مجال الانتفاع بما قد يكون من نتائج البحث الأجنبي الدقيق في مظاهر الحياة العامة ووسائلها، فنحن نفسح أمام أنفسنا مجال ذلك، والإسلام يدفعنا إليه.

إن محمد بن عبد الله - عليه صلوات الله - لم يتَّجه إلى مكافحة الغزو السياسي والاقتصادي في بيئته؛ إلا بعد أن تمت له مكافحة الغزو العقلي والقلبي فيها، عن طريق محو الشرك والوثنية، وعن طريق الإيمان بالله وحده

وحينما تمت له مكافحة هذا الغزو القلبي، اتجه بالإيمان نفسه إلى مكافحة الغزو السياسي، فحفظ لشخصية الجماعة، وحفظ لمبادئها في النفوس، واتجه كذلك إلى مكافحة الغزو الاقتصادي عن طريق منع الاستغلال والاحتكار والطغيان المالي، وبذلك كملت لشخصيته عناصر الاستقلال المطلق الكامل.

استقلال العقل..

واستقلال السياسة..

واستقلال الاقتصاد..

وما كان ذلك كله إلا بفهم القرآن، والاتصال بالحياة الواقعية. وهذه هي قمة المجد وطريق السؤدد..»[1].

* * *

وعندما جاء مشروع فكري للشيخ شلتوت [illegible]، على جبهة [illegible]

[illegible]

هذه القضايا التي شملت - ضمن ما شملت -:

١ - العقائد الإسلامية.

٢ - وعالم الغيب.

٣ - والسنة النبوية.

٤ - والبدعة والإبداع

٥ - وتكفير من لم يحكم بما أنزل الله.

٦ - وعلاقة الدين والدولة

---

[1] [illegible]

٧ـ والاستبداد والشورى.
٨ـ والأموال والثروات
٩ـ والمعاملات المالية المستحدثة
١٠ـ والموقف من الشيوعية والفلسفة المادية
١١ـ ونظرية التطور والنشوء والارتقاء
١٢ـ وعن المرأة.. وعلاقتها بالرجل
١٣ـ والزواج السري.
١٤ـ وزواج المتعة
١٥ـ والسبل بين التجديد والتنظيم
١٦ـ والموقف الإسلامي من القوى الجملة
١٧ـ والتقريب بين السنة والشيعة.

* * *

(ب) العقائد الإسلامية

• فقه العقائد الإسلامية

دعا الشيخ شلتوت انطلاقا من الأصول الفكرية لمدرسة الإحياء والتجديد إلى إثبات العقائد بالنصوص القطعية الدلالة والثبوت. وكل القرآن قطعي الثبوت ومعه في هذه القطعية الحديث النبوي المتواتر وإن كان نادرا. وكذلك الرجوع إلى البرهان الذي يملأ القلب في إثبات هذه العقائد التي هي أمر الدين فهي لا تثبت بالإكراه ولا بالخوارق الحسية التي تدهش العقول لأن المطلوب في العقائد هو إعمال العقول، لا إدهاشها. أما أحاديث الآحاد وهي ظنية الثبوت، ومن ثم ظنية الدلالة فلا تثبت بها العقائد، وإنما هي مصدر في الأمور العملية.

«إن الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم، وذلك فيما كان من آياته قطعي الدلالة (لا يحتمل معنيين فأكثر).. وأما ما كان غير قطعي في دلالته، محتملا لمعنيين فأكثر، فهذا لا يصح أن يتخذ دليلا على عقيدة يُحكم على منكرها بأنه كافر، وذلك كالآيات التي استدل بها بعض العلماء على رؤية الله بالأبصار في الدار الآخرة. وكل القرآن قطعي الورود

* * *

والظنية تلحق السنة من جهتي الورود والدلالة.. ومتى لحقت الظنية الحديث ـ ظنية الورود أو ظنية الدلالة، أو هما معاً ـ فلا يمكن أن تثبت به عقيدة يكفر منكرها، وإنما يثبت الحديث العقيدة ويبقى حجة عليها إذا كان قطعي في وروده ودلالته، أي متواترا ينقل الرواة له جيلا من الكثرة تحيل العادة معه تواطؤهم على الكذب، وأن يتحقق ذلك في جميع طبقاته: أوله ومنتهاه ووسطه. وهو عند التحقيق رؤية الكفة عن الكفة

ونصوص العلماء من المتكلمين والأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العقيدة، وذلك ضروري، لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه. ومن قال إن خبر الواحد يفيد العلم، فمعناه العلم بمعنى الظن، أو العلم بوجوب العمل، وليس العلم بمعنى اليقين الذي تثبت به العقيدة.. ومن الناس من يحدث العلم في نفسه بما هو أقل من خبر الواحد، ولكن لا يكون ذلك حجة على أحد، ولا تثبت به عقيدة يكفر جاحدها؛ فإن الله لم يكلف عباده عقيدة من العقائد عن طريق من شأنه ألا يفيد إلا الظن. فأحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة، ولا يصح الاعتماد عليها في شأن المغيبات، وهذا قول مجمع عليه وثابت بحكم الضرورة العقلية التي لا مجال للخلاف فيها عند العقلاء..»[1].

• وفي عالم الغيب

يجب الإيمان بعالم الغيب، عقيدة من عقائد الإسلام ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب﴾ [البقرة: ٢، ٣] مع الاقتصاد في أشياء الغيب التي هو خصيصة من خصائص الإسلام، والوقوف في أخبار الغيب عند النصوص القطعية الدلالة والثبوت. وعند ما يرد، دون جزم، ولا بد بلاغ وصرف وتفسير مما يمكن صرفه وفق السنن الكونية في هذا الكون، بالدليل الصريح الإخبار. وقد تتسع بعض المفسرين غرائب الأخبار التي ليس لها سند صحيح، وأغدقوا من شرها على الناس، وعلى القرآن، وكان جديرا بهم أن يقيموا بينهم وبين الناس سدّا يقيهم البلبلة الفكرية فيما يتصل بالغيب الذي استأثر الله بعلمه، ولم يرد فائدة لعباده في أن يطلعهم على شيء منه.

---

١ ـ راجع [الإسلام عقيدته وشريعته] ص ٥٧ ـ ٦١ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ الموافق سنة ١٩٨٠م

وإذا كان للناس بطبيعتهم ولع بسماع الغرائب وقراءتها، فما أشد أثرها في إنهائهم عن التفكير النافع فيما تضمنه القرآن من آيات العقائد والأخلاق وصالح الأعمال.

والذي أحب أن أقرره.. فيما أخبر الله به من شئون الغيب التي لم يتصل بها بيان قاطع عن الرسول ﷺ، من الدابة، والصُّور، ونحوهما، هو: أننا نؤمن به على القدر الذي أخبر الله به دون صرف اللفظ عن معناه، ودون زيادة عما تضمنه الخبر الصادق، فنؤمن مثلا بأنه سيكون في آخر الدنيا صور ينفخ فيه، فتكون صعقة، ثم ينفخ فيه أخرى، فيكون البعث، أما الخوض في حقيقته ومقداره وكيفية النفخ فيه، أو حمله على أنه تمثيل لسرعة إفناء العالم وبعثه بسرعة النفخة المعروفة للناس، فإنه رجم بالغيب، وتقوُّل على الله بغير حق.

ونؤمن بأن القرآن ـ كما أخبر الله ـ في لوح محفوظ، أما الخوض في حقيقته أو تأويله بأنه تمثيل لصونه عن التغيير والتبديل؛ فإنه رجم بالغيب، وتقوّل على الله بغير حق.

نعم، يجب الوقوف في الإيمان بالغيب عند الحد الذي جاء به الخبر الصادق، ولا ينبغي التصرف فيه بالحمل على التمثيل، أو الزيادة عليه، وضم شيء إليه، فضلا عن استبعاده أو إنكاره، وهذا هو شأن المؤمنين بالله، وبكتابه وغيبه»[1]

• وفي السنة النبوية

والعلم النبوي، يجب التمييز فيه بين السنة التشريعية [illegible] وبين السنة غير التشريعية [illegible] كذلك يجب التمييز في السنة التشريعية بين ما هو تشريع عام [illegible] بيان لمجمل القرآن، أو تخصيص لعمومه، أو تقييد لمطلقه، أو في شئون العبادات والحلال والحرام [illegible] والعقائد والأخلاق [illegible] يجب التمييز بين هذا التشريع العام في السنة التشريعية ـ وبين ما فيها من تشريع غير عام، مثل ما جاء فيها من تصرفات الرسول ﷺ، بوصف الإمامة وسياسة الدولة [illegible] وبوصف القضاء في [illegible] بناء على السنة واليمين.

---

(١) [الفتاوى] ص ٥٦ ـ ٥٨ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ٩٨٠

أما السنة غير التشريعية فمنها سنة العادة والحاجات البشرية والاجتماعية والخبرات الإنسانية.

«فينبغي أن يلاحظ أن كل ما ورد عن النبي ﷺ ودُوِّن في كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته، على أقسام:

أحدها: ما سبيله سبيل الحاجة البشرية، كالأكل والشرب والنوم والمشي والتزاور، والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية، والشفاعة، والمساومة في البيع والشراء.

ثانيها: ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية، كالذي ورد في شئون الزراعة والطب، وطول اللباس وقصره.

ثالثها: ما سبيله التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة، كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية، وتنظيم الصفوف في الموقعة الواحدة، والكمون والكر والفر، واختيار أماكن النزول، وما إلى ذلك مما يعتمد على وحي الظروف والدربة الخاصة.

وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعياً، يتعلق به طلب الفعل أو الترك، وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول ﷺ فيها تشريعاً ولا مصدر تشريع.

رابعها: ما كان سبيله التشريع، وهو على أقسام:

أولاً: ما يصدر عن الرسول ﷺ على وجه التبليغ بصفة أنه رسول، كأن يبين مجملاً في الكتاب، أو يخصص عاماً، أو يقيد مطلقاً، أو يبين شأناً في العبادات، أو الحلال والحرام، أو العقائد والأخلاق، وشأناً متصلاً بشيء مما ذكر.

وهذا النوع تشريع عام إلى يوم القيامة؛ فإن كان منهياً عنه، اجتنبه كل إنسان بنفسه، لا يتوقف في ذلك على شيء سوى العلم به والوصول إليه.

ثانياً: ما يصدر عنه ﷺ بوصف الإمامة، والرياسة العامة لجماعة المسلمين، كبعث الجيوش للقتال، وصرف أموال بيت المال في جهتها، وجمعها من محالها، وتولية القضاة والولاة، وقسمة الغنائم، وعقد المعاهدات، وغير ذلك مما هو من شأن الإمامة والتدبير العام لمصلحة الجماعة.

وحكم هذا أنه ليس تشريعاً عاماً، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام، وليس لأحد أن يفعل شيئاً منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبي ﷺ فعله أو طلبه.

ثالثاً: ما يصدر عنه ﷺ بوصف القضاء، فإنه كما كان رسولاً يبلغ الأحكام عن ربه، ورئيساً عاماً للمسلمين ينظم شئونهم ويدير سياستهم، كان عليه الصلاة والسلام مع ذلك قاضياً، يفصل في الدعاوى بالبينات، أو الأيمان أو النكول.

وحكم هذا كسابقه، ليس تشريعاً عاماً، حتى يجوز لأي إنسان أن يقدم عليه بناء على قضائه به، وفصله فيه بحكم معين، بين من حكم بينهم؛ بل يتقيد المكلف فيه بحكم الحاكم؛ لأن الرسول تصرف بوصف القضاء، ومن هذه الجهة لا يلزم المكلف إلا بقضاء مثله، فمن كان له حق على آخر، ويجحده، وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم؛ لأن هذا هو الذي كان شأن أحد الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول ﷺ.

هذا ومن المفيد جداً معرفة الجهة التي صدر عنها التصرف، وكثيراً ما تخفى فيما ينقل عنه ﷺ ولا ينظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله أو قاله أو أقره، ومن هنا نجد أن كثيراً مما ينقل عنه ﷺ صُوِّر بأنه شرع أو دين، وسنة أو مندوب، وهو لم يكن في الحقيقة صادراً على وجه التشريع أصلاً.. وقد كثر ذلك في أفعاله الصادرة عنه ﷺ بصفة البشرية، أو بصفة العادة والتجارب.

ونجد أيضاً أن ما صدر على وجه الإمامة أو القضاء، قد يؤخذ على أنه تشريع عام، ومن ذلك تضطرب الأحكام وتختلط الجهات»

• وفي البدعة.. والابداع

يجب التمييز بين البدعة المحرمة، وهي ما كانت في العقائد والعبادات والحلال والحرام، وبين الإبداع في شئون الدنيا، فهو مطلوب. ذلك «أن الابتداع في الدين: إنما يكون فيما تعبدنا الله به من عقيدة أو عبادة أو حلٍّ وحرمة. فالابتداع

(١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٤٩٩ ـ ٥٠١

في الدين: هو الابتداع الذي يخرج به المؤمن عن دائرة الرسالة الإلهية، وهو الابتداع الذي يغتصب به المبتدع حق الله في تشريع هو له وحده. هو الابتداع الذي به يضع المبتدع نفسه موضع من يرى أن العبادات أو العقائد - التي رسمها الله ليتقرب بها عباده إليه - ناقصة أو فاسدة، فأكملها أو أصلحها بابتداعه، أو موضع من يرى أن الرسول ﷺ الذي اصطفاه الله لتبليغ دينه - قد قصر فيما أمر بتبليغه، وحجر عن عباد الله ما يقربهم إليه.

أما ما لم يتعبدنا الله بشيء منه - وإنما فوض لنا الأمر فيه باختيار ما نراه موافقا لمصلحتنا ومحققا لخيرنا بحسب العصور والبيئات - فإن التصرف فيه بالتنظيم أو التغيير لا يكون من الابتداع الذي يؤثر على تدين الإنسان وعلاقته بربه؛ بل إن الابتداع فيه من مقتضيات التطور الزمني الذي لا يسمح بالوقوف عند حد الموروث من وسائل الحياة عن الآباء والأجداد»[1].

• وفي تكفير من لم يحكم بما أنزل الله

الذي يستدل عليه البعض بقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤] - رأى الشيخ سلبوت أن القاضي المضطر إلى الحكم بغير ما أنزل الله، هو عاص، وليس كافرا. وأن الحاكم المشرع بغير ما أنزل الله، إذا كان جاحدا لما أنزل الله، فهو كافر. أما إذا كان مضطرا أو متأولا، فهو عاص، وليس بكافر. وكل ذلك في الأحكام الشرعية القطعية التي لا تأويل لها ولا اجتهاد فيها؛ إذ «الحكم الإسلامي نوعان»:

١. حكم لم يرد به قرآن ولا سنة، أو ورد به أحدهما ولكن لم يكن الوارد به قطعا فيه، بل محتملا له ولغيره، وكان بذلك محلا لاجتهاد الفقهاء والمشرعين، فاجتهدوا فيه، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره - وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادي -. والحكم في هذا النوع الاجتهادي لو جاء بما يخالف جميع الآراء والمذاهب الإسلامية؛ فإن الإسلام لا يمنعه ولا يمقته، فضلا عن أن يراه ردة يخرج

(١) [الفتاوى] ص ١٧٨ - ١٨٧.

القاضي به عن الإسلام؛ ذلك أن الإسلام ليس له في هذا النوع حكم معين، وإنما حكمه هو ما يصل إليه المجتهد باجتهاده المبني على تحري المصلحة والعدل، فمتى وجد العدل والمصلحة فثم شرع الله وحكمه.

٢ ـ وحكم هو القضاء المنصوص عليه في كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة، التي لم يظهر فيها خصوصية الوقت أو الحال. والحكم بغيره، إن كان مبنيا على اعتقاد أن غيره أفضل منه، وأنه هو لا يحقق العدل ولا المصلحة، ردة يخرج بها القاضي عن الإسلام.

أما إذا كان القاضي الذي حكم بغيره مؤمنا بحكم الله، وأنه هو العدل والمصلحة دون سواه، ولكنه في بلد غير إسلامي، أو بلد إسلامي مغلوب على أمره في الحكم والتشريع، واضطر أن يحكم بغير حكم الله لمعنى آخر وراء الجحود والإنكار؛ فإن الحكم في تلك الحالة لا يكون كفرا، وإنما يكون معصية، وهو نظير من يتناول الخمر وهو يعتقد حرمتها.

فيجب على القاضي المسلم أن يرد نفسه عن الحكم متى استطاع إلى ذلك سبيلا، وإذا لم يستطع أن يرد نفسه ـ خوفا من ضرر فادح يلحقه أو يلحق جماعته ـ فإن الإسلام يبيح له ذلك، ارتكابا لأخف الضررين، ما دام قلبه مطمئنا إلى حكم الله.

والآية: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: ٤٤]. قد جاءت في قوم يملكون أنفسهم وتشريعهم، ويعرفون حكم الله ويرفضونه مؤثرين عليه حكم الهوى والشهوة. ويشهد لذلك مجيئها في سياق قول الله سبحانه: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ [المائدة: ٤١]. ومن هنا يتبين أنها ليست في حق كل من حكم حكما غير إسلامي في قضية ما.

***

(١) المصدر السابق، ص ٤٣ ـ ٤٦.

(ج) الدين والدولة.. والنظام السياسى

• وفى علاقة الدين بالدولة

[illegible] فلا يتصور قيام الإسلام بلا دولة [illegible] والإسلام هو أساس سياسة الدولة [illegible] ومع هذا [illegible] سلطة [illegible] إسلامية [illegible] وفى سلطات الخليفة والإمام [illegible] وفى أحكام القاضى [illegible] وفى فتاوى المفتين

ومبادئ الإسلام فى الحكم هى:

السيادة لله وحده؛ لأنه الخالق المالك وهى فى كل شعب للشعب نفسه بعد الله الذى استخلفه فى وطنه.

٢ ـ الحكم لله، وهو حقه وحق الشعب يباشره نيابة عن الله

٣ ـ الحاكم وكيل للأمة، وليس له عليها سيادة، بل هى سيدته، وهو خادمها الأمين

٤ ـ الشورى أساس الحكم، وكل حكم لا يقوم على الشورى لا يكون شرعيًا

٥ ـ التضامن الجماعى الأفراد جميعًا يتضامنون فى المسئولية عن صوالحهم وصوالح الدين والدولة

٦ ـ الرقابة الشعبية حق للأمة أن تراقب حكامها، وتحاسبهم، وترسم لهم خطوط تدبير مصالحها، وتشرف على التنفيذ، وتُعد له حسب مصلحتها

٧ ـ عزل الخليفة للأمة إذا جار وظلم وظهر عشمه، ولم يرعو لناصح أو زاجر، فإن رفض العزل، عزلته بالقوة، ولو أدى ذلك إلى نصب الحرب وشهر السلاح فى وجهه إذا رأت الأمة ذلك فى مصالحها

٨ ـ أهل الحل والعقد هم أهل العلم والرأى والخبرة فى كل نواحى النشاط الحيوى بالأمة، وهم نسبها المعبر عن رضاها وسخطها، ومن حقهم ترشيح أصلحهم للخلافة، وتقديمه للأمة لترى رأيها فيه عن رضًا واختيار، دون ضغط أو قهر، ومن حق كل مسلم أن يكون له رأى فى اختيار الخليفة، وأن يُمكَّن من إعلان رأيه

بحرية تامة، دون أن يضار بسبب رأيه ولو خالف الأغلبية، وعليه مع هذا أن يلتزم الجماعة

٩ هدف الحكم سعادة المحكومين، وتحقيق السلام في الداخل، والعزة في الخارج، ونشر السلام»[١]

«... والإسلام لا يخص أحدا بحق الاستثناء بتفسير النصوص، ولا بحق إلزام الناس برأيه، بل يمنح هذا الحق لكل مسلم حائز لأهلية البحث.. والخليفة أو الإمام ليس معصوما من الخطأ، ولا هو مهبط الوحي، ولا أثرة له بالنظر والفهم، وليس له سوى النصح والإرشاد، وإقامة الحدود والأحكام في دائرة ما رسم الله، وهو نائب في وظيفته عن الأمة، تُوليه وتُبقيه، وتُطيعه ما دام قائمًا بمهمته، وقائم على حدود الله، وتعزله إذا انحرف عن الحدود، واقتحم حدود الله

وكما أن هذا وضع الخليفة، فهو وضع القاضي والمفتي، وشيخ الإسلام والمفتي. فوظيفة القاضي لا تعدو الفصل في الخصومات.. ووظيفة المفتي لا تعدو بيان المسائل التي يُسأل عنها. وفتواه ليست ملزمة لمن يستفتيه، وللمستفتي مطالبته بالدليل، وله أن يستفتي غيره ممن يطمئن إلى علمه

أما شيخ الإسلام، والمفتي، فإن المسلمين لا يعرفونهما إلا لقبين علميين شاع في بعض العصور والأقطار إطلاقهما على من عُرفوا في بيئاتهم بامتياز خاص في علوم الدين والشريعة، ولا يرتبط بهما حق تحليل أو تحريم في الشريعة، وليس لهما من حق في العصمة من الخطأ؛ بل لا يعرفهما الإسلام»[٢].

• والاستبداد والشورى

الاستبداد عدو الإنسانية.. و«الشورى» فريضة إسلامية.. وصفة من صفات الأمة المؤمنة.. وهي حق الجمهور لأمته، بأن جميعهم شركاء.. وهي عامة في كل مجالس الحياة.. وفيما دونه.. ومنها ما تجرد «للمجلس النيابي»، كما يذهب إليه كثير من المفكرين المعاصرين

[من كتاب الإسلام] ص ٥٦٠ ٥٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ، سنة ١٩٨٠م

٢ من «الإسلام عقيدة وشريعة» ص ٥٤٧، ٥٤٨

« . وبتقرير القرآن مبدأ الشورى، قضى الإسلام على عدو الإنسانية المتأصلة ومفسدها، وهو الاستبداد بالحكم والرأي، واحتكار التشريع والتصريف والإدارة وحقق للفرد كرامته الفكرية، وتجمدعه حقه الطبيعي في تدبير شئونها. والقرآن لا يريد من «الشورى» حين يضعها بين عنصري الصلاة، والإنفاق في سبيل الله *[illegible] [الشورى ٣٨] لا يريد هذه الصورة الهيرلية التي ألفناها في الدنيا، وتواضع أرباب السعي والاحتكار عليها، واتخذوها ستارا يحمون به طغيانهم النفسي في إرادة سلب الحقوق، وإنما يريد حقيقة نقية في واقعها، كما يريد من الصلاة والإنفاق، حقيقتهما المحققة لأثرهما، الخالصة مما يكدر صفوهما.

والإسلام لا يمكن أن يهمل من أصول الحكم، ذلك المبدأ الطبيعي في الحياة، وهو «الشورى» كما لا يمكن أن يريده حين يضعه «محمدة اختيارية» يقصد بها مجرد تأليف القلوب، وتطييب النفوس، دون تعمل به، كما يذهب إلى ذلك صنائع الملوك المستبدين، ولا أن يريده «صورة مفتعلة» يبرر بها أرباب الطغيان ضعفهم، وإنما يريده أمرا ثابتا مقررا، مأمورا به، هو حق للأمة تأخذه بالقوة، وواجب عليها، تأثم جميعها بتركه، وحقيقة لها أثرها العملي في الحكم وسياسة الجماعة.

إذن، فالشورى التي تتسع حيوطها بكثرة العدد، أو عن طريق الإغراء، والإرهاب لا قيمة لها عند الله، والشورى التي تجعل من الفرد المفسد، أو الذي لا يعقل حاكما بأمره في الأمة، لا قيمة لها عند الله، والشورى التي لا يجد المخصوص في جوها متنفسا يكشفون فيه عن عبث العابثين، وفساد المفسدين، لا قيمة لها عند الله، والشورى التي يليس المنافقون في جوها مسوح الصدق والإخلاص، ويكتمون عن الحاكم المخلص بذور الشر والفساد، لا قيمة لها عند الله»[1]

وجدير بالملاحظة أن شلتوت قد كتب هذا، ودافع عن [illegible] وهو يعمل [illegible]

(١) المصدر السابق، ص ٤٤١، ٤٤٢

(د) الاقتصاد والمعاملات المالية

• وفى الأموال والثروات

[illegible] والناس ـ والأمة ـ مستخلفون فيها، لهم فيها ملكية محاربة واجتماعية، محكومة بالشريعة ـ التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف ـ والاستخلاف فى الأموال والثروات، فليست ملكية إسلامية متحررة من كل قيد أو التزام اجتماعى، كما هى ملكية النظم الرأسمالية، وليس شرطا شيوعيا ـ وليست ملكية الدولة التى تقوم عليها النظم الاشتراكية ـ [illegible] الإسلامية فى الأموال والثروات على طريق [illegible] الاشتراكية

«فائدة المال يجب أن تعم المجتمع كله، لتقضى به حاجته.. ولقد أضاف الله ـ سبحانه وتعالى ـ المال تارة إلى نفسه ـ تنويها بشأنه ـ وجعل الملكين له مستخلفين فى حفظه وتنميته، وتفاقه بما رسم لهم فى ذلك. ﴿ءامنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد ٧] ﴿وءاتوهم من مال الله الذى ءاتاكم﴾ [النور ٣٣] وأضافه أخرى إلى جماعتهم، وجعله كله سببا لإضافة الملك إليهم ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [البقرة ١٨٨] ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾ [النساء ٥]. وأرشد بذلك إلى أن الاعتداء عليها، أو التصرف السيئ فيها، هو اعتداء أو تصرف سيئ واقع على الجميع

وإذا كان المال مال الله، وكل الناس جميعا عباد الله، وكانت الحياة التى يعملون فيها ويعمرونها بمال الله، هى لله، كان من الضرورى أن يكون المال ـ وإن ربط باسم شخص معين ـ لجميع عباد الله، يحافظ عليه الجميع، وينتفع به الجميع، وقد أرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾ [البقرة ٢٩]

ومهما رفع دعاة الاشتراكية رءوسهم ونادوا بها فيما بين الناس، فإنك لست واجدا فى تعبيرهم ولا فى واقع حياتهم ما يقرب من تلك الاشتراكية النابعة من ضمير الإيمان، والتى يجعلها الإسلام دينا تقرن ـ فى الدعوة إليه ـ بالصلاة وشهادة التوحيد،

والتي يكون بها كل المال ملكا للأمة، تحفظه اليد المستخلفة فيه وتنميه، ثم تنتفع به كلها. فهو منها كلها، وهو إليها كلها، ومن اليد المعطية واليد الآخذة لا يدان لشخصية واحدة، كتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية، ولا خدم منها ولا مخدوم، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هي «شخصية المجتمع» الذي لا قوام له ولا بقاء إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه.

ولعل بهذا يظهر معنى «الوسطية» التي حل بها الإسلام مشكلة المالية، تحكم المشكلة التي ضل بها العالم، في أمسه وحاضره، يتردد بين طرفي الإفراط، بالطغيان المالي، والتفريط بإلغاء الملكية الفردية، وبذلك تقطعت أو صر الرحم الإنساني، وسخّر الأغنياء الفقراء، وثار الفقراء على الأغنياء، ونشبت الحروب المدمرة، وأفلست دعاوى المدعين، الذين يخدعون أنفسهم في واقع الأمر، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الإنساني، وما ربك بغافل عما يفعلون»[1]

• وفي المعاملات المالية المستحدثة

[illegible] فيما لم تعرفه عصور الإسلام من معاملات، ومن ثم لم يعرض بشأنها اجتهادات فقهية لأقدمين. وهي تخرج في عمومها وجملتها عن أن تكون [illegible] ثم يحتاج فيها إلى اجتهاد جديد يحكم بما لا يخالف روح الشريعة، وقواعدها العامة ونظرياتها. ومن هذه المعاملات المستجدة:

١ ـ الشركات المساهمة:

[illegible] يحدد ربح لأسهمها، وهي خلال [illegible] لأنها معاملة مستحدثة، ولم يتناولها الفقهاء من قبل، حتى يشترط فيها عدم تحديد نسبة الربح "إنها نوع جديد من الشركة أحدثه أهل التفكير في طريق الاقتصاد والاستثمار، ولم يكن معروفا للفقهاء من قبل

وإذ كانت هذه الشركات إنما تنشأ للبقاء والاستمرار، ورأى مؤسسوها لذلك أن توزع أرباحها بنسب للأسهم ثابتة على مرتبات العمال، وعلى دعم رأس المال وجهات الخير وأرباب الأسهم، كان كل ذلك حيرا لا ضرر فيه لأحد ولا استغلال فيه لحاجة

(١) المصدر السابق ٢٥٦، ٢٥٧، ٩٥

أحد، بل كله نفع وفائدة . ولا بد أن تكون هذه الشركات قد ضمَّنت قانونها الأساسي فرض الاحتمالات من جهة عجز الإنتاج عن قيامها بتلك الجهات، وجهة الخسارة التي قد تلحق رأس المال، ووضعت لها أحكاماً خاصة يعرفها المساهمون ويطمئنون إليها دون أن تنقطع الشركة بينهم.

ومن هذا يتبين أن هذه الشركات ليست ربوية تستغل حاجة المحتاجين، وليست من مضاربة الفقهاء، حتى تكون فاسدة بتحديد الربح، على فرض تسليم شروطهم في المضاربة»[1]

٢ـ والأسهم:

داخلة في المضاربة، ولذلك يخضع عائدها للربح والخسارة

٣ـ والسندات:

هي قرض بفائدة محددة [illegible] ولا تجوز إلا للضرورة الواضحة

والفرق بين الأسهم والسندات، أن الأسهم من الشركات التي أباحها الإسلام باسم المضاربة، وهي التي تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها. وأما السندات، وهي القرض بفائدة معينة لا تتبع الربح والخسارة؛ فإن الإسلام لا يبيحها إلا حيث دعت الضرورة الواضحة، التي تفوق أضرار السندات التي يعرفها الناس ويقررها الاقتصاديون

ولو أن الأمم الإسلامية تكاتفت على وضع أساس اقتصادي يحقق مصالحها، ويقيها شر التحكم الأجنبي، لوجدوا من مبادئ الإسلام الاقتصادية ما يجعلهم في مقدمة الأمم اقتصاداً وقوة وحضارة»[2]

٤ـ وصندوق التوفير:

معاملة جديدة [illegible] ربحها [illegible] حلال [illegible] وهي ليست مضاربة، حتى تحرم [illegible] ربحها [illegible] وليست قرضاً حتى تحرم المنفعة التي تجرها [illegible] «فالربح الذي تدفعه مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة في صندوق التوفير . حلال لا حرمة فيه . . ذلك أن

(١) [الفتاوى] ص ٣٤٩، ٣٥٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥

المال المودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير، ولم يقترضه صندوق التوفير منه، وإنما تقدم به صاحبه إلى مصلحة البريد من تلقاء نفسه طائعا مختارا، ملتمسا قبول المصلحة إياه. وهو يعرف أن المصلحة تستغل الأموال المودعة لديها في موارد تجارية ويتدر فيها - إن لم يعدم - الكساد والخسران.

وقد قصد بهذا الإيداع أولا: حفظ ماله من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد.

وقصد ثانيا: إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها، ليتسع نطاق معاملاتها، وتكثر أرباحها فينتفع بعملها والموظفون، وتنتفع الحكومة بفاضل الأرباح.

ولا شك أن هذين الأمرين - تعويد النفس على الاقتصاد، ومساعدة المصلحة الحكومية - غرضان شريفان كلاهما خير وبركة، ويستحق صاحبهما التشجيع؛ فقد رأينا عينت المصلحة لهذا التشجيع قدرا من أرباحها مصروفا إلى المال المودع - أي نسبة تريد - وتقدمت به إلى صاحب المال، كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاوني عام، يشمل خيره صاحب المال والعمال والحكومة، وليس فيها مع هذا النفع العام أدنى شائبة لظلم أحد، أو استغلال لحاجة أحد، ولا يتوقف حل هذه المعاملة على أن تندرج في نوع من أنواع الشركات التي عرفها الفقهاء وتحدثوا عنها وعن أحكامها.. فهذه المعاملة، بكيفيتها وبظروفها كلها وبضمان أرباحها، لم تكن معروفة لفقهائنا الأولين وقت أن بحثوا الشركة ونوعوها. واشترطوا فيها ما اشترطوا.

وليس من ريب أن التقدم البشري أحدث في الاقتصاديات أنواعا من العقود والاتفاقات المبتكرة على أسس صحيحة لم تكن معروفة من قبل، ومن دام الميزان الشرعي: في حل التعامل وحرمته قائما في كتاب الله ﴿وما يعلم نفسه من المصلح﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [البقرة: ٢٧٩] فما علينا أن نحكّمه، ونسير على مقتضاه.

ومن هنا يتبين أن الربح المذكور ليس فائدة لدين حتى يكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حراما، على فرض صحة النهي عنه، وإنما هو كما قلنا تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥١، ٣٥٢.

٥ ـ والاقتراض بفائدة:

ربًا، محرّم.. لا يجوز إلا في حالة الضرورة، التي تقدر بقدرها، من حيث مصدر القرض، وحجم الفائدة، وأثر الاقتراض على الاستقلال الوطني»

٦ ـ والاستقلال الاقتصادي:

للأمة فريضة حتم عليها، وهو شرط لاستقلالها السياسي والإداري، وأساس لعزتها وحريتها. «ولقد قرر علماء الإسلام أن كل ما لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، فتعلمه ووجوده من فروض الكفاية. قالوا: ومن ذلك أصول الصناعات، مما هو ضروري، أو كالضروري.. ويسر الحياة.. ودفع الحرج عن الناس.. فإذا لم يتحقق ذلك في الأمة كلها، أثمت الأمة كلها».

وليس من ريب في أن أساس هذه الفرضية، هو العمل على تحقيق المبدأ الإسلامي الذي يوجبه الإسلام على أهله، وهو مبدأ استقلال الجماعة الإسلامية في تحقيق ما تحتاج إليه من الضروريات والحاجات، فيما بينها، وبين أبنائها، دون أن تمد يدها إلى غيرها من الأمم؛ وبذلك لا تجد الأمم الأخرى ـ ذات الصناعات والتجارات ـ سبيلا إلى التدخل في شئونها، فتظل محتفظة بكيانها وعزتها ونظمها وتقاليدها، وخيرات بلادها. وكثيرا ما اتخذ هذا التدخل سبيلا لاشتراك الدول الأجنبية في إدارة البلاد وتنظيمها واستعمارها، استغلالا لحاجتها في الصناعات والتجارات.

وإذا كان من قضايا العقل والدين، أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكانت الحياة متوقفة على هذه العمد الثلاثة. الزراعة والتجارة والصناعة، كانت هذه العمد الثلاثة واجبة، وكان تنسيقها على الوجه الذي يحقق خيرها واجبا»[2]

* * *

(١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٧٠، ٢٧٥

(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٠، ٢٥٥

(هـ) الغزو الفكرى
الشيوعية ـ والداروينية

• الموقف من الشيوعية والفلسفة المادية

[illegible] فلسفتها المادية.. [illegible] الاقتصادية [illegible] عدوة للإسلام [illegible] الإسلام [illegible] «فلو كانت الشيوعية مذهبا اقتصاديا، لا يمس الإيمان ولا يهتك حرمته، ولا يفتن الناس فى دينهم بأصول التعاليم الإلهية، لأمكن ألا نقول بعداوتها للإسلام، ولا بعداوة الإسلام لها.

أما واقعها، كما ينقل عن مخترعيها، ويُقرأ فى كتبها، أنها لا تؤمن إلا بالمادة، وأنها تنكر الألوهية والوحى والبعث، وأنها تقتحم فى سبيل مادتها كل ما قدسه القرآن، وقدسته الشرائع السماوية من حرمات العقيدة والعبادة، والمال والعمل، والروابط الجنسية الشرعية، وما إلى ذلك من أسس الإسلام؛ فإنها بلا شك تكون عدوة للإسلام، وعدوة لسائر الأديان السماوية، ويكون الإسلام وسائر الأديان السماوية عدوا لها عداوة لا هوادة فيها»[1]

• وفى نظرية التطور.. والنشوء.. والارتقاء

[illegible] للإسلام [illegible] تطور الإنسان عن نوع آخر [illegible] عن خلق الإنسان «فهذه النظرية التى تقول بتطور الإنسان عن نوع آخر من الحيوانات، بطريق النشوء والارتقاء، نظرية لم يرفضها رجال الدين ترمتًا أو تعسفًا، وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة، وعلى أساس مما قرره الدين فى رفض ما لم يدل عليه برهان، أو يشهد بصحته حس أو تجربة

ولقد جاء صريحا فى القرآن الكريم الحديث عن خلق الإنسان، تحدث عن خلق

---

(١) [الفتاوى] ص ٣٩٩

الإنسان الأول، ومم كان، وتحدث عن خلق أبدته، ومم كانوا وكيف كانوا. ففي خلق الإنسان الأول يقول ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ [الحجر ٢٦] ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون (٢٨) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] وفي خلق أبدته يقول ﴿... خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣]. ويقول ﴿فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦) يخرج من بين الصلب والترائب﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧]. . وفي تطور خلق الأبناء من هذا الماء يقول ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم﴾ [الحج: ٥].

فهذا ونحوه خبر الله الصادق، الذي قامت على صدقه المعجزات، يحدث بأن الإنسان خلق نوعا مستقلا، وليس متطورا عن نوع آخر من أنواع الحيوانات، أيا كان ذلك النوع، وكيفما كان التشابه بينه وبين الإنسان في بعض الخصائص، وبعض الأوضاع الجسمية. .

والمسألة بعد مسألة غيبية لا يتناولها الحس، ولا مجال فيها للتجربة، وليس ثمة مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها. . ومثل هذه المسألة من المسائل التي ينحصر مصدر العلم بها في خصوص خبر الصادق المؤيد بالمعجزات الواصل إلى الناس من عالم الغيب، ومكون الأنواع والمخلوقات. وقد نفى القرآن أن يكون مبدأ الخلق علما مما يعلمه الإنسان بنفسه، ومما منح من قوى الإدراك، قال تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾ [الكهف: ٥١]. . فهذا هو السند القوي الذي يعتمد عليه رجال الدين في رفض نظرية التطور الفردي، ولم يكن رفضهم إياها مجرد ترمت. .

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤.

(و) المرأة.. والأسرة

• وعن المرأة.. وعلاقتها بالرجل

مساواة المرأة للرجل، مع توزيع العمل بينهما وفق فطرة [illegible] عن [illegible]، [illegible] الأنوثة عن [illegible] هو حكم الإسلام. «فلقد رفع القرآن الكريم من شأن المرأة إلى درجة لم تكن تحلم بها من قبل، ولم تصل إليها من بعد في غير جو الإسلام. جعل لها حقا في المال كالرجل، ومنحها حق التصرف فيه دون رقابة عليها أو ولاية، وجعل إذنها شرطا في صحة زواجها، وجعل لها من حقوق الزوجية مثل ما عليها، وجعلها ذات مسئولية مستقلة في العبادات والمدنيات والجنائيات، وفي الثواب والعقاب عند الله. ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ [النساء: ١٢٤]. ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (...) وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [التحريم: ١٠، ١١]. فالمرأة في وضع القرآن، لا يؤثر عليها - وهي صالحة - فساد الرجل وطغيانه، ولا ينفعها - وهي طالحة - صلاح الرجل وتقواه، فهي ذات مسئولية أمام الله، وفي أحكام الله»[1].

وليس صحيحا أن الإسلام ينتقص من أهلية المرأة في الميراث، وفي الشهادة «فوضع الرجل والمرأة في الميراث لا علاقة له بالإنسانية التي يشتركان فيها على حد سواء. وكذلك الشهادة، فقول الله تعالى: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ [البقرة: ٢٨٢] ليس واردا في مقام الشهادة التي يقضي بها القاضي ويحكم، وإنما هو وارد في مقام الإرشاد إلى طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ [البقرة: ٢٨١]. إلى أن قال: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من

(١) [من توجيهات الإسلام] ص ٢٢٨

تشهدان أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ [البقرة: ٢٨١]. فمقام مقام استيثاق على الحقوق، لا مقام قضاء بها. . والآية ترشد إلى أنضل أنواع الاستيثاق الذي تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما.

وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل، لا يثبت بها الحق، ولا يحكم بها القاضي، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو «البينة». وقد حقق العلامة ابن القيم: أن البينة في الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره، هو بينة يقضي بها القاضي ويحكم، ومن ذلك يحكم القاضي بالقرائن القطعية، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها. واعتبار المرأتين في الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذي يتبع نقص إنسانيتها، ويكون أثرا له، وإنما هو - أن المرأة - كما قال الشيخ عبده - «ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المخصوصات، ومن هنا تكون ذكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها».

«والآية جاءت على ما كان مألوفا في شأن المرأة، ولا يراد أكثر النساء كذلك، لا يشهدن مجالس المداينات، ولا يشتغلن بأسواق المبايعات، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافي هذا الأصل الذي تقضي به طبيعتها في الحياة. وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون في بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق في الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها، وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه».

هذا وقد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها، وهي القضايا التي لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها، كالولادة والبكارة، وعيوب النساء في القضايا البدنية. وعلى أن منها ما تقبل فيه شهادة الرجل وحده، وهي القضايا التي تثير موضوعاتها عاطفة المرأة، ولا تقوى على تحملها، على أنهم قد رأوا قبول شهادتها في الدماء إذا تعينت طريقا لثبوت الحق واطمئنان القاضي إليها. وعلى أن منها ما تقبل شهادتهما معا.

وما لك ذهب بعيدا، وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل - سواء بسواء - في شهادات الزنا، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حيث يقذف الرجل زوجه وليس له على ما يقوله شهود ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين (٦) والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين (٧) ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين (٨) والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ [النور: ٦-٩]

أربع شهادات من الرجل يعقبها استمطار لعنة الله عليه، إن كان من الكاذبين، ويقابلها ويبطل مفعولها أربع شهادات من المرأة يعقبها استمطار غضب الله عليها، إن كان من الصادقين. فهذه عدالة الإسلام في توزيع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة، وهي عدالة تحقق أنهما في الإنسانية سواء.

«لقد قرر الإسلام للفطرة التي خلقت عليها المرأة، فطرة الإنسانية ذات العقل والإدراك والفهم، فهي ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، مسئولة عن نفسها، وعن عبادتها، وعن بيتها، وعن جماعتها، وهي لا تقل في مطلق مسئولية عن مسئولية أخيها الرجل، وإن مسئوليتها في المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو مخالفة، وطاعة الرجل لا تنفعها وهي طالحة منحرفة، ومعصيته لا تضرها وهي صالحة مستقيمة. ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ [آل عمران: ١٩٥]

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الإلهي ﴿بعضكم من بعض﴾، ليعرف كيف سمى القرآن المرأة حتى جعلها بعضا من الرجل، وكيف حد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المرأة. وليس في الإمكان ما يؤدي به معنى المساواة أوضح ولا أسهل من هذه الكلمة التي تفيض بها طبيعة الرجل والمرأة، والتي تتجلى في حياتهما المشتركة، دون تفاصيل وسدود: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ [النساء: ٣٢].

وإذا كانت المرأة مسئولة، مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها، فهي في نظر الإسلام أيضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير، والأمر

بالمعروف و الإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل. وقد صرح القرآن بمسئوليتها في ذلك الخطاب، وقرن بينها وبين أخيها الرجل في تلك المسئولية؛ كما قرن بينها وبينه في مسئولية الانحراف عن واجب الإيمان والإخلاص لله وللمسلمين ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة، ٧١]. ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ( ) وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ [التوبة: ٦٧ـ٦٨].

فليس من الإسلام أن تُعفى المرأة بعض من تلك المسئولية ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أكبر مسئولية في نظر الإسلام ـ على الرجل وحده، بحجة أنه أقدر منها عليها، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب، فللرجل دائرته، وللمرأة دائرتها، وحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما؛ فهي تخاذلا أو تخاذل أحدهما؛ انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم

والإسلام ـ [فوق ذلك] ـ لم يقف بالمرأة عند حد اشتراكها مع أخيها الرجل في المسئوليات ـ جميعها، خاصها، وعامها ـ بل رفع من شأنها، وقرر ـ تبقاء تحملها هذه المسئوليات ـ احترام رأيها فيما تندب وحدها، شأنه في رأي الرجل تماما سواء بسواء وإذا كان الإسلام جاء باحترام آراء بعض الرجال، فقد جاء أيضاً باحترام رأي بعض النساء

وفي سورة المجادلة، احترم الإسلام رأي المرأة، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول ﷺ، وجمعها وإياه في خطاب واحد ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ [المجادلة: ١]. . وقرر رأيها، وجعله تشريعا عاما خالدا. . فكانت سورة المجادلة أثرا من آثار الفكر النسائي، وصفحة إلهية خالدة تلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام لرأي المرأة. فالإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة، ينعم الرجل بشم رائحتها؛ وإنما هي مخلوق عاقل مفكر، له رأي، وللرأي قيمته ووزنه.

وليس هناك فرق دينى بين المرأة والرجل فى التكليف وأهليته، سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل، وذلك لوصولها - بطبيعتها - إلى سن التكليف، وهو البلوغ، قبل أن يصل إليه الرجل»[1].

• وفى الزواج السرى

وهو حرام لأنه مشتمل على شهود وحرام كذلك لأنه خلا عن شهود فخلا عن الكتمان. «فالزواج السرى هو نوع قديم من الزواج افترضه الفقهاء، وبينوا معناه، وتكلّموا فى حكمه، وقد أجمعوا على أن عقد الذى يتولاه الطرفان دون أن يحضره شهود، ودون أن يعلن، ودون أن يكتب فى وثيقة رسمية، ويعيش الزوجان فى ظله مكتوما، لا يعرفه أحد من الناس سواهما، وأجمعوا على أنه باطل؛ لفقده شرط الصحة، وهو الشهادة؛ فإذا حضر شهود وأطلقت حريتهم فى الإخبار به لم يكن سرّا، وكان صحيحا شرعا، تترتب عليه أحكامه. أما إذا حضره شهود وأخذ عليهم العهد بالكتمان، وعدم إشاعته والإخبار به، فقد اختلف الفقهاء فى صحته بعد أن أجمعوا على كراهته:

فرأت طائفة أن وجود الشهود يُخرجه عن السرية، والشهادة وحدها تحقق العلانية، ودون هذا تأثير فى صحة العقد بتوصية بالكتمان، ويرى الإمام مالك وطائفة معه: أن التوصية بالكتمان تسلب الشهادة روحها، والقصد منها، وهو الإعلان الذى يضمن ثبوت الحقوق، ويزيل الريبة، ويفصل فى الوقت نفسه بين الحلال والحرام - كما جاء فى الحديث الصحيح - «فصل ما بين الحلال والحرام.. الدف والصوت» والشهادة التى تحقق الإعلان المقصود هى التى تقترن بالتوصية على الكتمان، ومجرد العدد لا يزيل السرية، وكم من سر بين أربعة وبين عشرة لا تزول سريته ما دام القوم قد تواصوا بها وبُنى العقد عليها، ولعل المجالس الخاصة التى يعرفها اليوم أرباب الحجور المشترك من أوضح ما يدل على أن كثيرا ما يكون بين أكثر من اثنين.

وإذا كان الزواج السرى نوعه، الذى لم يحضره شهود، أو حضروه مع التوصية بالكتمان دائرا بين البطلان والكراهة، وأنه يحمل السرية التى هى عنوان المحرم، كان

[1] [الأحوال الشخصية] ص ٢٣٩، ٢٤١، ٢٢٣ - ٢٢٨ طبعة القاهرة سنة ٤٠٠ هـ - سنة ١٩٨٠م.

جديرا بالمسلم - الذي شأنه أن يترك ما يريب إلى ما لا يريب - أن يمتنع عنه، ولا يقدم عليه، ولا يزج بنفسه في مداخله الضيقة التي لا تحمد عاقبتها»[1].

• وفي زواج المتعة

زواج المتعة حرام، وهو مفتقر للمقاصد الإنسانية والشرعية التي أرادها الإسلام من وراء الزواج. فهذا الزواج «زواج المتعة - ومنه الزواج إلى أجل - هو أن يتفق رجل مع امرأة خالية من الأزواج على أن تقيم معه مدة ما، معينة أو غير معينة، في مقابلة مال معلوم.

وهذا لا يُقصد به سوى قضاء الحاجة، وينتهي دون طلاق بمضي مدته، أو بالمفارقة إن لم تضرب له مدة. ولا ريب في أن هذا الزواج ليس هو الزواج الذي شرعه الإسلام ونزل به القرآن.

فالقرآن يرشد إلى أن أساس الزواج السكن والمودة والرحمة المتبادلة بين الزوجين، وإلى أن ثمراته تكوين الأسر وتحصيل الأبناء والأحفاد، والتعاون على تربيتهم. وما أبعد زواج المتعة عن هذا الأساس وهذه الثمرات.

والقرآن قد ربط بعنوان الزوجية أحكاما كثيرة كالتوارث، وثبوت النسب، والنفقة، والطلاق، والعدة، والإيلاء، والظهار، واللعان، وحرمة التزوج بالخامسة، وغير ذلك مما يعرفه الناس جميعا، وليس شيء من هذه الأحكام بثابت فيما يعرف بزواج المتعة.

والقرآن قد عرض للزواج بلفظه تارة، وبلفظ النكاح أخرى في آيات كثيرة، ولا يفهم منهما ناطق بالضاد سوى الزواج الذي جعله أساس الدوام، وتكوين الأسر، وربطت به تلك الأحكام التي أشرنا إليها، واقرأ في ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ [البقرة: ٢٣٠]. ﴿وأنكحوا الأيامى منكم

(١) [الفتاوى] ص ٢٦٨، ٢٦٩.

والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ [النور: ٣٢]. ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ [النساء: ٢١]

اقرأ هذه الآيات وأمثالها لتعلم أنها - على رغم ما يحاول المفتونون بمشروعية زواج المتعة من تحريفها عن مواضعها - بعيدة كل البعد عن زواجهم الذي يعلنون أنه مشروع لغاية في نفوسهم، أو تعصبا لآراء لا تعرفها حجة.

نعم، ثبت أن النبي ﷺ أباحه للمحاربين في بعض الغزوات، وثبت أيضا - مما لا شك فيه - أنه نهى عنه نهيا عاما وحرمه تحريما مؤبدا. وقد جمع مسلم في صحيحه، والحافظ بن حجر في شرح البخاري أحاديث النهي، فليرجع إليها من شاء.

وما كان نهي عُمر عنها - وتوعده فاعلها أمام جمع من الصحابة، وإقرارهم إياه - إلا عملا بهذه الأحاديث الصحيحة، واقتلاعا لفكرة مشروعيته من بعض الأذهان. وقد كان النبي ﷺ يتخذ قرب عهد الناس بالإسلام - في أوقات الضرورة - سبيلا للترخيص فيما يخفف عنهم تلك الضرورة، حتى إذا ما أنسوا الإسلام وأحكامه عاد فحرمه التحريم الذي يريده الله، وهو التحريم العام المؤبد.

وبهذا القدر من البيان يتضح أن الرأيين في زواج المتعة لا يمكن أن يوضعا في ميزان واحد، فضلا عن تساوي كفتيهما، وأن الترخيص في زواج المتعة لم يخرج عن أن يكون ترخيصا بأخف المحرمين في وقت الضرورة، وحداثة عهد الناس بالإسلام، ومثل هذا الترخيص لا يصلح دليلا على المشروعية.

وإن الشريعة التي تبيح للمرأة أن تتزوج في السنة الواحدة أحد عشر رجلا، وتبيح للرجل أن يتزوج كل يوم ما تمكن من النساء، دون تحميله شيئا من تبعات الزواج، إن شريعة تبيح هذا لا يمكن أن تكون هي شريعة الله رب العالمين، ولا شريعة الإحصان والإعفاف!

• وفي النسل بين التحديد والتنظيم

تنظيم النسل، كموقف فردي، بضرورات فردية، حلال [illegible] كسياسة عامة في الدولة والمجتمع، فعل مباح. «والأصل في الشريعة الإسلامية هو

[illegible] ص ٢٠٣، ٢٠٥

العمل على كثرة النسل والتوالد، وأن الولد لم يكن حقا لوالديه إلا بمقدار ما يهيئانه لخدمة الأمة والقيام بنصيبه فيها

وقد رغّب القرآن الكريم، وحثت الأحاديث النبوية على الزواج، مع أنه أمر طبيعي لا تكاد النفس المهذبة تفكر في الإضراب عنه مهما استطاعت إليه سبيلا. انظر إلى قوله تعالى في معرض الامتنان على عباده: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات﴾ [النحل: ٧٢]. وقوله جل شأنه بيانا لمكانة البنين في هذه الحياة: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦] ثم انظر إلى قوله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة» وقوله: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم»، وقوله: «من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا».

ومن هذا يتبين أن القول بإباحة منع الحمل على الإطلاق - كما يراه بعضهم - أو برضا الزوجين - كما يراه الحنفية - فيه إهدار لحق الأمة الذي تُشير إليه هذه النصوص، وتقتضي به روح الشريعة، وأن حق الأمة يجب أن يكون له المكان الأول من النظر والاعتبار، خصوصا في زمننا هذا الذي أصيبت فيه الشعوب الإسلامية بالضعف والانحلال والتمزق.

وأن إباحة منع الحمل - كما يراه الغزالي أيضا - لمجرد المحافظة على الجمال والمتعة الجنسية - مع للطبيعة المستعدة للإثمار عن تأدية وظيفتها، وإبقاء ثمرتها.

إن الشريعة والطب يلتقيان في وجوب دفع الضرر الذي يلحق الزوجة أو الأمة من جراء إطلاق الحرية في تحصيل النسل وكثرته.

ولقد الشريعة، في الوقت الذي حثت فيه على كثرة النسل - إبقاءً للأمة وتكوين لقوتها - نفت بصيانة هذه الكثرة من الضعف، ومن أن تكون غثاء كغثاء السيل.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تطلب كثرة قوية، فما هو السبيل إلى الحصول على هذه الكثرة القوية؟!..

إن السبيل إلى هذا: هو العمل على تنظيم النسل تنظيمًا يحفظ له قوته ونشاطه، ويحفظ للأمة كثرتها ونماءها..

ونحن نرى أن يكون أساس التنظيم المنشود على نحو ما يأتي:

أولاً: العمل على منع الحمل منعاً مؤقتاً يُمَكِّن الأم من إرضاع الطفل إرضاعاً كاملاً نقياً، وقد حددت الشريعة الإسلامية مدة الرضاع بحولين كاملين: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ثانياً: منع الحمل بين الزوجين منعاً باتاً إذا كان بهما أو بأحدهما داء عضال من شأنه أن يتعدى إلى النسل والذرية، وفي حالة امتناع الزوجين عن قبول عملية منع الحمل يكون تولي الأمر الحق في التفريق بينهما جرياً على قاعدته أن على ولي الأمر دفع أعظم الضرر الذي يصيب الأفراد أو الأمة..

ويبقى النظر بعد هذا في شأن من يخشى الوقوع في الحرج بسبب عدم المقدرة على تربية أولاده والعناية بهم، أو يخشى أن تسوء صحته بضعف أعصابه عن تحمل واجباتهم ومتاعبهم، فهل يباح له أن يعمل على تحديد نسله أو تقليله إلى الحد الذي لا يخشاه؟ اعتماداً على ما عرف من أن خوف الوقوع في الحرج من الأعذار التي يسوغ بها في الشريعة ترك الواجبات؟!..

إننا نرى أن العلاج السابق لا بد له من عنصر آخر ينضم إليه حتى يشمل العلاج جميع الفروض والحالات، وهو:

العمل على اتخاذ تدابير اجتماعية ومالية لمساعدة الفقراء لأصحاء، في تربية أطفالهم وتعليمهم، ومنحهم ما يرفه عنهم ضيق الحياة المادية الذي يعرضهم إلى الضعف بسبب الجهل وسوء التغذية. وإذا كان للأمة - كما قدمنا - حق في الولد تنتفع به وتستثمره في الحياة العامة، والغنم بالغرم - كما يقولون - فالواجب على الحكومة أن تتخذ لهذه التدابير والوسائل التي تحقق بها تلك الغايات».

***

(ز) الفنون الجميلة

• الموقف الإسلامي من الفنون الجميلة

غناء وموسيقى لأصر فيهما حق وخدمة عن قضية ... يحب نشدة غريزة فطرية في الإنسان ... ونشرح بتصميم، دون قمع، وتهذيب لغرائز ... وضرورات التحريم صنعته ... أو تتحدث عن موقف الغناء والمغنين في مجتمعنا

"إن الأصل الذي أرجو أن ينتبه الناس إليه ... هو أن الله خلق الإنسان بغريزة يميل بها إلى المستلذات والطيبات التي يجد لها أثرا في نفسه، به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه، فتراه ينشرح صدره بالمناظر الجميلة، كالخضرة المونقة والماء الصافي الذي تلعب أمواجه، والوجه الحسن الذي تتنسط أساريره، وينشرح صدره بالروائح الزكية التي تحدث خفة في الجسم والروح، وينشرح صدره بسماع النغومة التي لا خشونة فيها، وينشرح صدره بلذة المعرفة في الكشف عن مجهول مخبوء، وتراه بعد هذا مطبوعا على غريزة الحب لمشتهيات الحياة وزينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث.

ولعل قيام الإنسان بمهمته في هذه الحياة ـ كما كانت تتم ـ على الوجه الذي لأجله خلقه الله ـ إلا إذا كان داعي عاطفة غريزية، توجهه نحو المشتهيات، وتلك المتع التي خلقها الله معه في الحياة، فيأخذ منها القدر الذي يحتاجه وينفعه

ومن هنا قضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان بتلك العاطفة، وصار من غير المعقول أن يطلب الله منه ـ بعد أن خلقه هذا الخلق، وأودع فيه لحكمته السامية هذه العاطفة ـ نزعها أو إماتتها أو مكافحتها في أصلها؛ وبذلك لا يمكن أن يكون من أهداف الشرائع السماوية ـ في أي مرحلة من مراحل الإنسانية ـ طلب القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التي لا بد منها في هذه الحياة.

نعم، للشرائع السماوية بإزاء هذه العاطفة مطلب آخر، يتلخص في كبح جماحها، ومعناه: مكافحة الغريزة عن الحد الذي يسيء به الإنسان واحياته، أو يفسد عليه خُلُقه، أو يحول بينه وبين أعمال هي له في الحياة ألزم، وعليه أوجب

ذلك هو موقف الشرائع السماوية من الغريزة، وهو موقف الاعتدال والقصد، لا موقف الإفراط، ولا موقف التفريط، هو موقف التنظيم، لا موقف الإماتة والانتزاع، هذا أصل يجب أن يفهم، ويجب أن توزن به أهداف الشريعة السماوية، وقد أشار إليه القرآن الكريم في كثير من الحرئيات: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ [الإسراء: ٢٩] ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ [الأعراف ٣١] ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ [لقمان ١٩]

وإذن، فالشريعة توجه الإنسان في مقتضيات الغريزة إلى الحد الوسط، فهي لم تأمر لانتزاع غريزة حب المال، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي لا جشع فيه ولا إسراف، وهي لم تأمر لانتزاع الغريزة في حب المطر الطيبة، ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر، وهي لم تأمر لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي لا هلع فيه ولا جزع وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز

وقد كلف الله العقل - الذي هو حجته على عباده - تنظيمها على الوجه الذي جاء به شرعه ودينه، فإذا كان الإنسان في سماع الصوت الحسن، أو النغم المستلذ من حيوان أو إنسان، أو آلة كيفما كانت، أو كان في تعلم شيء من ذلك، فقد أدى للغاية حقها، وإذا وقف بها عند هذا الحد الذي لا يصرفه عن الواجبات الدينية، أو الأخلاق الكريمة، أو المكانة التي تتفق ومركزه، كان بذلك منظما لغريزته، سائرا بها في الطريق السوي، وكان مرضيا عند الله وعند الناس

وبهذا يتضح أن تعلم الموسيقى مع الحرص على تفرغ وتكليف سائغ من غريزة التي حكمها العقل بشرع الله وحكمه، فرتب على إرادته، وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس في هذه الحياة

ولقد كنت أرى أن هذا القدر كاف في معرفة حكم الشرع في الموسيقى، وفي سائر ما يحب الإنسان ويهوى بمقتضى غريزته، لولا أن كثيرا من الناس لا يكتفون، بل إنهم لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه في معرفة الحلال والحرام، إنما يقنعهم عرض ما قيل

فى الكتب وأثر عن الفقهاء؛ وإذا كان ولا بد فيعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السمع فى إثارة الشوق إلى الحج، وفى تحريض الغزاة على القتال، وفى مناسبات السرور المألوفة، كالعيد، والعرس، وقدوم الغائب ونحو ذلك. ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيين.

يقرر أحدهما الحرمة، ويستند إلى أحاديث وآثار.

ويقرر الآخر الحل، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار. وكان من قول القائل بالحل: «إنه ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا فى معقولهم من القياس والاستدلال، ما يقتضى تحريم مجرد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات»

وقد تعقبوا جميع أدلة القائلين بالحرمة، وقالوا: إنه لا يصح منها شىء.

وقد قرأت فى هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادى عشر ـ المعروفين بالورع والتقوى ـ رسالة هى [إيضاح الدلالات فى سماع الآلات] للشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى، قرر فيها أن الأحاديث التى استدل بها القائلون بالتحريم ـ على فرض صحتها ـ مقيدة بذكر الملاهى، وبذكر الخمر والقينات، والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعليه كان الحكم عنده فى سماع الأصوات والآلات المطربة.. أنه إذا اقترن بشىء من المحرمات، أو اتخذ وسيلة للمحرمات، أو أوقع فى المحرمات كان حراما، وأنه إذا سلم من كل ذلك، كان مباحا فى حضوره وسماعه وتعلّمه. وقد نقل عن النبى ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء، أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرم. وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء، وهو يوافق تماما فى المعنى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية

وكان الشيخ حسن العطار ـ شيخ الجامع الأزهر فى القرن الثالث عشر الهجرى ـ ذا ولع شديد بالسماع، وعلى معرفة بأصوله، ومن كلمته فى بعض مؤلفاته: «من لم يتأثر برقيق الأشعار، تُتلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، فى ظلال الأشجار، فذلك جلف الطبع حمار»

وإذن، فسماع الآلات، ذات النغمات، والأصوات الجميلة، لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة، أو صوت إنسان، أو صوت حيوان، وإنما يحرم إذا استعين به على محرم، أو ألهى عن واجب.

وهكذا يجب أن يعلم الناس حكم الله في مثل هذه الشئون. ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يلقى جزافا في التحليل والتحريم، فإن تحريم ما لم يحرمه الله، أو تحليل ما حرمه الله كلاهما افتراء وقول على الله بغير علم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣][1]

***

(ح) التقريب بين المذاهب

• وفي التقريب بين السنة والشيعة

[illegible] الإفتاء بجواز التعبد وفق فقه المذهب الجعفري - مذهب الإمام الصادق [illegible] جعفر بن محمد [٨٠ - ١٤٨هـ / ٦٩٩ - ٧٦٥م] وهو المذهب الفقهي للشيعة الاثني عشرية - فلله تداعت - في أربعينيات القرن العشرين - كوكبة من كبار العلماء والمفكرين إلى تأسيس جماعة للتقريب بين الشيعة والسنة، والإزالة الحفوة التي اتخذها ويتخذها الاستعمار ثغرة لاختراق صفوف الأمة الإسلامية، وإضعاف وتمزيق جميع شعوبها ومذاهبها [illegible] وتبيان مناطق الاتفاق [illegible] وهي كثيرة جدا - والتعرف على مناطق الاختلاف للتعامل معها بالحكمة الإسلامية التي قررت وتقرر [illegible] الاختلاف [illegible] سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل..

[illegible]

وكان الشيخ محمود شلتوت واحداً من أنشط العلماء الذين بذلوا الجهود الكبيرة في تأسيس وتدعيم هذه الجماعة، التي أسسها الزعيم المصلح محمد علي علوبة باشا [١٢٩٢ - ١٣٧٥هـ/ ١٨٧٥ - ١٩٥٦م] والتي ضمت من أئمة مشيخة الأزهر: الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والشيخ مصطفى عبد الرازق، ومن كبار علمائه: الشيخ علي الخفيف، والشيخ عبد العزيز عيسى [١٣٢٧ - ١٤٠٥هـ/ ١٩٠٩ - ١٩٩٤م]، والشيخ محمد المدني، والشيخ سيد سابق، والإمام الأكبر الحاج أقا حسين البروجردي، والسيد محمد تقي الدين القمي، الأمين العام للجماعة، والسيد محمد الحسيني آل كاشف الغطاء، والسيد شرف الدين الموسوي، والسيد محمد جواد مغنية، والسيد صدر الدين شرف الدين.

ولقد أصدرت هذه الجماعة مجلة «رسالة الإسلام»، فكانت منبراً للاجتهادات الداعمة لوحدة الأمة الإسلامية، وعلى صفحات هذه المجلة تعددت وتوالت اجتهادات الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الإسلامية الموثقة، وبين الشيعة والسنة على وجه الخصوص..

ومن نماذج اجتهاداته في هذا الميدان قوله:

«إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ويرثون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا مرية فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: «هذا مذهبي، وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت؛ فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي»

«ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهاج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة... ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عُهد إليّ بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتوى في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة

الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.. وقرّت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة. وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين، فيما أبعث من رسائل للمتوضحين، أو أرد به على شبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد، حتى أصبحت ـ والحمد لله ـ حقيقة مقررة تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلّمة، بعد أن كان المرجفون، في مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى، يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان..»

أما الفتوى التى أصدرها الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد على فقه المذهب الجعفرى، فلقد جاءت ردا على سؤال نصه:

«إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه، فيمنعون تقليد مذهب الشيعة الاثنى عشرية مثلا؟!»

فكان جواب الشيخ شلتوت

«إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أى مذهب كان ـ ولا حرج عليه في شيء. إن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما

[illegible]

كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.»

فمجهود الشيخ شلتوت - الفكرية والعملية - بنى الأزهر الشريف، واختص كل المذاهب الإسلامية الموثقة المصادر، ودعمت مصر الدولة - من خلال المؤتمر الإسلامي الذي كان الشيخ شلتوت مستشاره - دار التقريب ومجلتها، وانفردت مصر - عندما أصدرت الموسوعة الفقهية - باعتماد المذاهب الفقهية الإسلامية الثمانية الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، والجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري - في هذه الموسوعة على قدم المساواة..

وهو موقف ينفرد به الأزهر الشريف بين كل الجامعات الإسلامية، وتنفرد به مصر بين سائر الدول الإسلامية حتى كتابة هذه الصفحات!

ولم نر من الآخرين - ممن في ذلك علماء الشيعة، الذين اختفوا بفتوى الشيخ شلتوت - لم نر منهم موقفاً مماثلاً لموقفه في السماحة والتقريب بين مذاهب الإسلام!

* * *

تلك إشارات إلى معالم بارزة ومتميزة في المدرسة الفكرية التي نربي فيها وعليها الشيخ شلتوت.. وإلى معالم سيرته ومسيرته التعليمية والعلمية..

وإلى نماذج من المنابر التي تجلى فيها إبداعه الفكري بالاجتهاد والتجديد

رحمه الله رحمة واسعة، وجعل حياته وجهاده واجتهاده معالم على طريق أمتنا نحو التقدم والتحرر والنهوض، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين، ومن عمل بسنته، وسار على طريق جهاده إلى يوم الدين

* * *

(١) المرجع السابق ج٢ ص١٨٨

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

* كتب السنة النبوية

* معاجم القرآن.. والسنة.

الأفغاني، جمال الدين [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م، وطبعة بيروت سنة ١٩٨١م.

الطهطاوي، رفاعة رافع [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

علي عبد العظيم [مشيخة الأزهر] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م

الغزالي، أبو حامد [الاقتصاد في الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح بالقاهرة بدون تاريخ.

محمد عبده [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

محمود شلتوت [الإسلام عقيدة وشريعة] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ سنة هـ / سنة ١٩٨٠م

: [من توجيهات الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م.

: [الفتاوى] طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / سنة ١٩٨٠م

: [تفسير القرآن الكريم] طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / سنة ١٩٧٩م.

(٥)

إمام الفقه والقانون

الدكتور عبد الرزاق السنهوري

[١٣١٣ - ١٣٩١هـ /١٨٩٥ ـ ١٩٧١م]

تقديم

منذ منتصف سبعينات القرن العشرين [illegible] وعندما كتبت عن عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ / ٨٥٤ - ١٩٠٢م] وأنا طالب بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة في النصف الثاني من عقد الخمسينات [illegible] إحياء تراث أعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي، من رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م] إلى جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] إلى محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] إلى الكواكبي [illegible] إلى علي مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١هـ / ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] وأستاذ رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] [illegible] هو تمثيل [illegible] الأمة وأنظار صفوتها الفكرية نحو منابع المشروع الحضاري النهضوي الكفيل بإخراج هذه الأمة من متاهة فكريات ونظريات الغرب والامتلاك الحضاري [illegible] من مستنقع التقليد والجمود، أي من شقي التقليد الأعمى [illegible] عصر التراجع في تاريخنا الحضاري.

فإن تراث أعلام هذا المنار الإحيائي التجديدي يقدم الانطلاق [illegible] المعالم الأساسية لمشروع حضاري نهضوي [illegible] فيه تتواصل الروح الحضارية الأصولية الإسلامية [illegible] في ضمير الأمة ومدنيتها وتاريخها وثقافتها [illegible] وفيه [illegible] الذي عاش فيه هؤلاء الأعلام [illegible] وفيه أيضا [illegible] الذي تستعيد فيه الأمة الإسلامية مكانتها الطبيعية في أمة الأمم وطليعة الحضارات.

وعلى هذه المعالم الأساسية، في هذا المشروع الحضاري، يجب أن يكون البناء والإضافة والتطوير..

ولقد حققت بحمد الله وعونه [illegible] تمييز الإحياء وتحقيق ودراسة تراث كوكبة

من هؤلاء الأعلام، الذين عدد مؤلفهم بين المئين والمئات في حياته المكرمة وبثت فقهه المعاصرة من جديد.

***

وهو ما [illegible] الجدل بشرارة حول «هوية القانون» الذي يحتكم إليه ويحكم الواقع حتى الذي يعيشه ويطبع به. وهو جدل الذي يدور بين دعاة «أسبقية الفقه الحديث والقانون المعاصر» وبين دعاة «استعارة فلسفة القانون الوضعي الغربي» ـ هذا الجدل الذي أحدث وما يحدث صدعا في عمق المجتمع، الذي بلي بتعدد قوانينه ـ لا أجد أفضل ولا أقدر على حسم هذا الجدل والحكم في هذا النزاع من قاضي مصر الأكبر، ومشرعها الأبرز، وأعظم فقهاء الأمة في القانون الحديث والمعاصر، الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٧١م]. . فإمامته في القانون الحديث قد انعقد عليه إجماع فقهاء وقضاة وأساتذة هذا القانون الحديث ـ عربا ومسلمين وأجانب ـ . وإمامته في الشريعة الإسلامية وفقه الإسلامي ـ وهي التي يجهلها الكثيرون ـ والتي ستكشف هذه الدراسة عن معالمها وحقائقها ـ . هذه الإمامة في هذين الميدانين، هي التي ترشح السنهوري ليكون أقدر وأعدل القضاة في هذا النزاع المحتدم حول «هوية القانون» الأنسب لحكم واقع العرب والمسلمين

فأهل القانون المعاصر قد يرجحون السنهوري إلى فقهاء القانون الحديث الذين أكثر وأهم بلدان وحكومات المعمورة قد عهدت إليهم بصياغة وتحرير قوانين مدنية حديثة، فحيثما ذهب فقهاء القانون في أوروبا فإنهم أدركوا وخاصة الذين جمعوا منهم بين فقه القانون الغربي وفقه قوانين الشريعة الإسلامية ـ أدركوا رسوخ قدم السنهوري في الشريعة الإسلامية وفقه الإسلامي. فأضفوا عليه لقب «الإمام الخامس»، بعد الأئمة الأربعة في هذا الميدان الذين يعتصم بمذاهبهم الفقه الإسلامي لأربعة أئمة الحنفية [٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م] ومالك [٩٣ ـ ١٧٩هـ/ ٧١٢ ـ ٧٩٥م] والشافعي [١٥٠ ـ ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠م] وأحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م] ـ أضفوا عليه هذا اللقب، بعد مراجعته دراسته للفقه الإسلامي ـ في منتصف عشرينات القرن العشرين ـ والتي أثمرت رسالتي الدكتوراه، إحداهما في القانون المدني، والثانية في

فقه خلافه إسلامية، كمقصمه ثم سلامية، تقوم على مدنية إسلامية وشريعة الإسلامية، والتجديد لتراث الأمة في فقه المعاملات..

لقد أدرك فقهاء القانون الأوروبي في السنهوري ـ هذا قدر ـ عظمة حين رسالة تجديد الفقه الإسلامي، وبعث المدنية الإسلامية، وبناء النهضة الشرقية. فعقدوا عليه آمالا كبيرة وكلفوه بالعمل في بعث تجديد شريعة عظيمة الإسلامي. ووجدت الأعباء المطلوبة من هذه العظمة عندما [illegible] الفقه الإسلامي [illegible].

وتحمل السنهوري هذه «رسالة العظيمة» وغير سنوات حياته الخصبة في قرب لثمانين عاما أخرج فيها بحر عظيما من مطلع جيل الذي عاش فيه

فهو عندما وضع القانون المدني المصري وهو عهد الإنجليز القانون مصري يدعون الفرنسي منذ عهد لتاسع عشر والعقود الاستعمارية التي كانت تحول دون الاستقلال القانوني لمصر ـ قد جعل مصادر هذا القانون المدني:

١ ـ **القانون الغربي** وخاصة في صياغته المتقدمة وتقنينه المنصوص

٢ ـ **والقضاء المصري**.. الذي أرسى الكثير من التقاليد والمبادئ التي احتكمت إلى العرف والواقع.. والشريعة الإسلامية

٣ ـ **والشريعة الإسلامية**، وتراث فقه المعاملات الإسلامي..

فحطا بذلك خطوة كبيرة نحو هدفه وحلم حياته [illegible] القانون

[illegible] وضع القانون المدني العراقي ـ السنهوري ـ فقد كان [illegible] وضع كثير في كشاف أعده وكتب بعنوان الإسلامي [illegible] وأعده على الغرب لأكثر من أسبقية هذه القوانين، ذلك الإنجاز الذي يحكي عن قوانين تبنت [illegible] بين الفقه الإسلامي، ممثلا في مجلة الأحكام العدلية، التي [illegible] الفقه المعاملات المذهب الحنفي عام ١٢٨٦هـ سنة ١٨٦٩م فيحتفر السنهوري مصادر القوانين المدنية الحديثة، التي وضعها لهذه الأقطار.

ـ **الشريعة الإسلامية** ـ ممثلة في مجلة الأحكام العدلية [illegible] وفي كتاب مرشد الحيران، الذي قنن فقه الحنفي [illegible] محمد قدري باشا [١٢٣٧ ـ ١٣٠٦ هـ

٨٢١ ١٨٨٨م] فيه مذاهب الفقهي ـ على نحو لم تكن الفقه والتقنينات العصرية من محيطه لأحكام عدالته ... ونصوصه تمثل هذه الشريعة في تراث مذاهب الفقه الإسلامي، والتي أنجز فقهاء مستهل القرن العشرين معظمة وتوعى وتقنينه

٢ ـ والقانون المدني المصري ... هي جعله يستمد أحكامه وتصوراته من مذاهب هذه القوانين فيراث تقنيناته وقوانين تقنينه ... وتجربة مشاركة بين مقنوناته ... في ... وقد حدث مستهل القرن العشرين في تجربة القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية ... وفي القانون المدني المصري ـ عند ذلك بمثابة مرحلة للمقارنة، ستحث على نهوض بالشريعة الإسلامي ـ دراسة ... وتجديدا ... وتعميما ـ حتى تصل إلى الهدف الأعظم **قانون عربي خالص الإسلامية يضاهي ـ بل ويتفوق على ـ المنظومات القانونية العالمية . .**

***

إن أصالية الشريعة الإسلامية، وفقه معاملاتها ـ عند السنهوري ـ لم تكن مجرد موقف نظري، مرده الانحياز للإيمان الديني بالإسلام . . وإنما كانت هذه الأصالية ـ فوق ذلك ومعه ـ ثمرة خبرة غنية نابعة من مقارنة القوانين العربية والمصرية بالشريعة الإسلامية

وفي دراسته عن [تقنين القانون المدني المصري وعلى أي أساس يكون هذا التقنين] التي كتبها في عهد الحماية بمناسبة الذكرى الأربعين لإنشاء المحاكم المصرية ١٩٣٣م ... قارن بين حكام الشريعة الإسلامية ومصادرها في القانون المصري ـ المأخوذ عن القانون الفرنسي ـ وانتهى من تجربته إلى رصد فقهاء السنهوري لمبادئ الشريعة الإسلامية ومذاهبها، وفي فلسفة التشريع، أو في ملاءمة هذه الفلسفة للشريعة الإسلامية لموقع المعاصرة، أو حتى في الصياغة بمفهومه وتقنينه المصوغة لكثير من أحكامه ... وقد عاصر السنهوري في تجربة مذاهب الفقه الإسلامي بمصادره الأصلية على اعتبار الشريعة الإسلامية في كثير من التقنينات . . من مثل «المجموعة المصرية» و«المصرية لحمل الشعبة والحوالة بدين» و«هلاك الزرع في غير المؤجرة» و«المقاصة الإجبارية» و«المقاصة الإجبارية الشائعة» و«الإرادة» و«الملكية الشائعة» و«الحقوق الارتفاق»

و"السوفسطائي هوجر" و"البحر من الأرض أو رعشة" و"الصفدي مستعد في عبارة
لاسعفني" و"المدعي أبو منصة" و"العين في منتصف" ح ح ح

بل لقد رأيت حتى اختيارات السنهوري في القانون المدني المصري اختيارته من القوانين الغربية، وترجيحاته بين أحكامها، قد حكمتها الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها، قبل أن تحكمها فلسفة تلك القوانين في التشريع. فهو قد اختار ورجح من تلك التقنيات الغربية ما اتفقت فيه مع الشريعة الإسلامية، في فلسفة التشريع والمبادئ والقواعد. فرأيه قد قصر مرجعه المباشرة على شريعة بفلسفة معاصرة وهي في عمقها قانون جرماني على عكس القانون الفرنسي، لا لأن القانون الجرماني قد جاراها، ولا لأنه وافق فيها الشريعة الإسلامية، ثم جاء الأحكام مصطبغة بالصبغة الإسلامية، واستمد بعضها من الفقه الإسلامي، مع الاستفادة من ثراء القانون الغربي في الصياغة وفي التقنين.

هذا هو السنهوري يشارك في تحديث القانون في الوطن العربي والشرق الإسلامي على امتداد عقود القرن العشرين.. وكانت مدرسته المتجددة في مذهب السنهوري هي مدرسة في فقه القانون المقارن وكان عمر بقعة مصري مثلاً في مذهبه - هو عين إسلامية هذه البقعة. وكان عموده منهج مقارن بين البقعة الإسلامي والمجموعات القانونية الغربية هو الذي جعل فقه الإسلامي عنصراً من عناصر نهضة وإثراء بقعة العالمي. وكان حب السنهوري لإسلامية فقهه وقانون مصر هي الرباط الجامع بين مصر وبين أمم الشرق العربي الإسلامي.. فوحدة الشريعة والفقه هي التي تجعل من هذه الأمم وحدة ثقافية كبيرة وحضارة سياسية بعصبة الأمم الإسلامية.

فالسنهوري لم يكن مجرد صانع قوانين"، وإنما كان صانع أمة نهضة شرقية إسلامية، هي التي تبقى قبل قوانينه التي تقادم في عصر الحداثة الإسلامية من جديد!

***

هذا هو الذي بعث الإسلامي بالعربية والشرق هو جسم السنهوري، ساعة حان ميقاته، مذعناً لدعوة هذه الرسالة في أن صعدت روحه إلى مولاه.

[illegible] من ذكرى عيد ميلاده [illegible] سنوات [illegible] ذلك في [أوراقه الشخصية] [illegible] سبحانه وتعالى [illegible] مولاه [illegible] في دعوته [illegible] سنوات [illegible] دعوة [illegible] ولا [illegible] يرجوه كي يحقق لأمته ما نذر نفسه لتحقيقه لها من الآمال العظام

وحتى في سنوات المرض [illegible] كانت دعوته إلى الله سبحانه وتعالى [illegible] الأمر [illegible] كي يحقق لأمته [illegible] نفسه لتحقيقها..

* * *

[illegible] السنهوري باشا "أمة في رجل عظيم" [illegible] القانون الحديث [illegible] الوطن العربي [illegible] الرجل في هذا [illegible] الوجه الإسلامي للسنهوري باشا [illegible] عن وعي الكثيرين.. ومنقوص كثيرا لدى نفر قليل!..

[illegible] ووفاة [illegible] الرجل العظيم [illegible] في أعماق أمته [illegible] الوجه الإسلامي للسنهوري باشا [illegible] ما تناثر من كتاباته ودراساته الإسلامية - في علاقة الدين بالدولة [illegible] وفي إسلامية المدنية الحديثة التي تتطلع إليها.. وفي إحياء وتجديد الفقه الإسلامي [illegible] الإسلامية.. إلخ.. إلخ.. نستدعيه - بإحياء تراثه هذا [illegible] والأمة [illegible] هذا القاضي العادل العظيم - في هذا النزاع المحتدم بين [illegible] والإسلامية، حول «هوية القانون»

- أسلمة هذا القانون؟

- أم الانطلاق فيه من الفلسفة الوضعية التي حكمت المنظومات القانونية في الحضارة الغربية؟

* * *

إن هذه الدراسة تسعى إعادة السهوري إلى موقعه الطبيعي [illegible] موقع الإمامة والقيادة والريادة في [illegible] الإحياء الإسلامي، [illegible] الإسلام [illegible] وذلك بعد أن غابت صورته هذه عن جمهور المثقفين والمفكرين والباحثين [illegible] في بلادنا، حتى لقد سلبه غير الإسلاميين من الإسلاميين [illegible] سوى جهوده في القانون المدني الحديث.. بل لقد حجبوا - عن العيون والعقول - ما أحدثه من تحول في [illegible] القانون المدني الحديث - بمصر.. وسوريا.. والعراق.. والكويت [illegible] وصل القانون الحديث بالفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية

تطمح هذه الدراسة إلى ذلك، بتقديم الصفحات والأفكار والدراسات والبحوث والمحاضرات التي كتبها السنهوري عن المدنية الإسلامية والشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي وعلاقة الدين بالدولة في الإسلام [illegible] وعميق [illegible] الإسلام، بادعاء أنه دين لا دولة، ورسالة لا حكم، وروحانية لا سياسة فيها.

هذه الصفحات والدراسات التي تناثرت، بل وغابت عن عيون مفكرينا ومثقفينا - والتي جمعها وبعثها لتنضم إلى إنجازاته الإسلامية الكبرى، رسالته للدكتوراه في فقه الخلافة الإسلامية وتطورها، وسفره الكبير عن مصادر الحق في الشريعة الإسلامية ووصله بين القانون المدني والشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي - وذلك لتجلي الوجه الأكثر إشراقاً للسنهوري باشا [illegible] الإمام الخامس في الفقه الإسلامي، كما هو الفقيه [illegible] في القانون المدني الحديث

وحتى نعلم الذين لا يعلمون أننا بإزاء عبقرية فذة، وجامعة بين إمام الفقه.. وفقيه القانون..

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل - الخالص لوجهه - إنه أفضل مسئول، وأكرم مجيب

***

- ١ -

بطاقة حياة

* الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا [١٣١٣ - ١٣٩٠ هـ / ١٨٩٥ - ١٩٧١ م] هو أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، وعميد فقهاء القانون الثاني في العالم العربي، وأحد أعظم القضاة في القرن العشرين، وصاحب الأحكام التي تمصرت بحريات الأمة - عندما رأس مجلس الدولة في مصر إبان مرحلة الغليان السياسي والاجتماعي التي سبقت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م.

وهو فوق كل ذلك إمام الفقه الإسلامي، الذي جعل رسالة حياته تعمل على تقنين الشريعة الإسلامية، وجعل الفقه الإسلامي، يتعود الشريعة الإسلامية مصدر القانون الحديث، والرباط الموحد لشعوب الشرق في الجامعة الشرقية وعصبة الأمم الإسلامية، التي هي الصورة العصرية للخلافة الإسلامية.

* ولد السنهوري بمدينة الإسكندرية، في ١٩ صفر سنة ١٣١٣هـ / ١١ أغسطس سنة ١٨٩٥م في أسرة فقيرة، لوالد كان يعمل موظف صغير «بمجلس بلدي الإسكندرية» وقد توفي والده سنة ١٩٠٠م، وهو في السادسة من عمره، تاركا سبعة من البنين والبنات..

* وقد بدأ السنهوري تعليمه في «الكُتّاب» ثم انتقل إلى «مدرسة رأس التين الابتدائية» وبعد حصوله على شهادة الابتدائية التحق «بمدرسة العباسية الثانوية» بالإسكندرية، ومنها حصل على شهادة الثانوية سنة ١٩١٣م، وكان متفوقا طوال سنوات دراسته.. وجاء ترتيبه - في الثانوية - الثاني على جميع طلاب مصر.

* وفي نفس العام ١٩١٣م التحق السنهوري «بمدرسة الحقوق» بالقاهرة، مرحلة التعليم العالي الجامعي - وكانت الدراسة فيها باللغة الإنجليزية - وتسبب من رقة

حتى لأحمد عبده، وحتى يوصل دراسة الحقوق، جمع بين هذه الدراسة ودراسة العلوم فوصف كرقة خصائصه في وزارة المعارف، التي تخرج من الحقوق، وعين بها "مساعداً" سنة ١٩١٧م. وكان ترتيبه الأول على جميع الطلاب.

* وإذا كان دراسة الحقوق، قد سحبت منكوبة لأدبه، موهبة ومعرفة، عن مشاعره الوطنية والإسلامية - فقد شاعر التي تكونت في بيته الوطنية والإسلامية - فقد هي مدرسة زعيم الوطني الإسلامي مصطفى كامل باشا [١٢٩٣ - ١٣٢٦هـ / ١٨٧٤ - ٩٠٨ م] التي تأثر بها شعراء في مرحلة تكوين - وقد عبر عن هذه حقيقة من خلال تكوينه الفكري فقال: «إن الحين الذي أدرسه تتلمذ في الوطنية لمصطفى كامل قبل أن يتتلمذ لرعدول، وإني مدين بشعوري الإسلامي لرجلين آخرين غير هذين الرجلين، أذكر منهم لكواكبي وحديش وفريد وجدي، أما عبده وجمال الدين فلم أحضرهما في حياتهما، وتركا من الكتابة شيئاً قليلاً لم يمكني من أن أتأثر بأفكارهما، ولكنهما تركا أثراً عميقاً في نفسي، ويعتبرهما العالم الإسلامي بحق أكبر المصلحين في العصر الحديث.

لقد قلت لصديق - وأنا في الخامسة عشرة - إن أمامي في الحياة قد تعيَّن بين مصطفى كامل وسعد زغلول، والفرق بينهما، أن مصطفى كامل بدأ أن يكون وطنياً فجاءت عظمته من الوطنية، أما سعد فبدأ أن يكون عظيماً فجاءت وطنيته من العظمة.

* وكان يقرض الشعر أحياناً وشعره جيد، وقد عبر عن اهتماماته العامة بشؤون أمته وعن سخطه الإسلامي - وهو طالب بمدرسة الحقوق سنة ١٩١٦م - فقال:

أرضى أن أنام على فراشي	ونوم المسلمين على قتاد؟!
وأهنأ في النعيم وبعد عيشي	وقومي شُتِّتوا في كل واد
فلا نعمت نفوس في جسدي	إذا سيبت نفوس في الصفد

* ولأن نفسه كبيرة، ومقاصده عظيمة، فقد جعل من قراءته ومعارفه لأحمد عبده جوهر تفسير حياته على طريق عظمته، وعبر عن هذه الحقيقة من خلال حياته فكتب يقول: «شيء يشترك فيه أكثر العظماء، حياة الشظف والضيق التي عاشوا فيها أول حياتهم، فنفخت في أخلاقهم روح الصلابة، وعوَّدتهم مكافحة الشدة، فأذاقوا الحياة يأسهم بعد أن أذاقتهم يأسها!».

* وفي نفس العام الذي درس فيه السنهوري "الحقوق" سنة ١٩١١ [illegible] [illegible] في سلك [illegible] مدينة المنصورة [illegible]
تفجرت أحداث ثورة مصر الوطنية ـ في سبيل الاستقلال وجلاء جيوش الاحتلال الإنجليزية ـ سنة ١٩١٩ م [illegible] الوطنية [illegible] السنهوري من [illegible] الوطنية [illegible] (مصر [illegible]) [illegible] باشا [١٢١٣ ـ ١٣٤٦هـ / ١٨٥٠ ـ ١٩٢١م] [illegible] النشاط الوطني والثوري [illegible] مدينة المنصورة [illegible] مصر

* وفي سنة ١٩٢٠م نقل السنهوري من عمله في النيابة العامة إلى التدريس في "مدرسة القضاء الشرعي" وهي واحدة من أهم المؤسسات [illegible] في تجديد الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر [illegible] درس فيها وتخرج منها كوكبة من أعلام التجديد الإسلامي المعاصر ـ وفي مدرستها [illegible] السنهوري كوكبة من مجددي العصر [illegible] منهم الأساتذة [illegible] [١٢٩ [illegible] ـ ١٣ [illegible]هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٤٥م] و [illegible] عبد الوهاب خلاف [١٣٧٥هـ [illegible] ١٩٥ [illegible]م] و [illegible] عبد الوهاب عزام [١٣١٢ ـ ١٣٧٩هـ / ١٨٩٤ ـ ١٩٥٩م] و [illegible] أمين [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ / ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] .. إلخ .. إلخ ..

* وبعد عامين من التدريس في مدرسة القضاء الشرعي ـ سافر السنهوري إلى فرنسا ـ في بعثة علمية لدراسة القانون ـ فركب السفينة من ميناء الإسكندرية ـ قاصدا إلى مدينة "ليون" في ١٢ أغسطس سنة ١٩٢١م [illegible] في صبيحة يوم [illegible] مذكرات [illegible] ـ وهو في السادسة والعشرين من عمره.

وفي سنوات [illegible] في [illegible] في علوم [illegible] الأصول [illegible] الأوروبية الحديثة ـ [illegible] الفرنسية [illegible] و [illegible] والاشتراكية [illegible] في كثير من البلاد الأوروبية متأملا ودارسا

* وشهد له كرنه في مسرى الأبحاث التي دونها في أوراقه الشخصية أنه عالم بوطنه ومنه وسلامه وتحدث عنه الإسلامي وتقمص شريعة الإسلام، وشهد له مشرق بالإسلام، وشهد الإسلام بشرقه كتب هي شغله الشاغل، وخلفه على سفر على رسم معالم تحقيقه، فجعلا منه رسالته في الحياة..

* وقد كان مصر قد انتخب سنة ١٩٢٥م مستشرقاً فرنسياً متخصصاً في القانون ويحضر رسالة الدكتوراه، فإن الرجل بعطيه قد أخذ في تلك السنوات الخمس أضعاف المطلوب والمأمول.. أنجز رسالة للدكتوراه في [عن] [شهد له] بورقة على جرأة العلم] [عرضها] على جامعة "ليون" سنة ٩٢٥ م [وهي] رسالة له كتوراه في العلوم الاقتصادية والسياسية [وأخرى] من معهد الدراسات الدولي بجامعة باريس..

وضع هذه الإخراجات العلمية، والتعبير عن فهم الإسلامي، الذي كان كل همه حينه، التصدي لوهم [الذي] سمي خلافة الإسلامية سنة ٩٢٤ م [أثار] عرضه عن [وضعه] وقرأ [جملات] مشوبة بهذه خلافة عمر" بحث في كتاب [الإسلام وأصول الحكم] [صادر] سنة ٩٢٥ م [شرح] على عبد [الرازق] [٣٠٥ ١٣٨١هـ ٨٨١ ١٩٠٦م] وسهد فرحة لعالم الأزهري [محمد] وعاد [بوجهه] الإسلامية، ومن جامعة الإسلامية التصدي [شهوري] بهذا الحديث الذي كان يثير الشرق والإسلام، فحرر رسالة أخرى للدكتوراه [بالسربون] على [خلافة الإسلامية] وتصورها، [نصح] هيئة [ثم شرفه] سنة ١٩٢٦م.

* وفي صيف سنة ١٩٢٦م عاد [شهوري] من باريس إلى وطنه مصر [وعين] مدرساً للقانون المدني في كلية الحقوق بالجامعة المصرية..

* وبعد عام من عودته إلى مصر تزوج في ٥ مايو سنة ٩٢٧ م [وفي] يوم [الجمعة] في شهر [مايو] في ٢ يونيه سنة ٩٢٧ م [وسافر] في [شهر] يونيه [وقد دامت] شهر يوم.

* وقد [شهوري] في مصر [قد] [بدأ] مرحلة [جديدة] [في] [تكتب] [وشهرته] بالشباب والرجال [الذين] [يحكم] [حكمهم] [ويثنى] [عليه] [ويمدح] [بقوته] والسلوك

[illegible] وعمه الإجبار [illegible] كنت [illegible]
[illegible] نصيحتي إلى لطفية هي: أن يتمسكوا بالرجولة. والمعنى الذي أقصده من الرجولة هنا هو أن تكون شجاعتهم مستمدة من نفوسهم، لا من الملابسات الخارجية، وإذا كنت أنصحهم بعدم الخنوع عند وقوع الظلم؛ فإني لا أكون أقل نصحا لهم بعدم التمرد عند إطلاق الحرية. فالخنوع للظلم والتمرد على الحرية هما على قدر واحد من الدلالة على الضعف النفسي، فليتحرروا أنفسهم من ضعف الخنوع ومن ضعف التمرد؛ حتى يكونوا رجالا يدخرون في أنفسهم قوة ذاتية تكون عدتهم في التغلب على الصعاب"

* [illegible] في حقل [illegible] الدعوة إلى تجديد الفقه الإسلامي، بتنقيته، وتنقيح [illegible] الاجتهاد فيه، وتقريبه [illegible] المتعلمين [illegible] مقدمة [illegible] مستمدة من نور الله عليها، ومعتمدة على أدلته وبراهينه وقواعده [illegible] وتدعوه إلى تكامل وتضامن الإسلام [illegible] وتدوينه، مع تمييز [illegible] الذي هو خاص بالمسلمين [illegible] عن [illegible] الذي هو حقائق ومبادئ وشرائع وقواعد [illegible] والذي هو ميراث الإنسانية كلها، وشرق فيه شعوبه وأممه، وغربه وقوميته المختلفة [illegible] والتشريع هو الإسلام، والإسلام هو أساس الرابطة الشرقية [illegible] فكتب عن الدين والدولة في الإسلام [illegible] وعن الرابطة الشرقية [illegible] وكان [illegible] الخمسون [illegible] أهدى سنة ١٩٣٢م إلى [illegible] جهود فكرية كبيرة، صغيرها قدمه [illegible] في [illegible] على إعداد الشريعة الإسلامية [illegible] وتشريع [illegible] وتقنينها من جديد.

* وفي هذه المرحلة من حياة [illegible] في [illegible] تجديد الفقه الإسلامي، وإعداد [illegible] الشريعة الإسلامية مرحلة [illegible] عديدة، وصعب هذه الأحلام في [illegible] فكرية ومعنية، فهو [illegible] مجرد [illegible] يتصل [illegible] في [illegible] وعن [illegible] لأحلامه، وهذا [illegible] في صميم فكر [illegible] كتب في ذكرى [illegible] الأعمى في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٥م يقول: "أمضيت العشرين عاما الأولى من حياتي تلميذا في المدرسة، وأمضيت العشرين عاما الثانية تلميذا في مدرسة الحياة. فهل كسبت من التجارب ما يكفي لخلع رداء التلمذة وخوض غمار الحياة؟"

كنت من عشرة أعوام أجيش بالعواطف المتدفقة، وأحب المجد والعظمة. كنت معهما في أحلام الشباب، كنت أستمد المجد من الخيال. أما اليوم، فهو طفى قاربت النصوب

والجفاف، وقد هجرت الحياة إلى الحقيقة، وأصبحت لا أرى المجد إلا في أن أكون نافعا، نافعا لنفسي، ونافعا لأهلي، ونافعا لبلدي، ونافعا للناس..."

هكذا حمل السنهوري منذ فجر حياته هموم أمته، وهكذا تحولت هذه الهموم في مرحلة [illegible] من نطاق الحلم والخيال [illegible] على الأوراق إلى ميادين العمل والإبداع والإنجاز [illegible] في التربية [illegible] والتدريس [illegible] والتقنين والتشريع وفي المواقف الكثيرة التي حسمت القيم والأحلام، [illegible] الأسوة والاقتداء في واقع الحياة.

* ولم يكن طريق الإصلاح أمام السنهوري [illegible] من الأشواك والصعاب والعقبات [illegible] ففي مرحلة الممارسة والتطبيق اصطدم بالعقبات، وكان عليه أن يقدم التضحيات [illegible] ففي سنة ١٩٣٤م [illegible] حكومات الأقلية [illegible] للقصر الملكي والاستعمار الإنجليزي [illegible] حكومات الانقلاب على الدستور والقانون [illegible] السنهوري «جمعية الشبان المصريين» - وكان قد كتب منذ سنة ١٩٣٢م عن الحركة الشبابية [illegible] إلى «الرابطة الشرقية» - [illegible] في طليعتها الشاب «فتحي رضوان» [illegible] فكان أن فصل السنهوري من الجامعة بسبب ذلك [illegible] ثم أعيد إلى الجامعة ثانية.

* وفي المحيط الأسري.. رزق السنهوري - في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥م - بابنته «نادية» [illegible] الدكتورة نادية [illegible] وتحيي [illegible] عواطفه [illegible] شعر [illegible] وهي في [illegible] من عمرها [illegible]

[illegible] نادية	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible] رفيقة	[illegible]
[illegible]	[illegible] في السن يا نادية؟
فأجابت: أنا أصـ	ـغر عامين عما هـ
قلت: إذن بعد عـ	ـن أنتما سواسية
فأجابت: وهل ترا	ها على سنها باقية؟!

* وكان مشهور سنهوري باشا قد توفي في ديسمبر سنة ١٩٧١ م، وهو الذي ساهم في بعث الحياة من جديد في حكومة مصر الملكية - بعد معاهدة التي حصلت بالعراق نحو الاستقلال السياسي - وهي فجر عام ١٩٣٢ م، عرفين تحديد حدود حكومة مصر الملكية، وشغله منصب رئيس مجلس الدولة في بعد ذلك التحديد.

وفي عام ١٩٣٩ م، أصدر السنهوري باشا بعد أن عمل عضواً، وعرئيساً لجنة راسخة حتى اليوم في المجتمع العربي؛ فقد:

- أنشأ بعد دكلة حقوق وتولى عمدتها

- ومحلة القضاء - التي أصدرها على أسس جديدة - وأسهم في تحريرها

- وبعد حصوله على الدكتوراه عاد إلى مصر، وعين مدرساً في كلية الحقوق، ثم وكيلاً لها، ثم عميداً لكلية الحقوق، ولاستعفى من الكلية وهو يشغل منصب رئيس مجلس الدولة، وقد حصل السنهوري باشا على الدكتوراه عن رسالة تقدم بها إلى جامعة ليون بفرنسا عام ١٩٢٦ م، وكان موضوع رسالته "أثر الخطأ في المسئولية التقصيرية" وقد عالج في هذا العمل الكبير بدراسة مقارنة لكل من:

مجلة الأحكام العدلية التي كانت مطبقة في العراق وبعض البلاد العربية الأخرى، والتي هي تقنين لفقه المذهب الحنفي في المعاملات.

٢ - وكتاب محمد قدري باشا [مرشد الحيران في المعاملات الشرعية على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ملائم لعرف الديار المصرية سنة ١٨٧٠ م] [الإسلامية] وهو الذي يمثل خطوة أكثر تقدماً في محاولة الأحكام العدلية في مجال الفقه الإسلامي تقنيناً عصرياً مضبوطاً.

٣ - والفقه الإسلامي في مصادره المعتمدة، تحديداً لمذهب الإسلامية، الذي جمع السنهوري باشا في مؤلفه مصادره، وسماه "مصادر الحق في الفقه الإسلامي" مطروحاً والأحكام والمسألة الشريع

٤ - والقانون المدني المصري، الذي سيتم السنهوري باشا شرحاً وتعليقاً في كل عقده وتقنين، كما جعل منه سبيلاً لنقله عضواً للفقه الإسلامي بالمقومات الخاصة به العربية، التي مثلت معه رئيساً من مشايخ هذا القانون المصري.

- وتدرس في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول، وتقرر منحة لأحكام المعاملات مع الخواجات المدنية الحديثة، فتعد كتاب مصادر الفقه الإسلامي ومطولات المعاوضات الأخرى - عنده - من أعظم السبل لتجديد هذا الفقه..

- وألف كتابين لطلاب كلية الحقوق..

وبعد هذه الدراسة الحرة بالخارج عاد مصطفى سعد زغلول إلى مصر بعد مرض والدته..

* وفي مصر بعد العودة من بعثته إلى فرنسا عين قاضيا بالمحاكم المصرية في سنة ١٩٣٨م، فأصبح قاضيا بمحكمة المنصورة حتى سنة ١٩٣٩م.

* وفي سنة ١٩٣٩م عين وكيلا لنيابة المنصورة الكلية، واستمر في هذا المنصب حتى ١٦ مايو سنة ١٩٤٢م..

* ثم انضم للاشتغال بالمحاماة لكنه تركها، وعاد إلى العمل في القضاء في أغسطس سنة ١٩٤٣م، وذلك لأسباب تتعلق بالعمل الذي كان يقوم به في وضع القوانين المدنية الجديدة، وأخذ يحرر هذه القوانين بأسلوب في صياغة الكود المدني الإسلامي حتى قد عبر عن ذلك شعرا خاطب فيه الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان، فقال في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣م -

أنا حنيفة هذا فقهكم بقيت ... منه الأصول وقامت أفرع جدد

قد غير الدوحة الشماء رونقها ... مر الزمان وغير الحين والبلد

وبعد أن أنهى السنهوري العمل في رئاسة لجنة وضع القانون المدني في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٤٣م عينت حكومة مصطفى النحاس باشا [٢٩٣ - ١٣٨٥هـ / ١٨٧٦ - ١٩٦٥ م] ، وكان في مرحلة توفيق مع الاحتلال الإنجليزي لمصر، بين حربين عالميتين ثانية وثالثة، وفي مرحلة من حياة مع الاتجاهات التي تأثر بها مكرم عبيد باشا [٣٠٧ - ١٣٨٠هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦١م] في [الكتاب الأسود]، عينت من حكومة بعد توفيق صدقي فرفضت حكومة الوفد التي أتت بعد حكومتين، تدخل جهل النحاس وزير السنهوري

سعد الله الجابري [١٣٠٩ ـ ١٣٦٦هـ/ ١٨٩٢ ـ ١٩٤٧م] عاصر على حكومته مصرية مستضافة مشهورين في دمشق ـ كحل وسط ـ مصنع شباك تدريب بدي سوري، وستكمل نشاطه بغرفة ... مشغل مثل مشهورين في دمشق في توفي سنة ٩٤٣ ... وسمر فيها حوالي ثمانية أشهر.. لكن إصرار الحكومة المصرية على عدم ... وتهديدها لغرفة وسوريا بمنع لأساتذة مصريين من السفر بهدف ... تضطر مشهورين في مغادرة في مصر في يونيو سنة ٩٤٤ م ... في مشغل محل عدم ... لأساتذة غرفتين لاستكمال وضع ... في الغرفتين

وقد عكست ... [غرفة شخصية] ... عن هذه الأزمة ... في بيان ... في سفر لاحق "أرادوا ألا يتم، ويريد الله إلا أن يتمه" ... في حفل تأبين ... في دمشق في ٢ ديسمبر سنة ٩٤٣ م ... قال:

إن ... نابني حقب كبير	أقسى له يعزم منه أكبر
ومن يتركه أحداث شداد	يعركها فيكسر أو يمهر

وفي ٥ ... سنة ١٩٤٥م تولى مشهوري ... في وزارة حمدي ... [١٣٠٥ ـ ١٣٦٤ هـ/ ١٨٨٨ ـ ١٩٤٥م] ثم في حكومة ... حمدي ... في ... [١٣٠٥ ـ ١٣٦٨ هـ/ ١٨٨٨ ـ ١٩٤١ م] ... في ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ م، وبقي فيها حتى فبراير سنة ١٩٤٦م ثم تولى ... في وزارة ... في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ م وبقي فيها حتى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م ... في ... القيراشي. ثم تولاها ... في وزارة إبراهيم عبد الهادي باشا في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م، وبقي فيها حتى ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٩ م ... في وزارة ... المعروف إلى رئاسة مجلس النواب..

وقد ... في وزارة ... في ... مصر ... مجلس الأمن ... حيث عرض ... قضية مصر ... مطالبا في خلاء ... الاحتلال الإنجليزي عنها

كذلك استمرت جهوده في مشروعاته الكبرى لتقنين القوانين المدنية الجديدة للعراق وسوريا ومصر فأخرجها جميعاً في تلك السنوات. ولقد عبر عن فرحته بإتمام العمل بالقانون المدني المصري في أغسطس سنة ١٩٤٩م فقال شعراً:

إني ختمت بذلك القا ... نون عهداً قد مضى وبدأت عهد

وأقمت للوطن العز ... يز مفاخراً وبنيت مجد

كما عبر عن سعادته بامتداد إنجازاته في القانون المدني إلى البلاد العربية. عبر عن ذلك شعراً فقال:

جهود منهكات مضنيات ... وصلت الليل فيها بالنهار

وكنت إذا استبد اليأس يوماً ... أسل عزيمة الأسد المثار

إذا افتخروا بمال أو بجاه ... فقانوني من الدنيا فخاري

* وفي الأول من مارس سنة ١٩٤٩م خلف السنهوري باشا اليمين رئيس مجلس الدولة المصري. وسجل في [أوراقه الشخصية] دعاءه بربه: **«اللهم تولني بهداك وتوفيقك في هذا العمل الجديد»**.

وكانت مصر تمر بمرحلة من الغليان، استشرى فيها الفساد، واهتزت الأرض من تحت قوائم نظام الحكم الذي أصيب بالعجز والشيخوخة والفساد. كما أصاب العجز الأحزاب التقليدية، فلم تنهض بمهام التغيير. وأراد النظام معالجة أزمته بالبطش بالحريات العامة، وحرمان القوى الاجتماعية والسياسية الجديدة من فرصها في التغيير. فكان السنهوري - على رأس مجلس الدولة - أخطأ الأمة وملاذ حرياتها في سنوات الأزمة والغليان والتحولات..

ولم تقف عمله بمجلس الدولة عند «عدالة القاضي» و«نزاهة المحكمة» التي تخاصم الناس فيها الدولة والسلطة - وإنما كان الرجل وعلى رأسه يقود تغييراً قيامياً لإصلاح كل مؤسسات الحكم، بدءاً بإصلاح السلطة القضائية، وتطلعاً إلى إصلاح السلطتين التشريعية والتنفيذية - فكتب في مذكراته ٢٣ مارس سنة ١٩٥٠م - يقول: **«نظام الحكم في مصر في أشد الحاجة إلى الإصلاح والاستقرار، ويبدو لي أنه يصعب**

البدء بإصلاح السلطة التشريعية، أو بإصلاح السلطة التنفيذية، على أهمية هاتين السلطتين. فيجب، إذن، البدء بإصلاح السلطة القضائية. ويكون هذا الإصلاح في النُّظم، بحيث يكفل استقلال هذه السلطة استقلالا تاما، وبحيث تستطيع السلطة أن تقوم بوظيفتها بما ينبغي من النزاهة والحيْدة، ثم يكون هذا الإصلاح في رجال القضاء أنفسهم، فيُختارون من بين الرجال القادرين على تأدية هذه الرسالة المقدسة، من ناحية الخلق ومن ناحية الكفاية..»

* وفي سنة ١٩٤٩م منحته الحكومة الفرنسية وسام «ليجيون دونير» لتنظيمه [illegible] تعليم الفرنسية [illegible] الأجنبيتين - في المدارس الثانوية وكتب - في مذكراته عن [illegible] «ويعلم الله أنني لم أعن بتنظيم هذه اللغة؛ إلا لأن التلاميذ المصريين في حاجة إليها، ولو أن وساما مصريا منح لي لقاء هذه الخدمة الوطنية لاستسغت ذلك. فالحمد لله الذي أراد ألا أمنح وساما أجنبيا إلا بسبب خدمة وطنية»

* ولما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م تعاون معها، وعلق عليها الآمال في الإصلاح، لكنه اختلف مع مجلس قيادة الثورة في «أزمة مارس سنة ١٩٥٤م» - بسبب الحيرة للدستور والحريات والقانون. فسيرت «هيئة التحرير» التنظيم السياسي للثورة، والبوليس الحربي، والمباحث العسكرية مظاهرة من الدهماء والغوغاء المأجورين، يقودها الضباط، وتوجهت إلى مجلس الدولة، فاقتحمته وأعتدت على الدكتور السنهوري.

وقد كتب في مذكراته: عقب خروجه من المستشفى الذي عولج فيه من آثار هذا الاعتداء - في ١٥ مايو سنة ١٩٥٤م - فقال: «يقول شوقي في رثاء المرحوم أحمد أبو الفتح:

يا أحمد القانون بعدك غامض قلق البنود مجلل بسوداء!

لما خرج النبي ﷺ من الطائف، وقد أصم من فيها آذانهم عن دعوته، وقذفته الأولاد بالحجارة، قال يخاطب ربه:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي؛ إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى

عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»

* هي سطور كتبها في سجن عكا عن قاسم يعذبون فيه، وهو في حصن القصبة.

* وفي سنة ١٩٥٣م أنشرت جهود مشهوري في مشروع "معهد الدراسات العربية العالية". وهو ده معهد خدمة الفقه الإسلامي وكتب في مذكراته في ذكرى عيد ميلاده ١١ أغسطس سنة ١٩٥٣م:

«وقد شاء الله أن يكون هذا العام هو الذي يفتتح فيه معهد الدراسات العربية العالية، فالهم وفقني إلى خدمة الفقه الإسلامي في هذا المعهد، وجعل جهودي في خدمته نواة لغرس عظيم».

* وعند بدء تاريخ وحي: فإنه في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٩١هـ ٢ يوليو سنة ١٩٧١م كرس مشهوري سنوات حياته، وجميع جهوده لمشروعه الإسلامية «الفقه الإسلامي وحدة عربية» و«مجمع اللغة الإسلامية» و«تحديث وتجديد القانون» على امتداد الوطن العربي الكبير.

* وعندما بدأ مشروعه كان قد خلف لأمته عبر مسيرة حافلة بالعطاء خمسة عشر مؤلفاً في الفقه والقضاء، وعشرات الأحكام المستنيرة التي باهى بها القضاء المصري حتى الآن، وصرح من أعلى منبر في الأرض «مجمع اللغة العربية» عشرة بحوث فيه حتى الآن، وعشرات البحوث والمقالات والمحاضرات، في «الشريعة الإسلامية» و«الفقه الإسلامي» و«القانون المدني» و«الإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي»، و«الوحدة العربية والشرقية والإسلامية».

وبدأ عمله الفكري بكتابه «المدخل للعلوم القانونية العربي»، ومن مثل كتبه:

١ ـ **الوسيط في شرح القانون المدني**: وهو في عشرة أجزاء، تقترب صفحاته من خمسة عشر ألف صفحة.

٢ ـ الوجيز ـ في ثلاثة أجزاء

٣ ـ رسالته الأولى للدكتوراه ـ عن [[illegible] على [illegible]] سنة ١٩٢٥م

٤ ـ رسالته الثانية للدكتوراه عن [الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح هيئة أمم شرقية] ـ سنة ١٩٢٦م.

٥ ـ عقد الإيجار سنة ١٩٣٠م

٦ ـ نظرية العقد.. سنة ١٩٣٤م.

٧ ـ الموجز في النظرية العامة للالتزامات سنة ١٩٣٨م

٨ ـ أصول القانون ـ بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حشمت أبو ستيت ـ سنة ١٩٣٨م

٩ ـ التصرف القانوني والواقعة المادية ـ دروس القسم الدكتوراه سنة ١٩٥٤م

١٠ ـ مصادر الحق في الفقه الإسلامي في ستة مجلدات ـ تبلغ صفحاتها نحواً من ألف وخمسمائة صفحة ولقد صدرت أجزاء هذا السفر النفيس في أعوام ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ و ١٩٥٩م

وهو بناء فكري كصاحبه الذي أبدعه ـ كما تباهى به أمتنا وحضارتنا غيرها من الأمم والحضارات[1]

* * *

---

[1] [illegible] [عبد الرزاق السنهوري في [illegible]] [illegible] سنة ١٩٨٨م و [مجلة [illegible]] [illegible] سنة ١٩٨٩م و [مجلة [illegible]] [illegible] في مجلدين كبيرين ـ مقالات وأبحاث للسنهوري، وعنه ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م. [illegible] [illegible] السنهوري باشا] في مجلدين ـ طبعة دار الوفاء سنة ٢٠٠٦م

(٢)

من كتابات السنهورى باشا عن:

(أ) الدين والدولة فى الإسلام

(ب) المدنية الاسلامية.. والنهضة الشرقية (*)

(أ) الدين والدولة فى الإسلام **

لحضرة الأستاذ المحقق عبد الرزاق بك السنهورى

مدرس القانون المدنى بكلية الحقوق بالجامعة المصرية

• الإسلام دين ودولة • السلطات العامة فى الدولة الإسلامية • ملخص تاريخ هذه السلطات بمصر

أولا: الإسلام دين ودولة

[illegible] الإسلام بأنه دين ودولة [illegible] النبى ﷺ [illegible] دين [illegible] فهو [illegible] الأعظم مؤسس الحكومة الإسلامية [illegible] مؤسس الحكومة [illegible] على كل من كان خاضعاً لهذه الحكومة، سواء كان مسلماً أو غير مسلم [illegible] لم يكن يطلب من غير المسلمين [illegible] تركهم على دينهم [illegible] دعوته عامة شاملة لجميع البشر

(*) [illegible] كتابات الدكتور عبد الرزاق السنهورى فى موضوعات «الدين والدولة» و«المدنية الإسلامية» و«النهضة الشرقية». أما إسلامياته التى جمعناها فقد طبعتها [illegible] سنة ١٩٠٦م فى [illegible] مع مقدمة ضافية عن مذهبه ورؤيته الإبداعية فى هذه الإسلاميات [illegible] الإسلامى الحديث

(**) مقال بالعدد الأول من مجلة المحاماة الشرعية، السنة الأولى ١٩٢٩م

من هنا وجب التمييز بين الدين الإسلامي والدولة الإسلامية. وفي كل الإسلام يجمع الشيئين. وفائدة هذا التمييز في أن مسائل الدين تدرس بروح غير التي تدرس بها مسائل الدنيا، فالدين مصدره الوحي وحقائقه ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فعلاقة الله بالعباد ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فالخالق سبحانه وتعالى أبدي أزلي لا يجوز عليه التغيير ولا التبديل، فعلاقته بينه وبين العباد ثابتة لا تتغير

[illegible]

الأولى: فيها خاضعة لحكم عقلي وقد وضعها الله لكي تكون مصالح للناس في حياتهم وتنظيم أحكامهم الدنيوية بما يتفق مع حكم العقل وفي مصلحة البشر هو الذي يهتدي إلى مصلحة البشر في كل عصر، لأن العقل خلقه الله لكي يدرك طبيعة الأشياء بالعقل. فهو الأساس.

وقد كان النبي ﷺ يستشير في أمور الشورى. وقد أمره الله بذلك لأن في هذه الشورى ما هو في العقل كما تقدم. والنبي ﷺ كان يشاور في أمور الدنيا فيما يكون مسرحه العقل. وقد ورد في القرآن الكريم ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران 159].

وعلى هذا فإن الشورى في شرعنا تضمنت كثيراً من الأحكام التي تشاور النبي ﷺ فيها كما استشار في غزوة بدر الصحابة كأبي بكر، وعمر، وغيرهما. واستشارهم في الأسرى بعد غزوة بدر فيما يتعلق بالأسرى من قريش، واستشارهم في غزوة الخندق، وأراد أن يعطي قبائل من قريش والأعراب، فعندئذ رأى أنه يجب استشارة الأنصار في هذا الأمر، فاستشارهم في الرعيين

ويوجد غير ذلك أمثلة كثيرة معروفة في نظري وفي الأثر وغيرها في كتب التاريخ الإسلامي

(الثانية) أن الأحكام في مسائل الدنيا تتطور مع تطور الزمان والمكان فهي تتغير بتغير الأحوال في الذي يهتدي إليها العقل، وقد سبق أن هذه الأحكام خاضعة لحكم العقل في العقل، فهي تتغير بتغير ما يكتشفه العقل لاختلاف في مرافق الحياة،

لأحكام تتسم بالتطور، وقد تغيرت بعض الأحكام في عهد النبي ﷺ، وقد تغيرت أحكام أخرى في عهد الخلفاء الراشدين، وتغيرت أحكام أخرى بعد عهد الخلفاء الراشدين، وذلك باختلاف الزمان والمكان والأحوال، وباختلاف المذاهب الفقهية، وباختلاف أئمة كل مذهب لأثر من آثار هذا التطور في مختلف المصالح العامة، والمعروف والذي أذكر على سبيل التمثيل حادثة تطليق الرجل امرأته ثلاثًا بكلمة واحدة، فإن كيف تطورت الأحكام تبعًا لمقتضيات الاجتماعية والاقتصادية، وهذه الحادثة من الحوادث التي وقعت في حياة النبي ﷺ بكيفية تتفق

تعرف أن النبي ﷺ هاجر إلى المدينة، كان معه عدد من المهاجرين، وجدوا أنفسهم في أمة عربية دون مال ودون عمل، فشرع النبي ﷺ بعد أن عقد المعاهدة بين الأوس والخزرج الأنصار، وبين المهاجرين والأنصار، فكان لكل مهاجر أخ من الأنصار شاركه معه في داره، وفي ماله، وكان هذه المؤاخاة من الأمور التي ما يجعل الأخوين يتوارثان بعضهما لأخوة هذه الأخوة بعض الأخوة بالدم، ثم نسخ في بعض الشرائع الأخيرة، وتغير العمل به فيما بعد، ومن جملة المهاجرين الذين هاجروا في غزوة بدر فتغيرت الظروف التي اقتضت تشريع الأول، وبذلك تطور التشريع بعد، وأنزل النبي ﷺ هذه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وجعل كل واحد منهم كالأخ الشقيق بتطور التشريع من عمل إلى عمل، ومن حكم إلى حكم، فتطور التشريع الإسلامي، وذلك تمشيًا مع تطور الاقتصاد والاجتماع بمقتضيات المصالح، وتحقيقًا لمصلحة في الحكم التي تقرر

٢ - وبعد أن الإسلام دين ودولة، فيكون مع بعض الكتاب الذين درسوا سيرة النبي ﷺ قاصرة على أنه رسول فقط، وأن الشئون التي تتعلق بالدولة وسياستها وأن محمدًا ﷺ كان يباشرها بوحي غير صحيح بوصفه محمدًا، ويكررون في كل محدثون بحجة أن النبي ﷺ كان في مكة لم يحكم، فلقد كان في مكة رئيسًا لأمته ومشيرًا دولة، ولا صحة لقولهم بأنه كان مكلفًا بإدارة شئون الدولة بكل ما تحكمه الإسلامية، وإنما على الدعوة في صورتها، كما كان جاريًا منهم في شئونهم وبقدر ما يتعلق بالصلاة والإسلام يحتاج الأمر فيه إلى وحي لا شك من عند الله حتى يتجنب الناس في

(١) الإشارة إلى الشيخ علي عبد الرازق والرد عليه للسهوري

تقسيمهم وموضوعهم في هذا القسم، ثم نقتصر على محاولة وضع تقسيم للقانون والعقد في الحياة الأخرى..

٣ ـ ومن الواضح أن القانون والعقد في الإسلام يشتركان مع ذلك في أهمية كبرى، وقد اقتصر بحثنا على المشتغلين بالقانون على اختلاف تخصصاتهم، وحدد أكثر ضرورة هذا التقسيم، فرأينا أن نعالج العقد والعقود، وبذلك فرقنا بين مسائل يمكن أن تعد من صميم الفقه في أبحاث على أنواع المعاملات، فهذه هي الدائرة القانونية. وإذا أردنا أن نبقى في شريعة على معناها المصطلح عليه في قديم، من أنها تشمل العقد والمعاملات، فيتحتم اصطلاح جديد على هذا الأساس، وتسمية أنواع العقد خاصة والمعاملات بالقانون الإسلامي، وتدخل ضمن هذا القانون بحسب هذا الحد، من تسميه فقهاء، علم أصول الفقه، وهو يبين مصادر القانون وكيفية استنباط الأحكام من تلك المصادر. وتدخل أيضاً في القانون الإسلامي جزء من علم الكلام هو المتعلق بحث الإمامة، فإن هذا أساس القانون العام. ولتقسيم القانون الإسلامي نجد أنفسنا بين قانون خاص، وقانون عام، والقانون الخاص يشمل النواحي التي تتصل بعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، لأن القانون المعاملات، والأحوال الشخصية تدخل في القانون الخاص، والقانون العام يشمل النواحي التي تتصل بالدولة. وعلاقة هذه المتصلات بالأفراد. وقد أردنا أن نجد في كل قسم فروعه بحيث يسهل على الدارسين كثير مشقة أن يجد في القانون الإسلامي الخاص قانون العقد، وقانون المرافعات، وقانون التجارة، وأن يجد في القانون الإسلامي العام قانون دستوري، وقانون إداري، وقانون جنائي، ولا يمكن أن يكشف أصولاً تسمى عليها قانون دولي عام، وقانوناً دولياً خاصاً.

وأهمية تقسيم القانون الإسلامي هذا التقسيم الحديث أن ذلك يجعل هذا القانون قريباً أقرب إلى نفوس المتعلمين وأكثر تطرقاً على طرق البحث الحديثة، بعد أن تخطى علم القانون أدواراً غير قليلة في سبل الرقي.

ولا نريد بهذا التقسيم أن نجمع شريعة الإسلامية في قانون حديث، وأن نقف مصطلحاتها، ونحدد مواردها تحديداً بين مشتبهين، وضع بذلك قانوناً هو في البحث في الشريعة الإسلامية بحيث تتمشى مع القانون الحديث في تقدمه.

٤ - [illegible] القانون [illegible] هو [illegible] القانون [illegible] العام [illegible] القانون الإسلامي [illegible] في تقسيم الأصوليين [illegible] حق [illegible] وحق [illegible] مشترك، ولكن حق [illegible] غالب، وحق مشترك، ولكن حق [illegible] غالب [illegible] حقوق [illegible] حق [illegible] غالب [illegible] وبعض حقوق [illegible] وكذلك حقوق مشتركة [illegible] حق [illegible] غالب [illegible] أن تكون موضوعات للقانون العام.

ثانيا: السلطات العامة في الدولة الإسلامية

[illegible] حكومة إسلامية، [illegible] حكومة الإسلامية [illegible] على ثلاث سلطات: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية.

١ - السلطة التشريعية

[illegible] في الدولة الإسلامية لا يمكن [illegible] الشارع لأمور الدين والدنيا، مشيئته نافذة وأمره قانون، فهو [illegible] السلطة [illegible] [illegible] عليه الصلاة والسلام [illegible] كتاب الله الكريم [illegible] التشريع، وكانت [illegible] عليه الصلاة والسلام [illegible] فهي المصدر الثاني [illegible] الأحكام [illegible] [illegible] أصبح [illegible] يكون [illegible] التشريع، هو [illegible] للأحكام [illegible] [illegible] عليه الصلاة والسلام: «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

---

(١) رواه الدارمي

[illegible]

المسلمين ينوبون عن الأمة الإسلامية، ونيابتهم آتية لا بطريق [illegible]

[illegible] في حدود الكتاب والسنة. فحكومة المسلمين حكومة علماء.

والعلماء في الأمة الإسلامية - كما يقول ﷺ - هم ورثة الأنبياء.

[illegible]

جعل سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية صاحبة السلطان في شئونها [illegible]

[illegible]

هل يمكن أن يبنى على أصل الإجماع في الإسلام مشروعية المجالس النيابية الحديثة، هذا بحث آخر نرجو أن نوفق إلى بحثه في مقال آخر.

٢ - السلطة التنفيذية

[illegible] عن سائر الحكومات بالمزايا الآتية:

(أولا) [illegible]

[illegible]

أمير المؤمنين إذا ولى اختصاصاته [illegible]

(ثانيًا) [illegible]

ثالثًا [illegible]

على أن الخلافة [illegible] يمكن تحققها إذا اجتمعت كلمة المسلمين [illegible]

[illegible]

٢ـ السلطة القضائية

أما السلطة القضائية في الإسلام فهي ليست مستقلة عن [illegible]

خليفة يجمع بين السلطتين، وهو الذي يولي القضاة ويعزلهم، ويجوز أن يلي القضاء بنفسه، وكان النبي ﷺ ومن بعده من الخلفاء الأربعة يقضون بين الناس، فلما اتسعت شئون الملك، وكثر عمال الخليفة، صار الخلفاء يولون للقضاة في الأمصار والأقاليم، وصار القضاء يستقل شيئاً فشيئاً، حتى كسب به وجوداً متميزاً عن ذاته عهد السلطة التنفيذية.[1]

ثالثاً: ملخص تاريخ هذه السلطات الثلاث بمصر

[illegible] بلاد مصر في بدوه الإسلام [illegible] وصار بمصر قضاء إسلامي حتى وقتنا هذا، حيث شريعة الإسلام محل شريعة الرومان، وكان من شأن ذلك أن كثر الفقهاء والمجتهدون في مصر، ومن علمائها الإمام الشافعي رضي الله عنه صاحب المذهب المعروف، فرق مذهبين من مذاهب الكثيرين المتبعة عند أهل السنة مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وهو مذهب أهل العراق، ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهو مذهب أهل الحجاز، ويقول بهذين المذهبين أكثر المسلمين على وجه الأرض. حتى الشيخ جامع الأزهر في عهد الدولة الفاطمية، فصار بعد قيام الإسلامية مركز الثقافة العلمية، وجعل مصر مكانة ممتازة بين أقطار العروبة، ولا شك في أن مصر [illegible] حجراً كبيراً في بناء الشريعة الإسلامية، وساعد كثير على علائها، على أن [illegible] مصر فيها في مستقبل أكثر حظاً فقهاؤها في الماضي، فهم كثرة إسلامية تحيا في حظيرة الإسلام، فيها شريعة الله، فيحتاجون إلى علماء يقرؤونها، حتى يستطيعوا أن يسيروا بحياتهم في نطاق محدود، فيها قوة مبرمة تأخذ الخارج على حدود الشريعة بالعقاب [illegible]

٢ ـ كان من شأن السلطة التشريعية في مصر أن تتبع دهراً طويلاً حكومة الخلافة في [illegible] في دمشق وفي بغداد، حتى سنة ٩٢٣ هـ، فإن مصر [illegible] فيها دون الخلافة، ثم رجعت تبعة عندما كانت متبوعة، وتبعها الأمر [illegible] فتحاً للعثمانيين من الأتراك، حكموها حتى جاء محمد علي الكبير، فأحدث [illegible] الأمور، وأسس الدولة المصرية التي نعيش في ظلالها اليوم.

---

(١) [illegible] بقرية [illegible] سنة [illegible] هـ، [illegible] لأن [illegible] [illegible] وتعلم فيها وتعلم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

٣. [illegible] القضاء في مصر فكان [illegible] حكومة [illegible] مصر [illegible] حتى جاء محمد علي باشا [illegible] للمسائل الشرعية، [illegible] المجالس مجلس الأحكام ومقره العاصمة.

[illegible] سعيد باشا [illegible] في عهد [illegible] وجود [illegible] المختلطة في دائرة اختصاص معين؛ فلما استقام شأن القضاء في هذه الدائرة، كان مشجعاً للحكومة المصرية على إنشاء المحاكم الأهلية.

[illegible] القضاء الشرعي [illegible] حتى سنة ١٩٠٤ [illegible] مصر [illegible] سعيد باشا [illegible] حتى [illegible] القضاء من حقوق الحكومة المصرية، ولكن من جهة أخرى أصبح القضاء الشرعي [illegible] الأحوال الشخصية للمسلمين [illegible] القضاء المختلط [illegible] القضاء الأهلي من [illegible] دائرة القضاء الشرعي جعلت من السهل - نوعاً - بذل العناية في إصلاحه؛ فصدرت عدة لوائح لترتيب المحاكم الشرعية [illegible] سنة ١٨٨٠ ولائحة سنة ١٨٩٧ ولائحة سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٠ وكل لائحة [illegible] «أن الشريعة الإسلامية إذا صادفت من يُعنَى بأمرها، تستطيع أن تجاري القانون الحديث دون تقصير؛ بل وتفوق عليه في بعض المسائل».

* * *

(ب) المدنية الإسلامية .. والنهضة الشرقية

[لقد رأى السنهورى الإسلام منهاجا شاملا . .

* فهو دين ودولة . .

* وشريعته فقه وقانون . . كما هى عبادات وقيم وأخلاق . .

* وهو ـ أيضا ـ مدنية وحضارة لكل شعوب الشرق ـ التى غلب الإسلام على عقائد أكثريتها، وصبغ ثقافتها ومدنيتها وحضارتها . يستوى فى هذه المدنية الإسلامية المسلمون من أبناء الشرق ومواطنوهم الكتابيون . .

* ولأن الإسلام مدنية ـ أيضا ـ لكل شعوب الشرق . . فهو مشروع وصيغة وجامع لنهضة كل هذه الشعوب].

* * *

[من أوراقه الشخصية]

* أريد أن يعرف العالم أن الإسلام دين ومدنية، وأن تلك المدنية أكثر تهذيبا من مدنية الجيل الحاضر، [illegible] لأن عصر الأديان قد تباعد، فمن مصلحة العالم ـ وقد فسدت قواعد الاجتماع التى يسير عليها ـ أن يلتفت إلى مدنية [illegible]

[illegible] إسلاما للدنيا فهذا ما ينادى به أن يحترم[1]

* أرى أن الأمم الشرقية أمامها أمران لا محيص عنهما، إما أن تجرى مع المدنية الغربية، وهذا الطريق [illegible] وإما أن تحتفظ بنفسها [illegible]

(١) نيون ـ فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٢م

... فتحفظ نفسها شخصيتها، وتستطيع أن تجاري (تسابق) الغرب، بدلا من أن تجري وراءه[1]

* مما استلفت نظري في تعريف الأمة ما قرأته مرويّا عن الفيلسوف الفرنسي «رينان»: إن الذي يكوّن الأمة ماضيها، وبإرادة أفرادها أن يعيشوا متحدين[2]

* إن الغرب لا يحسن مقارنة إلا في الأشياء المادية، فهو متفوق فيها تفوقا ساحقا، أما الأشياء المعنوية فيحسن للشرق أن يواصل تاريخه المجيد دون أن يقلد الغرب في الجوهر، وإن أخذ منه الشكل، وقد سرني أن أقرأ في صحيفة مصرية ... أفكارا يتفق مع رأيي هذا[3].

* هناك رأي شائع عن مصر ... بأنها في المدنيات الغربية فتختار من كل خير وأرى أن هذا ضعف في مصر، أرى أنه ينبغي أن مصر لها مدنية أصيلة، ... فحسبها أن هي جعلت هذه المدنية ملائمة لعبقرية مصر ... بحسب مقتضى بيئتها الجديدة التي تقع بها بعد انفصالها عن أصلها الذي نشأت فيه[4].

* ويؤسفني أن أكتب هذه الكلمة ... في زيارة كل بلاد العالم الإسلامي[5].

* ذكرت هذه الكلمة لأحد الأساتذة الفرنسيين يعرّف بها أمته ... فقال: (إسلامية) ... فقلت له: إنها إسلامية في معنى سياسي لإشارة إلى مجتمع من المسلمين فقط، ... فقلت: حديث مجتمعاته صانع قد من المدنية، فتدعو ... التاريخ نشأت ... مشترك ساهمت فيه جميع الشعوب التي عاشت في ظل راية الإسلام، وهي في ذلك تراث مشتركا لجميع سكان الشرق الإسلامي ... نفس الشيء، بالنسبة لأسبانيا التي كانت ... حضارة العرب فيها، هي تراث مشترك لا يتجزأ، ساهم فيه جميع العرب ... من فيهم من اليهود والمفكرون الأحرار والكاثوليك والبروتستانت»[6]

(١) ليون في ١٧ أبريل سنة ١٩٢٣م
(٢) ليون في ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٣م
(٣) ليون في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣م
(٤) ليون في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٣م
(٥) ليون في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣م
(٦) ليون في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٣م

* لا أرى مانعاً يوسع في معنى "المدنية الإسلامية" على نحو ما فهم قراء الأستاذ عزمي بك نقلاً عن فريد وجدي، وأرى أن المدنية الإسلامية هي ميراث خلال المسلمين والمسيحيين واليهود من مثقفي الشرق، فتاريخ جميع هؤلاء مشترك، ولكن تصدروا على يجدد هذه المدنية[1]

* قد خلقت شرقية في مصر فريدة تمسك بالقديم الإسلامي تمسكاً قوياً، ولا تقطع مع العصر، فتحدث بذلك عندها تعايشاً بين القديم والحديث، ويضحي بالأهمية بمدنية مشتقة مستنبتة في الشرق الأدنى، وهذه بخلاف أوروبا طبيعية في جملتها، وبالأمس كان هذا محمود ثم انقلب عليه، وقرن بعد أن يقطع حبل الماضي فلا يعود له صلة، وعندئذ يمكن أن تخلق مدنية أوروبية في مصر حتى تصبح حرة غير أوروبية، دون أن ترتمي على مدنية بلاد وراء البحر وراء الشرق، وكلا المدنيتين حضر على حد سواء في الشرق، على أنه يجب الاعتراف بأن حياة أوروبا لا تكاد تكون بكل ما فيها مصحوبة بالمدنية، فهي مدنية، وروح مدنية غربية عند في بلاد الشرق؛ فبعدم ذلك روح القومية؛ فإن الذي يربط الأمة برباط قوي هو الماضي، وهل يستطيع أحد أن ينتقص من ماضيه إلا ناقص في عقله؟ لا يهمني فهم وأخص ما يجب أن يحرص عليه المصري في نظري هو صبغته الشرقية الإسلامية، فيجب أن يحرص عليها أوروبا تتوق، فما يستطيع بعضنا كل شيء لا يشوه ولا يمسه[2]

* إن تحيل على المدنية في نفسه مقتضى كل قول يستحق الاعتبار، فهي مدنية شعورية إسلامية روحانية غير شديدة الروحانية بكل معانيها وحواشيها وغريبة وحشية، فقد عاد الحسن بن الهيثم حضرهما في حياتهما الأدبية في مكتبة شبه فيلا لهم مكتبي من أثر تفكيرهما، ولكنهما تركا الطابع الأثري المصري، ويعتبر هذا هو الإسلامي بحق كما يتصور في العصر الحديث[3]

---

(١) ... في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

(٢) ... في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

(٣) ... في ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٣م.

* شرق نفسه ويريد لأن يقوم بقسطه من العمل على سعادة العالم ورفع شأن الإنسانية بعد أن سكت عن ذلك مدة. ولكنه يريد أن يكون صحيحاً جداً، وأن يحتفظ لنفسه طريقاً لا أن يكون مقلداً للغرب، ويريد أن يغير مدنيته الحديثة شيئاً

أن يكون لتلك المدنية ذات الصبغة الشرقية نصيب مستقل

٢ أن يكون لتلك المدنية الشرقية دافع يتناسب مع الحياة اليوم على الحياة بالغرب، فقد عاش الغربيون في حياتهم وأصبح صحيحاً هذه الحياة أضعاف أضعاف ما يتمتع بها، فهم يسيطرون على الشرق بما يفيده من ذلك بوحدة. ومن أكبر ما شرق في تقدم بهذه المهمة، وهو الذي كان صنع بخار وحديد، وصنع حكمته وآدابه؟ فلا شيء أن يقدم الغرب في تركه سدى، فهم تستولي عليه مدنية أكثر إساءة، وقد أن هذه المدنية تدعى وستنهي بي نفس، ولكن فوق ذلك أن يبقى لآدابه ما يحفظها من أوهامه، وأن يجعلها مكملة بعضها للبعض (١).

* عرضت لي هذه الخواطر دون أن أشعر، وما شعرت به فكرت في الأمر، وساءلت نفسي ترى ما مات فما كان يحدث؟ حضر في بالي ما أوحاه إلى نفسي من الآمال الحلوة وعثرات الأمل، فلا أنتهي من حلم إلا وقد فيها من ذلك، ثم حضر على بالي ما أحسه من ساعات السرور والاغتباط، فلا أنتهي من حياة فيها شيء من ذلك، ووزنت بين تلك الحسرة فحسبت تلك من وجهة نظرية، وإن كان من وجهة نعمة لا يهون على نفس فقد الحياة، إلا وأصبحت تلك الحياة لا تطاق. ثم فكرت بعد ذلك فوجدت أنه يجب ألا يدفعني إلى سفاسف هذه ما قد أنتهي منها من سرور، والاغتباط، فإن وراء ذلك من الآلام ما يكفي لتوريثه سروراً. ومثل الذي يحدثني بكثرة أن يمسك به هو الأبصر في تقديره للحياة، وما تكسبه نفسه منها وما تخسره، ولكن قد يستطيع أن يقوم به من خير لتغيير الأسرة والبلاد والإنسانية، إن الذي نحن بشرق عن الغرب ليس هو ما يدعي البعض، فإن شرق مسلمون، ومسيحيون، ويهود وغيرهم، ولكن في التأخر سواء، والغربي يتصور الشرقي مهما كان درجة تفكيره في التأخر، والشرقي في ضعف، فهل يستطيع الشرقيون أن يشعروا أنهم متضامنون في شرقيتهم مهما اختلفت مذاهبهم، وأن يجعلوا من الأدب الأصيل مصدر

(١) باريس - في ٤ يناير سنة ٩٢٤ م.

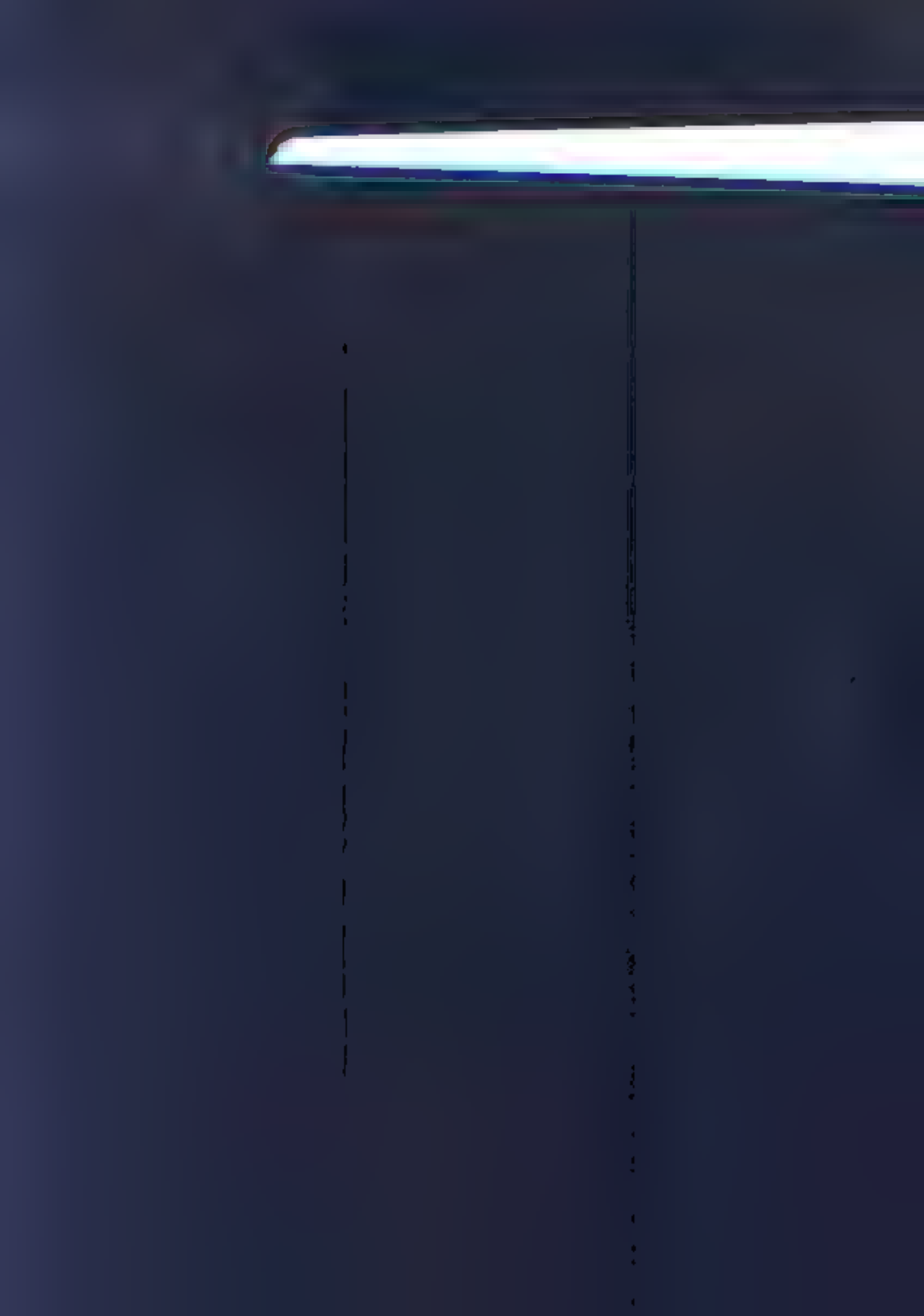

* إن الإسلام هي المسيحية على ما أعتقد - في أن المسلمين سيصبحون أقوياء متحدين مع محافظتهم على عقائد الإسلام، أما المسيحيون فلن يستطيعوا أن يتحدوا إلا عندما يتركون الدين المسيحي بالفعل[1].

* يختلف الدين المسيحي عن الدين الإسلامي في أن الأول لا يدفع إلى العمل، فإن كل ما يطلبه المسيحي الأمين على مسيحيته من أن يعمل؛ فعليك أن تدير خده الأيسر ليتلقى الصفعة التي تلقاها على خده الأيمن[2].

* لا تتعارض - فيما أعتقد - روح الشرقية الإسلامية مع روح الإنسان وخير الإنسانية، فنحن الشرقيين نريد أن ندفع عن أنفسنا ومؤسساتنا الشرقية الإسلامية، ولكن هذا لا يمنعنا من حب الغربيين وإعجابنا بهم وحرصنا على إسعادهم، ولا يمنعنا من أن نحقق سلاماً يعم العالم؛ إن الذي يدعم هذا السلام هو أننا لا ندفع عنا عن أمم مضطهدة، ونشعر في نفس الوقت بأننا عضو في جمعية بشرية يجب خيرها وسعادتها، ونعمل لذلك[3].

* أعتقد أن سر عبقرية محمد في سر الصبر، حيث لا يستطيع الإنسان العمل بشيء من التفكير والتردد الذي يرجع في نفسه بقية حدود المعاني، حتى يشب العقل ويمكن من التفكير فيمكنه أن يفكر على أساس الفضيلة التي ينشأ وتنمو في نفسه، ولا يغير تفكيره من جوهر تلك الفضيلة، ولكنه يجد من التفكير حرية مساعدة على الدفع نحو روح غير تقليدية (بالمعنى المقبول من الكلمة) ولكنها روح تعرف على كل حال بعجز الإنسان وبحاجته إلى الفضيلة[4].

* لا يمكن الصفعة مولعة بنفسها لأنها تقوية التي تحث بها كما في الحدود، ولكن ما كان تقبل الفضيلة أصعب من تقبيل مرديه كان أولى بأخذ الأمة الصفعة من الأمة القوية الرذائل التي يسهل تقبيلها.

---

(١) باريس - في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤م
(٢) باريس - في ١٦ فبراير سنة ١٩٢٤م
(٣) باريس - في ٢٧ فبراير سنة ١٩٢٤م
(٤) باريس - في ٩ أبريل سنة ١٩٢٤م

* من الخير لي أن يتسنى لي الاطلاع على بحثه الأخير مع ما لا يوافقه عليه، لعل عنده أن تنهيه سيسر للحقيقة أكثر مما يستطيع بقلمه مستقلا بموقفه.

* هذه رءوس موضوعات هامة أسجلها هنا حتى يتيسر لي بحثها في المستقبل

- كيف كتبت حضارات بشرقية قبل الإسلام، وعلى أي أساس تكونت هذه الحضارات

٢ - مدى تأثير الروح الإسلامية في تأثير الروح الحضارية في هذه الحضارات في الماضي

٣ - ما يجب أن تكون هذه النسبة في المستقبل.

٤ - مهما كانت هذه النسبة قوية أو ضعيفة في الروح الإسلامية يجب أن تتجه اتجاها عربيا إسلاميا، أساس هذه العربية شريعة إسلامية، وفي هذه الشريعة كثوب يراعى التشارع في صنعة الحسم من نسيجه، وكان الصغير يلبس الثوب الواحد الحسم في الشتاء، فيدفئ في الصيف، بحيث يمكن توسيع الثوب مع نمو الجسم، ولكن هذه الحقيقة غابت عن عامة المسلمين فانقسموا فريقين **أحدهما** ألبس الثوب على ضيقه فخنق، **والثاني** لم يجد هذا فصنع فرق الثوب وثلث عورته، على أن الثوب صالح للتوسيع دون أن يضطر لابسه إلى الاختناق أو التمزق.

* في مصر في الوقت الحاضر يمكن أن تكون اللغة العربية تدخل في تشبيه حديثه في أغراض مختلفة، ففي هذه الفترة دخل في اللغة العربية أسلوب اللغة الأعجمية في العلوم الاجتماعية الحديثة وفي ذلك دخل أسلوب اللغة الفرنسية، ذلك أسلوب اللغة الحضارية وليس به غضاضة، ولا شك في أن الأسلوب الذي تكتب به العربية الثوب كما في ذلك، ويحسن أن يتعصى بحث هذه الأساليب المختلفة، وتتبع طريقة صوغها في اللغة العربية، ومدى ما يجب أن تتسع له قريحتها، مع عدم الخروج على روح اللغة العربية[٣].

---

(١) بدأ الحديث في ٧ أغسطس سنة ١٩٢٤ م

٢ لأنه في ١٥ أغسطس سنة ١٩٢٤م

٣ لأنه في سبتمبر سنة ١٩٢٤ م

* من الوسائل العملية - على ما أرى - في شيوع لغة الضاد (الإسلامية) أن تنشر وتقوى نهضة لغوية، أي نهضة عربية واسعة تشترك (الإسلاميون الأعاجم كالتركية والفارسية ومن وسائل إخراج هذه النهضة وتعميمها، عقد مؤتمرات لتنظيمها وتشجيعها، وأقترح هنا شيئا من ذلك.

أولا مؤتمر للغة العربية ينعقد في القاهرة تؤلف أولا من مصريين خبراء تخصيرية لترتيب أعمال المؤتمر، ووضع البرامج اللازمة لبحثها في المؤتمر.

وبعد ذلك يعقد المؤتمر وتقسم أعماله بين خمسة أيام على النحو الآتي بعد الجلسة التحضيرية، ثم يجتمع في جلسات عامة ويتحدث فيها من ينتدب منهم على الشكل

(١) قراءات يقدمها مكتب دائم (لدى مكتب دائم) كموضوع موضوعات في العلوم مختلفة يكلف عدد خاص بذلك، وضع كتبهم وبشرها في أقطار عربية، وتأليف مجمع لغوي وضع الألفاظ التي تنقص اللغة العربية في العلوم مختلفة، وتأليف مجمع أدبي لتشجيع الآداب العربية وتجديدها، بحيث تتفق مع روح العصر الحاضر، وإنشاء مكتبة مشار إليها وسيأتي ملحق بمكتب الدائم، وإنشاء مدارس يشاؤه من المحلات والصحف العربية خدمة للغة (وعلى ذكر الصحف فمن المستحسن أن ينضم إلى المؤتمر صحافيون من كل البلاد العربية، ويكونون لجنة خاصة تهتم بالنظر في ترقية الصحافة العربية، ويحدد وسائط الاتصال بينها، ويكون مؤتمر الصحافة العربية خاص بالصحافة، وينعقد في وقت آخر) وغير ذلك من المسائل الموصلة للغرض

(٢) توصيات تقوم بتنفيذها مكتب دائم بين حكومات العربية والإصلاحات التي يرى المؤتمر بحثها في برامج تقسيم شهور لغة العربية وتدريسها

ثانيا مؤتمر للغات الشرقية (الإسلامية) وهذا يعقد بعد انعقاد مؤتمر اللغة العربية، ولا فصل بحث فيه الآن، ويمكن أن يكون على وجه الإجمال كما يقع بسببه لجنة تحضيرية، ويكون الغرض من المؤتمر نشر اللغات الشرقية في البلاد الشرقية، وإنشاء معاهد للإسلامية بتلك البلاد، والاجتهاد في جعل هذه اللغات هي اللغات التي تدرس في مدارس حكومات، وبعض يشتركون في هذا المؤتمر يكونون

مندوبين من جميع أنحاء الجزيرة، يمثل جميع بلاد الجزيرة، وعلماء من الأتراك والفرس والأفغان والحبشة إن أمكن[1].

* الجزيرة هي البقعة التي تسعى لتحقيقها بلاد الجزيرة في أوقات خاصة، ولا شك في أنها بقعة مقدسة، وأنها قلعة الحصن، وقد قرر فيها تفكير الأمة تفكيرًا إسلاميًا فكريًا تتساعد فيها همم المفكرين الإسلاميين في الشرق، فهي بذلك الجزيرة الخير تضم أطراف الملائمة[2].

* بلاد الجزيرة في هذه المرحلة تحتاج مرحلة تتمثل في هذه البلاد بجميع الصفات المحفظة على القديم والمعدني للعرب وشخصيته. وإلى جانب هذه الصفات المحافظة لا بد من وجود صفات تتميز بها الجزيرة تحتاج إلى تقدم هذه البلاد بعيدًا عن الوقوع في علائم الرقي والتصنع في بلاد غربي. فالجزيرة من هذين المنطلقين - طائفة محافظين على القديم وطائفة مقتنعين بالمدنية الجزيرية. طائفة وسطى تستمد مقاييس الجزيرة في كل ما هو صالح، وتمثل بلاد الجزيرة ومرحلتها الحالية مرحلة موقف تحتاج صنع الأمة وتحتاج فيه روحها. عندئذ تصبح هذه الطائفة الوسطى هي النقطة الأركز، إليها تتقدم العناصر الصالحة من طائفة المحافظين، وإليها ترجع العناصر الصالحة من طائفة المتفرنجين[3].

* أفرزت الحرب أوروبا في القرن التاسع عشر، وهي كانت من صناعة أوروبية تركيب وتناسب متكاملين واحدة بعد أخرى. وفرضت عليها شروط الحياة، سواء كانت عالية أو منحطة، أفرزت هذا الاندفاع الذي سمي أطمئنانه أوروبا من التعصب والجور، والأمن استحقته من صروف الحياة والعمر، والأمن اضطرت من فرضه التعاقب تركت التعرض فيها بينها فتمتص دماءها فقره فقرة بدعوى أنها تقصد منها تدمير أنفسها. كل هذا يدهش، بل يدهش أن أرى مسلمين يحتجون بما أخذته أوروبا من وحشية تحت سمع الدنيا كلها - يقصدهم الله من شرهم - يحتجون بالمدنية والإنصاف والعدالة والقانون أنماط من ردفه توحد في معاجم وتسمع على

---

(1) الأهرام في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٤ م.
(2) المقتبس - في ٣ فبراير سنة ١٩٢٤م.
(3) المقتبس في ٩ مايو سنة ١٩٢٤ م.

أنسه لسامة ولكنك، وقد بحثت عن مه وهم تجده ولا حد أبعث عن هذه في هذه العالم، فهي التي تحدها نفسها سلاحًا فتسمى مصلحًا، وهي التي تسرع بها الوحش فتمحي فيعد في أعلى صفات مدينة قدرت الله في شدة فهي سلاح من يريد الحياة..

نعم إني لا دهش مما أصاب هذه الفكرة من أوروبة، فإن الذي تم لكل على وفق سنن الطبيعة، وإن الخوف في درجة الضعف فلا يستطيع هذا منه مرًا لاعتقاد جميع أكثر مما قدمه لدفع للخروف الذي عكر عليه ماء ... وإن الخروف يكون في قصى درجات استلاهه وسعادته إذا فكر في نفسه أن الذئب قد يعيش معه في صفاء، وإن سيرا معًا على حد سواء، وإنه لا أمر وجه به من عالم يدفع الذئب أن يجمع قوته حتى تتعب، وأن يتحد به قرون من الحديد يستطيع أن يحرق بها حشاء الذئب إذا حدثته نفسه بالاعتداء عليه[1].

* أتمنى أن تكون خدمته أم شرقية إني حدث جميع لأم بعربية؟

* قرأت اليوم في جريدة مصرية خبر مجلة عقدها الأعضاء مع بعضهم ليس في خبر عن سعيه على العمل في نهضة عاجلة منتجة، ولكنه بحث في نفسي ملأ في مستقبل مشعوب الإسلامية بغير حاضرهم، وعدت إلى نفسي فإذا في صفحة من سرور وغبطة، ثم من شاب دفع به التفكر في شيء من المعمر

كنت أحلم صغيرا بالجامعة الإسلامية، وكنت أتعشقها، ولم تكن أمامي إلا رمز الحقيقة.. مبهمة خالية من كل تحديد ووضوح.. أما الآن فأراها في صورة أخرى أقل إبهاما وأكثر تحديدا.. على أن دون تحديدها تحديدا كفاحا سنين من التجارب والدراسة أرجو أن أجتازها[2]

* وددت لو وفقني الله إلى خدمة بلادي في الوجوه الآتية:

١ ـ أشترك في عمل لإنهاض الشريعة الإسلامية وجعلها صالحة للتقدم في الوقت الحاضر

(١) ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨م
(٢) بيروت في أول أغسطس سنة ١٩٢٣م
(٣) بيروت في ٢٣ يناير سنة ١٩٢٧م

٢ ـ أشترك في نهضة اقتصادية ومالية في مصر

٣ ـ أشترك في نهضة لإصلاح طرق التربية والتعليم. وهي تبحث في كيفية تربية المرأة وإصلاح حالتها الاجتماعية.

٤ ـ أشترك في نهضة لإصلاح اللغة العربية

هذه النهضات الأربع تحتاج في كل واحدة منها إلى أن أجد نفسي في ذلك، وأن أقوم بما يجب عليّ مما يتسع له مجهودي[1]

* كتبت هذه المقالة في سنة ١٩٢٢ ردًا على بعض المقالات التي كانت تنشر في الصحف الإنجليزية عن مصر وعن نهضة المصريين فيها، وأنسى الآن ما الذي دعاني إلى كتابة هذه المقالة بالفرنسية[2].

* يطلب الشرق من الغرب أن يحمل من قسطه من المسئولية في هذه الأيام، وهي تفوق بعمومها مسئوليته، وهو مطلب عادل لا يستطيع الغرب أن ينكره على الشرق. وهو واجب على الشرق قام به في الماضي، وجانب منه جميل يستفيد الاثنان منه بقدر مجهوده. ويكون الشرق للغرب أكثر من مصدر ثروة، فهو يحتاج إلى حروب ويزيد على الغرب اليوم الشرق وصلاحيته لأن يكون محلا للتشريع. ثم الغرب قد يقصر الشرق بعد مدة أسباب أعظم حروب التي تقوم في أوروبا، فمن مصلحة الغرب أن يقوم الشرق، ولأمم الغربية الرشيدة لا يتقصها سوى هذه الحقيقة إلا أن ترجع الشرق، ولا يعتمد لآراء الحكومات والمستعمرين والماديين والتجار ثم يعود للشرق لأنه إن نهضتي هي نهضة دين، ويقوم على ساق الأدب، فهي مقر الأديان الثلاثة، وكلها من عنده الله، وهي نهضة جميع الأمم الشرقية على اختلاف أديانها، وكل أمة تقوم بشأنها، مع عدم محافظتي على الأمم الشرقية من شأنها أن تكون لروابط المعنوية والاقتصادية والسياسية، وتكون عند ضرورة معاهدات دفاعية ضد المعتدي. فمن قدر الله للأمة المصرية أن تكون مثلا أصلح للأمم الشرقية في دينها[3].

---

(١) بيروت في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٢ م.

(٢) بيروت في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٢ م.

(٣) بيروت في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٣ م.

* الخُصُ إذن نقطتين في برنامج نهضة الشرق

١ - ... قدم الشرق نفسه شر حرب ضد الغرب، وهي في نهضة الشرق ما تناقض مع الاستفادة من علوم الغرب وفلسفته، بل لا ... الشرق حتى الآن في حاجة إلى ذلك، والشرق يستعين في قيامه بالاستفادة من تجربة الغرب، كما استعان هو في نهضته من قبل بتجربة الشرق. فلا يقصد الغرب من أن يرى الشرق ينهض بنهوض، فيه هذا في مصلحة الغرب نفسه، ويقصد الغرب بتعليم، ويوحد في جانب الغرب أمة شابة تقوم بنصيبها في خدمة العلم، وتقدم العلوم.

٢ - ليس في قيام الشرق بنهضته ما يدعو إلى أن يشاء الغرب صورته وصنعة حكمه في الشرق، وبالعكس فإن الغرب لا يمكن أن يسود إلا في الشرق، لأن الشرق مشترك لأدبي، وإلى صورته وصنعته من الغرب بما يخدمه، ويصبح لنهضة الشرق طابع محلي لأن الأمم تختلف بعضها عن بعض، وهي تتميز كل أمة تقوم بشأنها، وإن يوحد بينها جميعاً رقيها الاقتصادي وبرقيها المعنوي.

وتصطدم في هذين العنصرين نقطتان ثالثة هي أنه قد يكون من مصلحة الغرب أن يحتفظ من الأمور الأدبية التي يقوم بها في نهضة الشرق بعد استقلال شعوبه بأن حركة عامة (إحياء العلوم الشرقية) تؤسس على علوم الشرق الحديثة مع ما استفادته الغرب من الشرق حتى الآن، فتسير بتعليم وصرف، وهي توقف ما تعمل على تنمية ... الاقتصادية في كل بلد من البلاد الشرقية حتى تتخلص من الاستعمار الاقتصادي بدل أن يحل خطراً عن الاستعمار السياسي[1].

* يرى أن الغرب لا يحسن تفهمه إلا في الأشياء المادية، فهو متفوق فيها سبق لا يدانى فيه، أما الأشياء المعنوية فيحسن الشرق أن يوصل ريحه المحمدون إلى الغرب في الجوهر، وإن أخذ منه الشكل[2].

* يرى أنه يمكن أن يشاء عصبة في نهضة الشرق الأدبي السعي في جمع مؤتمر في القاهرة (وهي الأنسب) تضم مندوبين من مصر وتركيا والحجاز وأفغانستان والهند، وهي بلاد شرقية (إسلامية) مستقلة أو تحررية، وتضم هذه المؤتمر إلى ثلاث من

(١) ليون في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣م
(٢) ليون في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣م

اللجنة الأولى مهمتها وضع أصول للقانون الدولي بعد للأمم الشرقية وتحدد في ذلك مثل الجمهوريات الأمريكية التي عقدت عدة مؤتمرات للبحث في مواد جامعة الأمريكية، حيث عقد في سنة ماضية، ويحسن لاصلاح والتفصيل على طريقة بعض ما تعلمها هذه المؤتمرات والمشاريع التي وضعت بها، حتى يستفيد ما يمكن الاستفادة منه من تجارب غيرنا)، ويمكن من الآن بموقع الشروع في وضع بعض أصول في هذا القانون الدولي. ومنها عدم مشروعية الحرب بين الأمم الشرقية ويجب أن تبقى تحكيم دائمة، ووضع قوة سعيدية تحت تصرفها بشكل ما. ويجب عدم الأمم الشرقية بشبه مبدأ مونرو للجمهوريات الأمريكية، ويتلخص في أن الأمم الشرقية لا تتدخل في أي نزاع بين الأمم الغربية، إلا إذا كان شرفها أو مصالحها رهنًا بهذا النزاع، وفي الوقت نفسه يمكن لأية أمة شرقية أن تنظر بعين القلق لأي تدخل من الأمم الغربية في شئون الأمم الشرقية، وكل هذا لا يمنع مصلحة مع حسن العلاقات وتبادلها بين الشرق والغرب، وتعاضد الجميع على تقدم الإنسانية والعلم.

واللجنة الثانية تكون لجنة فنية تبحث في تطوير العلاقات التجارية بين الأمم الشرقية، ووضع نظام لاتحاد جمركي بين هذه الأمم، وتنظر في تأليف شركات من الأفراد بعضها أو أجنبية على غرار ما تشركت في الغرب من المشروعات التجارية والصناعات المختلفة. ووضع قانون مشترك بمقتضاه الأمم الشرقية في إنشاء طرق ووصلات مختلفة يسهل بها اتصال بعضها من سكك حديدية وطرق عادية وتلغرافات وتليفونات وصلات وغير ذلك مما وصل به العلم الحديث، والنظر في إنشاء مصارف شرقية تشجع مصالحه وتحميه وتوفر الثقة في غير ذلك من المسائل الاقتصادية الهامة.

واللجنة الثالثة تكون لجنة علمية، تضع أسس مهمة علمية عامة وخاصة تعلم الأمم الشرقية قديمة، مع بث روح العصر فيها، والاستفادة من علوم الغرب بقدر ما تلائم مع عادات الشرق وتقاليده، ولا بأس من جعل أساس التعليم مبنيًا على الشريعة الإسلامية في جزء منه، بعيدًا عن التعصب والتدين، مع النظر في أن تلائم الشريعة حتى تتمشى مع الشريعة التي تعيش فيها، وهي كانت الشريعة أساسًا لقوانين مدنية في الأمم الشرقية سهل على اللجنة تعميمه وضع مشروع يتفق ويدوي خاص لكل أمة شرقية على السواء، وستصبح اللجنة

لعلمية بصفة قومية وعقد مؤتمرات عديدة من وقت لآخر ، بقصد في بث تعليم
لغة العربية في البلاد التي لا تتكلم بها وتحديد لغة رسمية لها في الحكومات
وإنشاء مجامع علمية لغوية وقتية

هذه عشرة مشروعات الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها بحذر وتمهل وإمعان ،
فإذا أحسناها كانت أساسًا للنهضة العامة

وإني لا أقترح تقرير عقد هذا المؤتمر بحيث أن تبث هذه الفكرة في الأمم بث فجائي
الخمس التي عددتها حتى يقع في وقت معين ، وحتى يتمكن قبله من كل هذه
من بحث مشروع المؤتمر جميع بحثه ، وعقد تقرير مفصل في كل مسألة من المسائل ، ولا
أقل من عقد واحد من هذه التقارير ، فقد يصعب تفكير وتدبير كل هذه
الأمور في عقد مؤتمر ، وفي جهة التي يعقد فيها ، ولا أتعرض من الآن لتفصيل قيد
كل عقد هذا المؤتمر بكون بصفة رسمية من جهة حكومات ، وبصفة غير رسمية من
جهة الأمم ، فإن هذا على ما أرى مسألة في تفكير دون جوهر ، وعلى كل حال
فإذا رأينا أنه إذا توافر عقد المؤتمر بصفة رسمية فيحسن تأليف لجان غير رسمية إلى
جانب اللجان الرسمية تكون أكثر حرية من هذه في مباحثها فيما عهد إليها ، وهي لا تكون
مقيدة من أعضاء هذا المؤتمر بالبحث في مسألة الخلافة الإسلامية ، وما يستطيع أن يعهد
به من تقوية الروابط بين الأمم الشرقية

وأرى أنه يحسن مبدئيًا أن يعقد هذا المؤتمر في مكان عدد من عضاء كل أمة
تكون مجتمعة تضم بعقد التي ستبحث فيها المؤتمر ، وتسعى في بث ، فتنتشر في كل
الأمم وتوزيع هذه بعقد بحثها ، وبقي بحثه ، بعقد لا يتصل بهذه بحث
مباحثه عند إعداد تقاريرها حتى تحصل كل فئة على معلومات التي تتعلق على حالة
شرقية الأخرى من شأنها أن تعمل في إعداد تقرير في نفس هذه بعقد ، فقد
يتهيأ لها أثناء هذا إعداد تقاريرها تقوم بحثه بتعيين مكان وزمان لانعقاد مؤتمر

* لاشتراك في مشروع كمشروع شرق لأدبي بخصوص ما يلي

١ ـ دراسة اللغتين التركية والفارسية

٢ ـ دراسة تاريخ البلاد العربية والتركية والفارسية القديم والحديث

(١) ليوم في ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣م

٣ ـ دراسة جغرافية هذه البلاد بالتفصيل،

٤ ـ دراسة سياسية واقتصادية خاصة بكل من هذه البلاد، وخاصة الأحداث في وجوده كثيرة، كالسياسة والمعاهدات والدين والتعليم والمركز الاقتصادي والمالي

٥ ـ تتبع حركة الجامعة الأمريكية وما يشبهها من الجامعات الأخرى[1]

* فقصر كلامي هنا على مهمة عمله في مصر يكون أساسًا لمهمته المقبلة في بلاد الشرق الأدنى. وربما تتيح لي مصادفة أن يكون من بلاد الشرق القريب من بلاد العربية في عهد إنشاء هذه المعاهد، والعمل على إنجاح هذه المهمة العلمية يحتاج إلى وقت ومجهود كبير وجدًا لو بدئ بتكوين مجامع علمية لغوية وفيه تنوي فيه هذه المهمة (وما كنت أرى أن المجامع العلمية لا تنجح تأسيسها في وجود المهمة دائمًا). ولا بأس مطلقًا من أن أقرر رأيي أن نستفيد من علوم الغرب حتى فيما كتبته عن العلوم العربية، على شرط أن يكون لتكوين العقلي والروحي الشرقي ثم كثير فيما نقله عن الغرب، ولنا أسوة بالعرب عندما نهلوا من اليونان. وبأوروبا لما نقلت علوم العرب، وقد أعود إلى هذا الموضوع الهام الذي يحتاج إلى كثير من العناية.

وجه نظام التعليم في مصر من الأمور المرغوب فيها، ولكني أعتقد أنها غير ممكنة التحقيق في الوقت الحاضر، ومما يحسن الاقتصار على تقريب نظام مستطاع بين التعليم الشرقي المحض، والتعليم الغربي المحض[2].

* فلا يكون فصل الخلافة عن السلطنة في تركيا فاتحة أن يسهل على الأمم الإسلامية في الشرق الأدنى أن تتصور الخلافة دون أن يكون في ذلك معنى بعينه لسياسة الحكومة التركية. وقد تكون الخلافة وهي هيئة قائمة بذاتها مستقلة عن الحكومة التركية تصلح بشكل أن تكون نواة يلتف حولها الأمم[3].

* وفي الوقت الذي تعود فيه الكرامة الشخصية والكرامة القومية، ستحاول أن تندمج في شخصية أمم أخرى وتذوب فيها، ومحافظته لأمة على شخصيتها وطابعها القومي لا يمنع النهوض بين الأمم[4].

---

(١) [illegible] في ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣م

(٢) [illegible] في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٣م.

(٣) [illegible] في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣م

(٤) [illegible] في ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٣.

* ولجامع الأزهر بحسب ما كثير من الإصلاح، فقد جعل على ثلاثة أقسام: **القسم الابتدائي** وهذا القسم شائع في كل البلاد، **والقسم الثانوي** وهذا القسم يعد التلميذ ويجعله مؤهلا في الأزهر حتى وفي كل المديريات، وهذا القسم يسمى (الإعدادي) وهو قسم ثانوي لمدرسة القضاء الشرعي، ويجعل منهاج الدراسة في هذا القسم مناسبا لهذا الغرض مع جعل مقدار الساعات الأسبوعية واحدا مشتركا في الجميع، ومع هذا فإن الجامع الأزهر (مدرسة القضاء الشرعي) يعد جميع علومه والإنجليزية في منهاج الدراسة بحسب ما يراه المعلمون. ثم يأتي بعد ذلك **الأقسام العالية** وهي قسم العلوم والمعقول وهو القسم العالي بالأزهر حتى (وتراعى فيه الدراسة بالمذاهب الأربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية) وقسم الأدب وهو القسم العالي بدار العلوم، وتراعى فيه الدراسة بالطريقة الحديثة، عند التوسع في تعيين الأحسنين الأخيرين، وقسم الفقه والقضاء، وهو القسم العالي بمدرسة القضاء الشرعي، وتراعى فيه الدراسة بالطريقة القديمة والحديثة بالتساوي للأولى والأخيرة وتكون كل هذه الأقسام مكونة لأكبر جامعة إسلامية شرقية يمكن أن تسمى [بمعهد ليدس] ودرجات تفوق أو تخصص، وعلمية أو دكتورا، وقسم خاصة بالشرقيين غير المصريين تراعى فيها جنسيات بلادهم المختلفة.

* وجميع التعليم في مصر يصح أن يكون روحه ومعناه واحدا ومجهوداته كذلك، فروح التعليم بالجامع الأزهر، في المدارس الملحقة به، كمدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم، وفي المدارس التي تسير على منهاج أوروبي كمدارس الحكومة والمدارس الحرة. ومن هذا التعليم المختلف بهذه الطريقة المختلفة عن بعضه حتى في الزي، لا نعرف بينهم شريفا ولا تعليم في دنيء ولا شريف نبيل، وإن هذه التفرقة التي هي نتيجة لازمة للتعليم المختلف، فأحرى أن يعمل على تقريب منهاج التعليم حتى يتيسر الجمع بين كل هذه المختلفات في مدرسة واحدة، وعند ذلك تتحقق وحدة تتوق إليها في تكوين عناصر الأمة[2].

(١) ليون في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٣م.
(٢) ليون في ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

* * *

لقطران امتزاجًا تامًّا، وهذا ما أتصوره طريقًا عمليًا لذلك

يجتمع بعض أعيان مصريين وسودانيين لتأسيس شركة لاستثمار أراضٍ واسعة في السودان، قريبة من مصر، ويجتهدون في اختيار أراضٍ خصبة صالحة للزراعة، وهؤلاء لا يعتبرهم الترجمان من السودان، لأنهم يرحلون لأول مرة إلى جهات أخرى غير مصر للاستثمار، وبعد حركة متعددة من السودان ذهابًا وإيابًا تستقر عجلة الأقدار بهؤلاء المستثمرين في هؤلاء الفلاحين؛ واختلاطهم بالسودانيين اختلاطًا تامًا؛ بحيث يتزاوجون، وتردد حركة الترحيل سنة، وحركة التزاوج اثنتين؛ حتى ينشأ في نحو عشرات من السنين جيل جديد مصري سوداني يكون هو العنصر الأقوى في جعل مصر والسودان قطرًا واحدًا. وفي أثناء نشأة هذه الفكرة يجب تأسيس مدارس في السودان يكون مهمتها تعليم السودانيين والفلاحين المهاجرين وأبنائهم أخلاقهم وتفهيمهم أن مصر هي وطنهم الأصلي في الحاضر والمستقبل، وأن تعلقهم بها يعود عليهم بالخير العظيم في الدنيا والآخرة، وأن يتعلقوا بها كما يتعلق الطفل بأمه، وأن يعتبروا أنفسهم أبناء السودان حتى تتعلم تعليمًا عاليًا في مدارس مصر، مع تشريع يقضي بوحدة الجنسية بين مصر والسودان، ويكون هؤلاء هم دعاة الوحدة في السودان عند رجوعهم إليه، ويجب أن يكون هؤلاء المبعوثون في أول أمرهم من أبناء السودان الذين يستعين بهم المحتلون في تنفيذ أغراضهم، ووحدة الدين واللغة كفيلة بتسهيل هذه المهمة على أحسن وجه.

ولا أخشى أن يكون نفوذهم في السودان وسيلتهم لأن يكونوا قوة هذه الحركة، بعد نظامها وانتشارها، وأن يستصغروا مصر شأنًا في ذلك، فمن كان منهم يعرف مصر حق معرفتها، ويعرف السودان كما يعرفه أهله، ولم يجعل حتى نصب عينيه أن السودان

---

(١) [illegible] سنة ١٩٢٣ م.

* لو كان للمصريين باعتبارهم أفراداً مصالح مباشرة في السودان لعرفوا [illegible] بالمسكوت بالوحدة، وحيث [illegible] دفع [illegible] بشراء أرض في السودان، [illegible] في هذه الأراضي والاختلاط بأهالي البلاد [illegible] في مقدمة المصريين [illegible] عن مصالح مصر، وعن مصالحهم الشخصية.

* «الجامعة الشرقية» و«الجامعة الإسلامية» و«الجامعة الطورانية» و«الجامعة العربية» و«الجامعة الفارسية» [illegible] و«الجامعة العربية» ما هي إلا أسماء مختلفة [illegible] على معان مختلفة من الوجهة الحسية، ولكن ليس أسهل من التوفيق بينها [illegible] مصلحة الشرق تقتضي أن تعمل كل جامعة في تحقيق أغراضها، فإذا حققت ما ترمي إليه أمكن إيجاد الروابط [illegible] التي تربط هذه الجامعات بعضها ببعض، [illegible] على نشر الدعوة الطورانية في بلاد القوقاز و[illegible]، [illegible] على [illegible] وحدتها، [illegible] على [illegible]، [illegible] مصر [illegible] عليها من جعل وادي النيل وحدة سياسية كما هو وحدة طبيعية، ولتستقر بلاد المغرب [illegible] من روابط [illegible]، ثم إذا نهضت كل هذه الأمم المختلفة الأجناس واللغات، وكل أمة في الجامعة الصغرى التي تجمعها بغيرها من الأمم [illegible] أمكن عند ذلك تحقيق [illegible] الجامعة الكبرى «الجامعة الشرقية» و«الجامعة الإسلامية» بمعنى واسع، وهذا لا يتناقض مع ما أشرت إليه قبلاً من [illegible] مؤتمر شرقي تشترك فيه الأمم الشرقية المستقلة، فإن من شأن هذا المؤتمر أن يسهل على كل جامعة عملها وألا يجعل عمل كل منها يضر بعمل الأخرى، وأن يحقق شيئاً من الوحدة والتضامن في عمل الجميع[2].

* يجب التفكير في ربط الأمم الشرقية بروابط اقتصادية ولغوية وقانونية قبل التفكير في ربطها بروابط سياسية، فإن هذه تأتي بالنية [illegible]، ومثل ذلك [illegible] الأمانية [illegible] ذلك علماً يمكن [illegible] بالنهضات الآتية.

---

(١) باريس في ١٢ يناير سنة ١٩٢٤م

(٢) بيون في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣م

١ **نهضة** تشمل الشريعة الإسلامية وتحبب مطلقة روح العصر، وهذه النهضة تنتشر في كل الدول الشرقية

٢ **نهضة** تشمل اللغة العربية وبالخصوص ما يحتاج إليه العلم في المعاملات، وتوحيد المصطلحات العلمية بقدر الإمكان، وهذه النهضة منتشرة في البلاد العربية.. كمصر والشام وبلاد العرب والعراق وبلاد المغرب

٣ **نهضة اقتصادية** وتشمل هذه البلاد بمساعدة المعاهدات الحرية وتشجيع وتشجيع حركتي الصناعة والتجارة، وهذه النهضة لا تنفصل عن البلاد المسلمة كالهند والعجم والأفغان والحجاز ومصر عندما يتم استقلالها

٤ **نهضة لإحياء العلوم والمعارف الشرقية**، وبخاصة الإسلامية، وهذه تشمل جميع البلاد الشرقية، كما تشمل حركة إحياء العلوم في أوروبا ثم العرب التي كانت مستعدة لذلك

ومن المفيد جدًا البدء في تأسيس هذه النهضات جمعيات متعاونة على المجهودات الفردية، فيجب أن يعمل من هذا السبيل بدء تأسيس المجهودات الفردية تفكر فيه الحكومات، ويتوقع أن الأفراد هم الذين يؤسسون الجمعيات، وهذا هو الذي يعرض الخطوب المعضلة بتوصيل إلى غرضها، وتأتي الحكومات من بعد ذلك وتأخذ النتائج التي وصلت إليها الجمعيات. ويمكن أن تؤسس جمعيات تحت تتعدد بتعدد الأغراض فمثلاً توجد جمعية تعمل بالجامعة العربية، وهذه تقصر عملها الأساسي على شد أواصر العربية بمقصد تعضيد الجامعة العربية، وجمعية تعمل بالجامعة الإسلامية، وأخرى بالجامعة الشرقية، وهكذا وكذلك يجب أن توجد جمعيات غير من هذه تعمل بالجامعات الشرقية الإسلامية، وتسمى أعمالها الجمعية مثلاً كذا من جميع، فجمعية مثلاً تسمى بقصد نهضة الشريعة الإسلامية، وأخرى تبحث في المعاملات الاقتصادية بين البلاد الشرقية، وثالثة تقوم بنهضة إحياء العلوم والمعارف الشرقية، ومتى توفر العدد الكافي من هذه الجمعيات، وتمت بقدر الممكن من السبل لتفاهم بينها، وأمكنها أن تعقد مؤتمرات سنوية تتبادل فيها الآراء وتصل إلى ما تنتج، وأعتقد أنه يمكن وقت ذلك تنتج الجمعيات **تهيئة السبيل لعقد المؤتمر الشرقي العام** الذي أشرت إليه في مذكراتي السابقة.

ويجب ألا ننسى أنه يجب أن يكون هناك سبيل لكل جامعة من الجامعات الشرقية للعمل بقدر الإمكان مستقلة، وفي حقل تفهم أن هناك جامعة شرقية واحدة، أو حتى شرق أدنى واحد، لا يمكن الإسلامية نفسها لا يمكن أن تجتمع على شيء واحد غير دين الإسلام، بل يجب أن نميز تمامًا بين ثلاث جامعات مستقلة.

١ ـ الجامعة العربية.

٢ ـ الجامعات الطورانية.

٣ ـ الجامعة الفارسية.

ولكن يجب من جهة أخرى أن نربط هذه الجامعات الشرقية الثلاث برباط يضمن لها [illegible] ويجب أن يكون هذا الرباط هو الذي يجب أن يجمع بين هذه الجامعات الثلاث بعضها ببعض وجعلها تسير في تيار واحد، دون أن تقف جامعة عثرة في طريق الأخرى؛ بل يجب عليها جميعًا أن تساعد كل جامعة الأخرى على تكوينها. وعلى تكوين هذه الجامعات الثلاث يمكن أن نحدد بالضبط نوع الرباط الذي يربطها من دين وقانون ولغة، جمعية أم شرقية وقانون دولي شرقي[1].

أفكر في أنظمة سياسية للبلاد العربية، من قبيل أنظمة التمسا والمجر [illegible] مستحدثة من قبل، على أن البلاد في هذه المرة تكون من أمم، ويكفي لا تعدو التفكير في مملكة ثلاثية تتكون من مصر والسودان وسوريا.

إني على بعد تام من أن أسعى لاستقلال مصر ووحدتها مع السودان يجب أن يتم كل مسعى في سبيل تحقيق الجامعات الشرقية، غير أني أعتقد أن التفكير في هذه الجامعات من الآن لا يكون قبل أوانه؛ لأن مصر مستقبلة تخرج في حياتها الجديدة إلى منهج [illegible] يعتقد أنه يسير قدمًا دون شرق، ومصر تخسر كثيرًا على ما أعتقد إذا انصرفت بعد استقلالها إلى تقليد الأوروبيين في مدنيتهم تقليدًا تامًا، ونسيت أنها من أهم الدول الشرقية. وغير هذا؛ فإن مصر في حاجة إلى نهضة علمية وخاصة إلى إحياء الشريعة الإسلامية وبث روح العصر فيها، وكل مصري متعلم ينظر إلى تقاليدنا القومية وتاريخنا ومدنيتنا القديمة بغير تقدير كاف يكون إما محمقًا أو ياسًا،

(١) باريس في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٣م

ولا نستفيد من الخطأ ولا من اليأس، وعندي أنه يحسن أن البدء بنهضة علمية ترمي إلى إحياء العلوم العربية ونشر هذه الحركة في مصر والشام والحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية، ويلتفت التفاتًا خاصًا إلى اللغة والشريعة، ومتى نجحت هذه الحركة العلمية تتبعها نهضة اقتصادية ثم يأتي بعد ذلك الارتباط السياسي

* الجامعة العربية من هذه الجهة حقيقة، ولكن تحقيقها محفوف بالمصاعب الشديدة.

١ ـ تعهد لدول الأجنبية في جميع الأقطار العربية [illegible] في مصر والمغرب والعراق وحجاز العرب، وفرنسا في الشام وبلاد المغرب، وإيطاليا في طرابلس الغرب)

٢ ـ كراهة جزء كبير من العرب للترك وميلهم إلى صبغ الجامعة العربية بالصبغة العربية الجامعة لعموم العرب، وتصور بعضهم أن هذا الميل يشجعه على بعض الأعمال في العراق والجزيرة العربية.

على أنه يمكن مع حسن التفاهم أن نعود فوفق بين العرب والترك، ونصور لهم أن الجامعة العربية يجب أن تتفاهم فيها الأمم الثلاث، ويحسن بجميعهم العرب والترك أن يتفاهموا لأن مصلحتهم في هذه الأيام تحتم عليهم ذلك. ولكن هذه المسألة هي التي تعود بنا إلى الأجنبية وتحتاج إلى بحث، فمطامع الدول معروفة في كل شيء فمن الجائز أن تكون لها أيضًا أطماع في الجامعة العربية (ولعل هذا هو الطريق الذي تعود منه الأمم الأجنبية إلى الشرق) فيجب على المصريين الذين يسعون لإنشاء جامعة عربية أن يفكروا في أمرين أساسيين:

١ ـ تبرئة نفوس الجميع من خلاف بين العرب والترك، وجعل الجامعة العربية وسيلة لتيسير التفاهم بين جميع الأمم التي تتألف منها الدولة العثمانية، وهذا لا يعارض وجود الجامعة العربية وذلك لوجود روابط بين الشعب التركي والشعوب العربية.

٢ ـ الحذر والاستعداد لكل عين حسود تظهر فيها، فهي وإن كانت ضعيفة الآن فهي كثيرة الاستعداد في الأقطار العربية لكل حركة ترمي إلى تحرير الجامعة العربية،

(١) باريس ـ ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٣م

لاستعمرته في الشرق الأدنى [illegible] الإسلام [illegible] وثيق [illegible] في الشرق الأدنى، و[illegible] الشرق [illegible] الاقتصادية، ثم بحث في حل [illegible] السياسية على ربط الأمم الإسلامية، وبعد ذلك لأم بشعوبها الإسلامية، و[illegible] على نشر السلام في العالم، وسعي الأمم جميعاً فيما هو خير للإنسانية.

* إن لمؤتمر الشرق الأدنى [illegible] على كل شرقي أن يسعى له، يتلخص في غرضين:

الأول: الدفاع عن مصالح تلك الشعوب، ودفع الاعتداء عليها، والوقوف على حقوقها التي انتهكت حرمات كل حق مقدس من حقوقها.

الثاني: إذ رأى هذا المؤتمر أنه ليس هناك قوة عاملة تحمي حقوق هذه الشعوب إلا اتحادها، فإنه يرى لإخاء يدأب تسود في العالم، فعندئذ تبدأ مهمته أخرى سامية للاتحاد؛ وذلك بأن يجمع مجهودات دوله ويضمها في سبيل تقدم الإنسانية، ونشر السلم الصحيح في العالم، عاملاً في ذلك مع العرب على قدم المساواة والإخاء وحب الإنسانية.

* ومن مبادئ الإسلام مبدأ يجعلانه سياجاً لجميعة أمم عامة لا يتطرق إليها الضعف.

١ ـ المساواة بين الشعوب والأفراد: فليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى.

٢ ـ المبادئ بأن الإسلام مفتوح لجميع البشر، وأنه دين الإنسانية جمعاء.[3]

* إن فكرة القومية درست في الشرق، ولا يمكن أن تنتشر، وكل ما يطلب من الشرقيين هو أن يتدبروا التاريخ فيرون أن العرب انتشرت فيه هذه الروح وأصبح القوم أقوى، ولكن كانت نتيجة المنافسة في هذا المبدأ.. أن صار كل قوم عدواً للأقوام الأخرى، ووقعت بينهم الحروب. فالشرق إذ أراد أن يبني نهضته على مبدأ القومية فلا بد له في الوقت ذاته من أن يوجد شيئاً من الاتصال بين أقوامه المتعددة في مبدأ نهضتها، حتى يسهل بعد ذلك أن تكون هذه الأقوام على صفاء ووداد، ويجمعها كثير من هو من

(١) [illegible] في ١٢ يناير سنة ١٩٢٣م.
(٢) باريس في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٤م.
(٣) باريس في ١ أبريل سنة ١٩٢٤م.
(٤) باريس في ١١ أبريل سنة ٩٢٤ م.

التوحيد[1]

* أحاول هنا أن أرسم باختصار خطة عمل (لإنشاء جامعة للأمم الإسلامية)

١- السعي في إنشاء معهد القانون الدولي المنظور إليه من الوجهة الشرقية، ويكون مجمعًا لعلماء القانون الدولي في الشرق الأدنى، يحاول فيه مستمعو نشاطهم العلمي، من تأليف وإلقاء محاضرات ووضع مشروعات، ويكون متصلًا بما يوجد من المجامع الدولية في الغرب، ويلحق بهذا المجمع معهد لتدريس القانون الدولي بفروعه، وإذا أمكن التوسع في المشروع، كان هذا المعهد مدرسة جامعة على ثلاثة أقسام:

قسم سياسي، قسم للصحافة، قسم للعلوم الاقتصادية والمالية، وبذلك يمكن تخريج من يصلح لتولي الوظائف السياسية في السفارات والقنصليات ووزارة الخارجية على العموم، وتخريج من يستطيعون العمل في الصحافة، بعد تزويدهم بما يحتاجون إليه من المعلومات في مهنتهم الكثيرة الشعب، وأخيرًا تخريج الخصائيين في المسائل الاقتصادية والمالية، بحيث يمكن أن نجد حاجتنا فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية على العموم، وبالأخص في أعمال المصارف والبورصات، وواضح أن هذا المعهد إذا وصل إلى هذا الحد من التقدم يقصر عن المجمع العلمي الشرقي للقانون الدولي، وصار كل في طريقه.

٢- إنشاء معهد لتدريس الشريعة الإسلامية في ظل القانون المقارن، وهذا يمكن إلحاقه بمدرسة الحقوق.

فإذا انتشرت فكرة تجديد الشرق وإحياء علومه بفضل هذين المعهدين وبفضل ما عسى أن ينشأ من المجلات لنشر هذه الفكرة، تبدأ الخطوة الثانية، وهي جمع مجهودات من يعملون في هذا السبيل، وتنظيم تلك المجهودات فيما يتبع من خبرات تكون «بروجرامه» مبنيًا على أمرين أساسيين:

أولًا: تأسيس دعائم قويمة تبنى عليها أنظمة البلاد العلمية والاقتصادية والدفاعية، وتراعى في الأنظمة العلمية فكرة تجديد الشرق، وفي الأنظمة الاقتصادية إعطاء قسط ممكن من العدالة والمساواة في حالات الناس الاقتصادية.

ثانيًا: ربط دول الشرق الأدنى بعضها بالبعض بروابط اقتصادية وعلمية، والسعي

في شتى جمعية أم القرى لتدوين تاريخهم على أساس متين وعلمي واستقلال. وكان من أعمال لهذا الحزب ما يأتي:-

١ - تحقيق الغرض الأول الذي من أجله تأسست الجمعية، وهو توحيد المسلمين على كلمة واحدة، ليكونوا قوة واحدة يعتمد عليها في الدفاع عن حقوقهم. وقد تأسست الجمعية في شتى أنحاء العالم الشرقي وفروعها في جميع أنحاء العالم، وذلك لتعريف الشرقيين بالشرعة الإسلامية وعلوم العرب ودراسة الأدبيات الشرقية (الأخص)، والنهوض بالشرعة الإسلامية وعلوم العرب ودراسة الأدبيات الشرقية عامة والعربية خاصة، والاهتمام بتعليم الأخص منها، بحيث يتمكن من يتعلمها في عصر خاص، مع بث روح الشرقية فيهم، وتعريفهم بعلوم العرب وآدابها، بحيث يساعد العرب على نهضتهم، ولا يتأخر أحد من العرب موقف يستدعي انتقاده. هذه هي الوسائل التي تتخصص في سعي في خدمة الشرق وعلومه بوجه الأخص، إلى حكومة نفسه، وذلك بالعمل على إنهاضه، وعلى الأقل بتوحيد عنصر قوي من عناصره المتجسس في أمة حكومة، وذلك بأن تتقدم أمة من الأمم المتسابقة في العلوم والمدنية بالانتخاب، وتكون جديرة بالانتخاب، وذلك بأن تعمل على وضع قوانين تلائم نشوة حركة الشرقية الإسلامية، وتهتم بما تهتم به من علوم، والاهتمام على الأخص بالعلوم الاقتصادي والحربي الذي من شأنه الحركة.

٢ - تحقيق الغرض الثاني الذي وضعت من أجله وسائل المتقدمة وهي:

١ - الالتجاء إلى الأمم الشرقية، لا الحكومات.

٢ - يجب أن تهتم الجمعية لإحياء العلوم والآداب الشرقية وتنشر بها بلغة وشرعة وجنسية صريحة ثم لا يجب أن تكون حكومات شرقية، أي تكون جمعية على شكل حزب مصري في بلدان شرقية أخرى) جمعيات على الأرجح بعضها بعض أشخاص اقتصادية وسياسية، وذلك ينشأ جمعية الأم الشرقية

المسألة الشرقية ... كانت تفهم عند أوروبا حتى حرب العامة الكبرى ... الدول العربية على اقتسام بلاد الشرق (الشرعة الإسلامية) بعضها بعض، فكان

(١) الأهرام في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٤م

لأساسية هي فكرة سلام ومصالحة بين هذه الدول. حتى يتسنى لكل منها في نفسه، ومن هذه الناحية ذكرت مسألة الشرقية قبل معهد دكرسات التي قامت بين هذه الدول بشأن هذا التقسيم. أما اليوم فقد انتهت هذه المشكلة، وكانت بقية الأقاليم التي أرادت عصبة الأمم أن تنتزعها من تلك البلاد التي تنتهب وتقسم هي نفسها قد انتهت، هي أيضاً لأن صاحبها حقوقها وردها إليها، فلم تعد المسألة الشرقية اليوم تنازعاً بين دول الغرب فحسب، بل هي أيضاً مسألة من مخلفات قوة تقوم بها أمم إسلامية كبيرة في سبيل تحررها.

* * *

والعلاقة بين الدول الاقتصادية بين الدول الشرقية (الإسلامية) مسألة تحتاج إلى بحث دقيق، فمن الممكن تصور عقد مؤتمر لدراسة بحث مسائل الاقتصاد، وكل ما عقد معاهدات تجارية بين هذه الدول، وبث ما تعرف بغرفة في بلاد الشرق، ولكن كل هذا ناقص ويحتاج إلى تعديل، وهذه تحتاج إلى بحث اقتصادي دقيق، وكل من يفكر في هذا يفكر في التقسيم الاقتصادي الذي يسير عليه، وفي توصية العلاقات بينه وفي توحيد مصالح، وهذه الدعوة الاقتصادية، تروج في بعض الكثير من روح هذه الدعوة الأدبية والعلمية، وكذلك نجاحها أسرع وأكثر إنتاجاً[2].

* * *

وفكرة السياسة العلمية التي تعتمد على تنوية بلادها (تحبس وتحرير وتصدير وتعليم وتصنيع وزراعة وتوسيع الاقتصادي) ستصبح بعد ذلك تعتمد على تحقيق وحدة عربية وجامعة الأمم الشرقية[3].

* * *

الإسلام والشرق[1]

طلب إلي الأستاذ فتحي رضوان، وهو شاب يحقق صورة التي أحب أن تكون عليها شباب الشرق، أن أكتب كلمة في عدد «مجلة» عن هذا الموضوع

(١) لا أعرف في السياسة سنة ١٩٢٤م.

(٢) لا أعرف في السياسة سنة ١٩٢٤م.

(٣) باريس في ١٠ أبريل سنة ١٩٢٤م.

(١) [هذه المقالة نشرت في مجلة «الثقافة» بالقاهرة في العدد ٢٩٣ ـ الجمعة ١٤ جمادى الثانية ١٣٥١هـ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢م]

نسعب ، هشمه ف تعوه به هد شد شرقه عد م وأملا ، عن ادعاوه لشرق ، ويوكر عظمه شرقيين ، وكنت حس في نفسي عد نسعي بعده " الحركه حديدة " سبه من حدوه عرقتها شد ف يكون وقد م لشباب ، عد ف ست في سر سب فحي كنب بدد ت نفسي سعد بحد مستقبل شرق ، وب ر سأله بي ذهم الإسلامية ـ على سبه لأسب ، ع لاسمة ـ لن تم حتى يقوم شرق سر حد ، ويبهض في مستقبله بالأعباء التي اصطلع بها في ماضيه

وضع نفسي بيوم د أرى ب ي ركب هم نحت ، وبجنبه سعب في لاعماق شرف وقوة سركو من حد بد ، وأرى لايدي دي مبلات به نفسي سه يترعرع ، ولكنه انحدر إلى إيدي القلب ، وبدن القلب اصعف الإيدي

مرت سنو عد فرغت من وضع كتابي " خلافة وتطورها لتصبح عصبه أم شرقية " ـ وهو كنب وضعته بفرنسية عقب أن قوض الترك صرح الخلافه بعثمانية ـ ونلفت لعالم الإسلامي أشد ما يكون حيره و صطر ب ، نفسي تعصف من سو ر يتخذ ه وسط هذه الظلمات ، وهو باق بي اليوم يتفقد ذلك امور

حدث كتابي ـ بعد أن تقصت ما سبه من ترب ـ دت أن ستيم منه سك ، روح ي كانت تهز أوتار نفسي ، وبنت على مشاعري ، و أكب ساعات تطو ف في موضوع خلافة و شرق لإسلام ، فنت نطري نصعه سطر حات خلال سه ه التي وصعها بكتاب ، هذه هي ترجمتها .

" لم أتردد في أن نضع في مسبه خلافة بي حر ي ، هو أن تصور بنك نظام فيصبح عصبة أم شرقية ، وكان بدي مستقبل شرق شد سوحا من ن ع عن ام حر ه هد حس ، فبي قوى لإنشاء هو عصر شرق في عصبه من عصبه وحلال ، وف يكون حتم يوم حقيقة في بعد ، وكم كثر حسون في و ب في قرب شاس عشر ـ سنون تصم جمعة تصم شات لأم لأو ب ، وهد نحن سام في شات عشر بن هد لحتم قد أصبح بعد ، وهد حيل بنحق في جمعة لأم نحسف ، وهي سنون ، ن ما هي نعرول في حيه لأم ؟

على ن شرق في حاجة بي رجل قد ر بن دون عرقمة ، وهو بتصب ـ بي حب لحرية نعرقمة و نصحه و لإشر ، ف رجل بن نعمون بفكره حسبه ، هي رجل

الشرق من جديد، يجب أن يكونوا عند حد قول الشاعر الفارسي: «وهو تضيء لنا وهي تحترق».

وإني كثيراً ما أذكر الإسلام في خلال هذا الكتاب، ولا أقصد من هذه الكلمة مجموعة من المعتقدات الدينية، وإن كنت أشعر نحو هذه المعتقدات باحترام المسلم الخالص الإيمان، ولكني أقصد بالإسلام تلك الثقافة الإسلامية التي أنارت جوانب العالم في ظلمات العصور الوسطى، فالثقافة الإسلامية، لا الدين الإسلامي، هو الذي يعنيني

لقد وُلد الإسلام في جوار دينين عظيمين سبقاه إلى الوجود ـ المسيحية واليهودية. فكان دين الأخلاق الكريمة، وكان من أطهر وأنبل الأديان البشرية التي عمت العالم

ولكن الدين في الإسلام ليس كل شيء، فإلى جانب الدين توجد المدنية، فأما الذين يؤمنون بتعاليم الدين فأولئك هم المسلمون، وأما الذين ينتمون إلى الثقافة الإسلامية، فأولئك هم أولاد ذلك الوطن الإسلامي الكبير، وقد وسع المسلمين والنصارى واليهود، عاشوا جميعاً تحت علم الإسلام طوال هذه القرون. بهذا المعنى الأخير يكون الإسلام والشرق شيئاً واحداً؛ فإذا تحدثت عن أحدهما فكأنني أتحدث عن الآخر.

ولقد عاش في الحظيرة الإسلامية ـ جنباً إلى جنب ـ رجال أحرار في معتقداتهم الدينية، وفلاسفة كبار، وفقهاء وعلماء، حملوا لواء العلم واصطلعوا بأمانته، هذا الجو الإسلامي، الذي أوجد ابن سينا كما أوجد الغزالي، هو الجو الذي أريد اليوم أن يعود، هذا هو إسلام الأمس، وإسلام الغد.

فهل آن لهذه الظلمات التي تحيط بالشرق أن تنقشع عن هذا العهد الجديد؟ وهل يستعيد الإسلام قوته وصفاءه ليقوم بما قام به من قبل في تخليد مجد الشرق وعظمته؟ وهل آن لنا أن نقول:

«الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق»؟.

وقفت عند هذه العبارة الأخيرة (الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق) فرددتها في خاطري المعاني تتداعى بعضها وراء بعض

أيه علاقة للإسلام بالشرق؟ وهل الشرق ـ وقد تعددت فيه الأديان، وازدحمت فيه ـ تقوم له قائمة إذا اتخذ الإسلام طريقا يسير فيه إلى ما يطمح إليه من مجد؟ بل هل يجوز أن نتحدث عن الشرق كمجموع من الأمم، وكل أمة شرقية شقت لها طريقا في حياتها الخاصة، وهي في كثير من شئونها لا تقيم وزنا لما يقوله الشرق عنها، بل لا تكاد تعطف على حديثه، فهي لذلك في كثير من هذه الشئون أقرب إلى الغرب منها إلى الشرق؟ أليس من الخير، وقد علمنا من تاريخ المدنية الأوروبية ما علمناه، ألا نتكلم عن الشرق إلا كما نتكلم عن أوروبا: مجرد تعبير جغرافي يشمل مدلوله أمما متفرقة، من جنسيات مختلفة، ولغات متباينة، وأديان شتى، وألا نتكلم عن الإسلام إلا كما نتكلم عن المسيحية: دين سماوي كريم، نزل من عند الله ليطهر النفوس، فعرشه في القلوب، وحكمه على الضمير، ولا يعنى بشئون الدنيا، ولا ينظر إلا إلى علاقة العبد بمولاه؟

أوَهل يكون الإسلام شيئا غير المسيحية، وتكون رسالة محمد غير رسالة المسيح؟ هل تمثل محمد قيصر في غرور الدنيا وزخرفة الملك، فهان عليه أمره، وفصل ما بينه وبين الله؟! أم أن الإسلام دولة إلى جانب الدين، وملك إلى جانب العقيدة، وقانون إلى جانب الشعائر؟!..

إذا كان أمر الإسلام هو هذا ـ وكل ما عندنا منه يثبت ذلك ـ فمن تكون رعايا تلك الدولة الإسلامية؟ أهم المسلمون وحدهم؟ أم هم كل من استظل براية الإسلام، وانتمى إلى الثقافة الإسلامية، ولو كان غير مسلم؟

وما عسى أن تكون تلك الثقافة الإسلامية؟ أليست هي روح الشرق تمثلت علوما وفنونا وفلسفة؟ ألم يَسُن صرح هذه الثقافة عقولٌ شرقية تنتمي كلها إلى الإسلام، وإن كان ليس كلها مسلما؟ أليست الشريعة الإسلامية ـ بعد أن تكون شريعة الله ـ هي شريعة الشرق، منتزعة من روح الشرق وضميره، أوحى بها الله إلى عبد شرقي، في أرض شرقية؟ ألم يكن الفقه الإسلامي ـ كالفقه الروماني ـ شريعة إمبراطورية مترامية الأطراف، متعددة النواحي، قام عليها أمر الدولة، واستقام بها السلطان والملك؟

من يعيد لهذه الشريعة جدتها بعد أن خلقت؟ ومن يهيب فيها بالحركة بعد السكون؟ أليس من المستطاع أن تتحصى الشريعة الإسلامية أعناق القرون، فتصبح شريعة العصر، تتسع لمقتضيات الحضارة، وتصبح شريعة الشرق، دون تمييز بين دين ودين؟

تعالى الله أن يكون العربيون أقدر منا على فهم شريعته، وهم غير مسلمين، فيرون أنها تصلح أن تكون مصدرا عالميا للقانون[1]

ثم، أتكون من الخير أن نتحدث عن الشرق كمجموع من الأمم يرتبط بعضها ببعض من الجنس واللغة والدين، أو يرتبط بعضها ببعض بشيء آخر؟ إن الشرق قد ملأ التاريخ بالأعمال، مملوءة بالذكريات المجيدة، حافلة بما تقدسه الإنسانية من نظرات وما تمجده من سمو، ذلك هو الشرق الذي نريد أن نبعث فيه الروح العصري الذي يبني عليه، وتعيد إليه العبقرية تذكو في نفوس قريش ما فيها من رجس ودنس، وتتقبل فيه العزائم، فترى فيه مشكاةً يبعث النور والأمل.

أليس الشرقي من تعرفه هذه الكتب محفورة على صفحات الخلود؟ أليس الشرقي من تعرفه هذه الكتب مطبوعة في صميم الحضارة ورفعتها البشرية؟ أليس الشرقي من تعرفه هذه الكتب قد وقف أمته وبنيها على الحق والخير والعدل؟ أليس الشرقي من تعرفه هذه الكتب قد كان له من نفوذه في الشعوب ما شاء؟ أليس كل هذا تراث الآباء والأجداد، يتقبله ذكريات مجيدة نفوسنا، وتشيد بها عزائمنا؟

أيستطيع ذلك الماضي المجيد حاضراً لا تملك فيه من أمرك شيئاً، ثم لا تطمع بعد ذلك في مستقبل؟ أي طريق يتخطاك لا تسلكه، وأي نوع من الوحدة لا تحققه، وقد كان في هذا التضامن وفي هذه الوحدة ما يدنينا من الأمل؟

الشرق يحتضر بين يديه، ولكنه ينهض لا ينهض العرب وحدهم بل يشاركون معه على خير الإنسانية، فالعرب قد نهض وصبّ على الشرق هذه النفوس الثائرة، وقد أراد الله بهذه النفوس أن ترتفع، وأراد للإنسانية أن ترى أحد شطريها يتحرك بعد أن كان مشلولا

ولكن، أنّى لنا أن نتحدث عن وحدة الشرق، وأي نوع من الوحدة يضم شتات هذه الأمم؟ وهل توجد في الواقع أمم شرقية؟ أليست الشعوب في الشرق في أول عهدها من التكوين؟! وليس من تعجل الحوادث أن تتكلم عن جمعية من الأمم الشرقية قبل أن

---

(1) هذا هو ما قرره مؤتمر المستشرقين الذي عقد في جنيف في سنة ١٩٢٧ من أن الإسلام يحتوي على نظم وتشريع هي بنوعها في العقائد والعبادات والشريعة الإسلامية تصلح أن تكون مصدرا للقانون العالمي

سكمر كل أمة بقوميتها وذاتيتها؟ وهل هو العرب هم الذين لتفكير في الوحدة لأنهم قد تعصبت فيه القوميات وصارت شوكة في حلق الشرق كما تصير في أثر العرب، ومثله مثل العرب في العصور الوسطى، إذ تسقط الإمبراطورية الرومانية المقدسة كما تسقط خلافة اليوم، وإذا يقوم على أنقاض هذه الإمبراطورية الشرقية عدد كبير من القوميات، كما تقوم الآن القوميات الشرقية وتكون، وقد نشأت في أوروبا نوع جديد من العلوم والفنون كما يشأ الآن في الشرق فحرهذه حركات علمية خطيرة. فعسى الشرق أن يسبع حضارة الغرب، ويوصل السير في نهضته العلمية حتى يدركها على أساس قومي، ويفرق أمم، كما فرقها جنسيتها وعاداتها وقوميتها، حتى تشتد هذه القوميات وتتسع ترسخ، عندئذ يمكن التفكير في نوع من الوحدة فهل من هذه الأمم بعد أن تكون قد أصبحت أمما؟

لعل من تسبيع هذا النوع من البحث هو الترتيب الطبيعي للأمور، تبعه استقراء التاريخ، ويحتمه ما سار عليه الشرق من تقليده للغرب

ولكن، أنحسن أن نبحث في أمر هذه الفكرة على سطحية ما بين الشرق والغرب من فروق

الغرب في العصور الوسطى، سار بقدم بطيئة، لا يستحثه إلى التقدم إلا الحوائج الملحة فيه، ولم يكن يحسبه أو شرقيه يخشى على كيانه من سطوتها، فإن الغرب ورث ثم تصلا في الصميم إلى حد استعمار أوروبا لأعظم أجزاء منها، كما تستعمر أوروبا الشرق اليوم بعينه، ليست الغرب أن تفرق أمما، كل أمة تنتهي بقوميتها عن جارتها، وتغير نهضة قومية، وتغير على القوميات الأخرى، حتى إذا تكاملت هذه القوميات وأتت حركة التحرير الداخلي من سيادة واستقلال وتعاضد، قامت الشرق كله، ونشبت الحروب، حتى إذا تم لكل قومية كيانها، ووفرت لها حريتها الداخلية، كان من الطبيعي أن تفكر هذه القوميات المختلفة في التعاون والتضامن، على أساس نوع من الوحدة لا يزلزل حتى لا تستحوذ عليه السياسة. أما الشرق فهو في نهضته يختلف عن الغرب في أمرين جوهريين يحملان على أن يسير بخطى وسيع بحو الوحدة التي يشتهى من الوحدة

الأمر الأول: يجد الشرق أمامه طريق التقدم معبدا، سبقه فيه الغرب، فهو يسير على هدى، ولا يتحسس جوانب الطريق ليعرف أين يضع قدمه، لذلك ترى الحركات التي كان طبيعيا أن تتوالى في الغرب دون أن تتعاصر، تقترن في الشرق إحداها بالأخرى، وتسير خببا، فالنهضات القومية، وحروب الاستقلال، والحركات الدستورية، والثورات الفكرية، كل هذه تجتمع في الشرق في العصر الواحد، وفي الأمة الواحدة؛ بينما هي في الأمم الغربية لم توجد إلا واحدة بعد الأخرى، وفي مدى قرون.

والأمر الثاني: أن الشرق ليس أمامه فسحة من الوقت يضيعها في التأمل والتفكير، فهو مهدد من الغرب بما لم يكن الغرب في بدء نهضته مهددا به من الشرق. نهض الغرب؛ إذ كان الشرق قد جنح إلى الخمول، وأفلت شمس مجده، أما الشرق فهو ينهض اليوم والغرب في أوج عزه وقوته، وليس في هذا إلا ما يستحث عزيمة الشرق، فهو إذا أجاب داعي العوامل الداخلية الكامنة فيه فلبى نداءها، يكون أسرع في تلبية هذه العوامل الخارجية المحيطة به من كل جانب، تستنهضه للعمل في معترك لا يعيش فيه إلا الصالح للحياة؛ لذلك ترى بعض الأمم الشرقية ـ كمصر وتركيا ـ ترتفع في عشرات من السنين مدارج من الرقي لم تجتزها الأمم الغربية إلا في قرون.

ثم، أيحسن أن تترك الأمم الشرقية تسير كل أمة في طريقها، حتى تصبح القوميات الشرقية بعد حين من الزمن متنافرة متحاسدة، على النحو الذي نرى عليه القوميات الغربية اليوم؟ أليس علينا أن نتلقن درسا مما نراه من التباغض فيما بين الأمم الغربية، فنتعلم أنه ليس من الصواب ترك القوميات الشرقية تنمو كل منها بمعزل عن الأخرى حتى تصبح هذه القوميات غربيات متباعدات؛ فنعدم في الغد ما يسهل علينا الوصول إليه اليوم: روح المجموع التي يشكو الغرب من فقدها لما طال عليه الأمد في تكوين قومياته.

هذه مسألة اجتماعية كبرى لا يزال علماء الاجتماع يدرسونها.. أيحسن التفكير في تكوين المجموعة قبل استكمال الأجزاء لمقوماتها؟ أو يحسن ترك الأجزاء تستكمل ذاتيتها، ثم التفكير بعد ذلك في تكوين المجموع؟

ومهما بدا من مسحة الصواب على الحل الثانى؛ فإن الصعوبات الحقيقية التى تعترض الغرب فى لمّ شعثه بعد التفرق، لا تنهض دليلا على صحته.

فلترك الشرق تستكمل كل قومية فيه مقوماتها، ولكن لتنفخ فى هذه القوميات روحا شرقية واحدة، تسترشد بها كل أمة فى نهضتها الوطنية، حتى يسود التآخى والتعاون فيما بين هذه الأمم، ويسهل بعد زمن ـ قريب أو بعيد ـ أن نحقق نوعا من الوحدة فى الشرق لا تزال أوروبا تتلمس إليه الطريق حتى اليوم.

هذه هى الأفكار التى ازدحمت فى خاطرى وأنا أعيد قراءة المقدمة التى وضعتها لكتابى، استعرضتها فكرة بعد الأخرى، وأنا مأخوذ بما لمسائل الإسلام والشرق من خطر وجلال، وما زلت أفكر فيها، وما زلت مستغرقا فى التفكير....

***

المراجع

د. عبد الرزاق السنهوري: [عبد الرزاق السنهوري في أوراقه الشخصية] ـ إعداد: د. نادية السنهوري، د. توفيق الشادي. طبعة الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة سنة ١٩٨٨م.

د. محمد عمارة: [إسلاميات السنهوري باشا] طبعة دار الوفاء ـ مصر ـ سنة ٢٠٠٦م.

[مجلة قضايا الدولة]: عدد خاص عن «الفقيه الإمام عبد الرزاق السنهوري» ـ القاهرة ـ يونيه سنة ١٩٨٨م.

[مجلة القانون والاقتصاد]: عدد خاص ـ في مجلدين كبيرين ـ مقالات وأبحاث للسنهوري، وعنه ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م.

من أعلام الإحياء الإسلامى

- إذا كان (الإحياء) هو التعبير الأدق عن رسالة الإسلام (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) فإن هذا الكتاب هو « ديوان الإحياء الإسلامى» فى عصرنا الحديث.
- فمن رشيد رضا الذى حمل (منار) الإحياء الإسلامى إلى العالم على امتداد أربعين عامًا .. وكان أول من تصدى للعلمانية والصهيونية فى فكرنا الحديث.
- إلى حسن البنا الذى تسلم الراية .. واستدعى الأمة؛ لتواجه تحديات التخريب بالإسلام الشامل لكل ميادين الحياة.
- إلى البشير الإبراهيمى الذى حمل إلى المغرب العربى رسالة الإصلاح بالإسلام.
- إلى الشيخ شلتوت الذى مثّل قمة الإحياء الفقهى فى عصرنا الحديث.
- إلى فقيه الشريعة والقانون الدكتور السنهورى باشا الذى وهب حياته لإحياء الشرق بالإسلام، حتى تعود الأمة لموقع الريادة بين العالمين.
- إنه كتاب جامع يحمل رسالة الإحياء الإسلامى إلى الباحثين عن معالم مشروع التقدم والنهوض.